كتاب الجمهورية

كُناسة الصُّحف

محمد العزبي

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

كتاب الجمهورية
مارس ٢٠١٢
www.gombook.net.eg

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
خالد بكير

كُناسة الصحف

محمد العزبى

دار الجمهورية للصحافة
١١١ ــ ١١٥ ش رمسيس
ت : ٢٥٧٨٣٣٣٣

أعضاء مجلس التحرير

محمد فودة
ناجى قمحة
محمد جبريل
عثمان الدلنجاوى
مصطفى القاضى
محمد إسماعيل

مارس ٢٠١٢

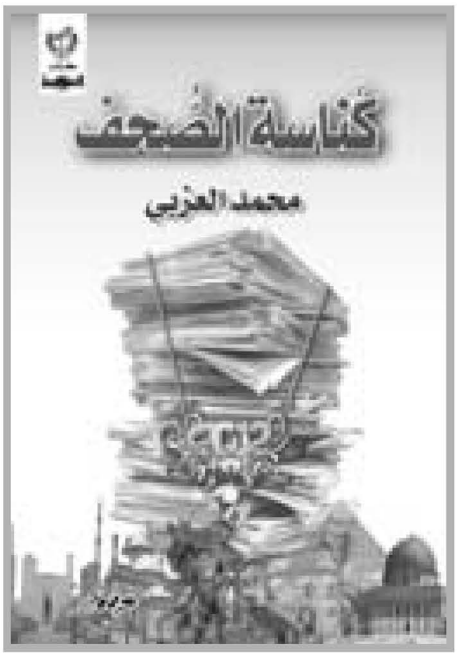

تصميم الغلاف الفنان : سعيد فرماوى

سكرتير التحرير

سيد عبد الحفيظ

حقوق النشر محفوظة لـ (كتاب الجمهورية)

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن سلسلة (كتاب الجمهورية)، بل هى مسئولية أصحابها.

ولا يجوز نهائياً نشر أو اقتباس أو اختزال أو نقل أى جزء من الكتاب دون الحصول على إذن من الناشر.

أسعار البيع فى الخارج

سوريا	٣٠٠ ل.س
لبنان	١٢٠٠ ل.ل
الأردن	٤,٥ دينار
الكويت	٣ دنانير
السعودية	٣٠ ريالاً
البحرين	٣ دنانير
قطر	٣٠ ريالاً
الإمارات	٣٠ درهماً
سلطنة عُمان	٣ ريالات
تونس	٦ دنانير
المغرب	٩٠ درهماً
اليمن	٩٠٠ ريالاً
فلسطين	٦ دولارات
لندن	٦ جك
أمريكا	١٥ دولاراً
استراليا	١٥دولاراً استرالياً
سويسرا	١٥فرنكاً سويسرياً

الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية
١٨٠ جنيهًا
الدول العربية ٩٠ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا
١١٥ دولارا أمريكيًا
أمريكا وكندا
١٣٥ دولارا أمريكيًا
باقى دول العالم
١٧٥ دولارا أمريكيًا

إذا وجدت أى مشكلة
فى الحصول على
«كتاب الجمهورية»
وإذا كان لديك أى مقترحات أو
ملاحظات
فلا تتردد فى الاتصال على أرقام :
٢٥٧٨٣٣٣٣ ٢٥٧٨١٠١٠

http://www.eltahrir.net

سألنى مجاملاً: لماذا لم تكتب اليوم؟

كيف، وأنا أنشر مقالاً كل صباح منذ سنوات؟

لم أشأ أن أرد بما يفسد ود مجاملته

ابتسمت شاكراً اهتمامه.

شكوته لصديق، فأجابنى: هذا أفضل

من أن يسألك لماذا تكتب؟!

أرجو أن أجد من يقرأ كتابى قبل الأخير!!!!

سنوات الحب والحبس

ليالى ألف ليلة

كتاب وأغنية وصديق وسكة سفر، أمور أعشقها وأهواها، كان كتابى الأول ألف ليلة، قرأته ألف مرة، وأبحرت بالخيال فى حواديته، وتمنيت يوماً أن أكون من أبطاله.

أغنيتى الأولى سبع سواقى، سمعتها سبعين مرة وكان عبدالوهاب فى كل مرة يطربنى أكثر.

أما الصديق فقد مات، ذات صباح قالوا: البقية فى حياتك، لم أتقبل التعزية، صديقى لم يمت، وإنما غاب، طال انتظارى، ولم يعد لى صديق، إلا أننى مازلت أنتظر، سافرت كثيراً وقليلاً، ومازلت أخشى السفر.

كانت أول مرة وأحلى مرة منذ ثلاثين عاماً، وربما أكثر، ركبت يومها البحر وتعاملت بالجنيه المصرى، وسافرت بعدها بالقطار والطائرة ومحشوراً فى تاكسى بالنفر، لست أدرى متى تكون آخر مرة، فالسفر حياة لا تنتهى إلا بالموت.

ذهبت مرة فى رحلة طولها بضع ساعات، ونسيت نفسى مرة فبقيت شهوراً وبضعة أيام.

فتحت عيونى على "محمد التابعى" ورحلات الباشوات، إلا أنها جميعاً كانت غراميات.

وفتحت عيونى على «أنيس منصور» ورحلات إلى بلاد تركب الأفيال، ومع كلمة خيال، ومع كل خيال أحلام، يأخذ بيدك وكأنك معه، ثم يتخلى عنك فجأة فهو دائماً على سفر.

سنوات طويلة مضت، وذكريات لا تنتهى: سهرة على ضفاف البسفور جائعاً، أياماً فى قلب باريس مفلساً، ليالى حالمة فى"فينيسيا" العائمة.. هكذا أحببت الرحيل، واحتضنت جواز السفر، رغم أننا كنا نخرج بالعافية بعد الإذن والتحريات، أما الدخول فدون إذن ولا يحزنون، وكانوا يمنعوننا من السفر عقاباً ومن باب العند، أو لأن مزاجهم غير معتدل، والمسموح به خمسة جنيهات تضيع قبل مغادرة المطار، ولقد فكر كثيرون ألا يعودوا، ولم يعودوا، فالوطن لم يعد للجميع.

ما علينا، فذلك حديث يقترب من السياسة وأنا اليوم فى حالة سفر على الورق، أفسدتنى السياسة وأمتعتنى السياحة، فأحلى ما فى الدنيا أن تعيش وسط الناس، وأن تقوم بدور الخواجة يأخذونه من يده ويرونه أغرب ماعندهم.

كاد يأكلنى أسد فى غابات أفريقيا، أو هكذا تصورت، وكادت تسقط بى الطائرة مرة فى سماء أمريكا، أو هكذا بدا على وجه المضيفة، ومثل البشر هناك بلاد تنعشك وتهيم بها، وبلاد تلفظك وتفر منها، ولقد أحببت مدنا كرهها كثيرون، وأحسست بالأمان فى بلاد يسودها الخوف.

أعجبتنى "تايلاند" رغم قلة الحياء، وغضبت على موسكو لأننى لا أحب " الفودكا "، والتقيت فى الصين الشعبية بامبراطورها الأخير، وأقلقنى عجزى فى الفرنسية على "أبواب باريس".

وعبرت سور برلين من الغرب ومن الشرق، وبعد أن أصبح قطعاً من حجارة يبيعونها للسياح، ووقفت على خط الحدود فى كوريا أسمع شكوى الشمال وشكوى الجنوب.

ذكريات كثيرة تختلط ولا تتسق، بل تقفز على السطح تتافس بعضها البعض، وكلها ذكريات حلوة، حتى أيام الخوف والضنك والجوع لم يبق منها سوى حلاوتها، الليلة التى قضيتها فى المطار انتظاراً لتأشيرة دخول، والليلة التى قضيتها على ظهر باخرة مفلساً بلا سرير ولا طعام، والليلة التى قضيتها

فى حفرة تحت الأرض بعيداً عن قنابل الأمريكان، والليلة التى ضاعت فيها تذكرة العودة بعد أن ألقيت بها فى سلة المهملات، إن عالم السياحة والسفر يبدو فى منتهى الرقة والأدب والكياسة ولكن بشرط أن تكون ثرياً وقادراً، وعندك حق أنهم عالم من الحيتان يأكل فيه السمك الكبير السمك الصغير والجميع يأكلون الزبائن.

آخر سكة سفر كان الشرق الأقصى بغموضه وتطوره، الجديد فيه يعانق العتيق ولا يخاصمه، الإنسان فيه ينحنى للغريب ولا يوقره..

ويبدو أن نجمى يتجه شرقاً، ففى كل مرة أنوى السفر إلى بلاد الفرنجة فى الغرب أجدنى فى طائرة تتجه إلى آسيا فى الشرق، ولست أشكو ذلك ولكننى أندهش، ومع كل ما استمتعت به فإن الرحلة الأولى تستحق أن تروى.

حكاية شخصية للغاية

المرة الأولى التى خطفت فيها رجلى بعيداً عن بر مصر دامت شهرين، كانت الأموال قليلة وفيها البركة، وكانت الملابس خفيفة والشباب يحمى من البرد..

حملت حقيبة ومعطفاً، وأخذت تصريحاً بالسفر، وركبت الطائرة بدون جواز سفر، إذ كانت محطتى الأولى سوريا ونحن فى حالة وحدة، وليست بيننا أسوار، لا أكاد أذكر من تلك الأيام شيئاً، فإننى ركبت سيارة أجرة بالنفر إلى الحدود مع تركيا، وهناك بدلنا السيارات ودخلنا الجمارك، واكتشفت أننى الوحيد الذى لم يهرب عملة، على رصيف المحطة انتظرت القطار، وتناولت الطعام، وشممت رائحة الدخان الأسود، وكان ذلك مقدمة لصوت نعيق القطار، يوم كامل وليلة كاملة، ثم بعض يوم حتى أصبح القطار محلنا المختار، تعاطف الركاب مع بعضهم البعض، خصوصاً أننا كنا من ركاب الدرجة الثالثة.

لم أحس بأهمية رفيقى فى الرحلة وصديق عمرى إلا عندما وصلت مدينة " إسطنبول"، فقد فهمت منه أنه خبير فى "الإسطنبولية" يعرف شوارعها وخفاياها، كانت تلك الخبرة هى أساس الرحلة، وكانت تعليمات الخبير "حمدى قنديل" واضحة وصريحة هى أن ألتزم الطاعة وأقبل قيادته عندما يحط الرحال أجمل مدينة فى تركيا، وقد كان.

أول فرمان أصدره كان: لا تقرب التاكسيات، كيف وأنا متعب، وهو أيضاً،

إذ كانت رحلة القطار طويلة وقلة النوم والأكل والشرب دافعاً لأن نلقى بأنفسنا فى أقرب تاكسى إلى أقرب فندق، حتى ولو إلى الصباح، ولكنها التعليمات..

ومثل الجنرالات وبدون استشارات أشار إلى "شيال" وقعت عليه عينه الخبيرة، اختاره عجوزاً ضعيفاً كى يكون رخيصاً، حمل حقائبه وحقيبتى اليتيمة وسرنا وراءه فى الطريق مسلوبى الإرادة زائغى البصر، ولكن مع حفظ المقامات: حمدى الجنرال وأنا كل عساكره.

الفنادق حول المحطة مشغولة.. اخترقنا حديقة، لم يعد "الشيال" قادراً، وهو - للحق - غير قادر من البداية، بدأنا نساعده ونخفف أحماله، شوارع "إسطنبول" طالعة نازلة، والشيال لم يعد يحمل ولا حقيبة واحدة وكل دوره وما يستطيعه هو أن يدلنا على الطريق، أصبح هو الجنرال وحمدى تقهقر إلى رتبة "شاويش"، ومازلت أنا كل العساكر.

على أى حال انتهى الحال بأن ركبنا تاكسى بعد أن نفحنا الشيال العجوز المسكين بعضاً من المال، وفى التاكسى رأيت مستقبل " حمدى قنديل" قبل أن يراه، إذ تغيرت لهجته وأخذ ينطق بكلمات غريبة بلهجة أغرب وطريقة درامية استوضحت معناها، فقال لى مندهشاً: ألا تعرف كلمة قهوة عرب؟! ولكنك تقول شيئاً آخر.

قال مندهشاً: بالتركية يا أخى علشان يفهم.ولم يفهم السائق.. أما زميلى وجنرالى فقد استمر فى ترديد الكلمة وهذا هو ما يفعله مذيعو ومذيعات التليفزيون الذى أصبح حمدى من نجومه فى الستينيات وتركه بشجاعة وهو فى قمة مجده.. بعد أن أثقله ضميره.. فقد كان نجاحه ومقدرته سبباً فى اختياره ليحاور المعتقلين - أو بالأصح يستجوبهم - ثم يجرى "مونتاج" بيد خبيرة تحول الحوار إلى دليل اتهام يشوه صورة السجين أمام الراى العام، أحس حمدى بعذاب لم يفصح عنه لأحد، ولم يكن أمامه إلا أن يعطى ظهره للشهرة والنجاح وقد فتح الله عليه وأصبح خبيراً عالمياً فى شئون الإعلام والاتصالات ونجماً فى الفضائيات العربية وتطهرت روحه من آثام الماضى التى لم يرتكبها..

مالنا ومال الماضى، كل ما أريد أن أقوله إن حقائبه كانت كبيرة الحجم،

ثقيلة الوزن، عندما كنا طلبة فقراء نبدأ حياتنا الصحفية، وذلك دليل على اهتمامه المبكر بالأناقة؛ وهذه أولى علامات الانحراف التليفزيونى، كذلك كانت لهجته التمثيلية عند نطق كلمة "قهوة عرب" دليلاً آخر على قدرته التمثيلية والمذيع عندى ممثل واقعى يظل يخطىء ويخطىء حتى تصدقه، وقد صدقه سائق التاكس وأخذنا إلى ميدان " تقسيم" فى قلب مدينة " إسطنبول"، وأشار إلى قهوة فى الدور الأول دخلناها فى سلام فردوا علينا السلام، وطلبنا الشاى ومكانا يؤوينا..

لم تتكرر حلاوة الرحلة الأولى، وأذكر أنى بعدها سافرت وحيداً ليس لى رفيق، لم أركب الطائرة إلا بعد تفتيش وإجراءات وشك فى جميع الركاب فقد كان الإرهاب قد ساد.

مقعدى فى الدرجة الأولى حيث تدور كئوس الشامبانيا، وتسرف المضيفات فى توزيع الابتسامات، وأنا لا أبالى، رحلتى طولها ساعة زمن، وعلى سلم الطائرة ينتظرنى من يأخذ بيدى ويعفينى من الطابور والجمرك والرذالات، جيبى عامر بالدولارات وهناك من يقدم لى الدعوات..

ومع ذلك فإن الأيام لم تعد حلوة كما كانت، هل هو سنى وأفكار عجائز الفرح، أم أنه الحماس الذى يذبل، والزمن الذى يعاند والأحلام التى تتبدد، ولكن الأحلام أيضاً تتجدد ونحن الذين نصنع الزمن وليس هناك مبرر لفقدان الحماس والمسائل عال، هل تغير الحال، لماذا إذن يشيب الشباب قبل الأوان، لماذا يهان الإنسان بالصدفة، ومتأسفين..؟!

لماذا يحمل كل واحد جواز سفر ويطلب تأشيرة خروج إلى المجهول.. هل تغير الحال فأصبحنا ننعى الحظ بدلاً من أن نصنعه، ونبكى على الزمن بدلاً من أن نبدله، ونغش فى الامتحان بدلاً من أن نحفظ الدرس، ويتحدث الوزراء بدلاً من أن يعملوا، ونبحث عن الواسطة أفضل وأسهل وأجدع من الاجتهاد.

هل كل الفرق أننا كنا نقبض ونصرف بالجنيه والقرش، فأصبحنا نجرى وراء الدولار والسنت..أم أن الفرق هو أن الإيمان أصبح أقل وبعض من تبقى من المؤمنين تطرف وانحرف، لست أعتقد أن الفرق فقر وغنى أو حتى سوء توزيع واستغلال، فأحياناً كان ذلك دافعاً للتقدم ودليلاً على النجاح، هل هى الأخلاق أم فساد نظام التعليم أم ثقب فى " الأوزون"، ربما كان خوفاً من

مجهول أو قلقاً وضيقاً مما يدور، أغلب الظن أنه الإنسان، ذلك الكائن الغريب الذى إذا أهين مات، وأذا أعطى فرصة أبدع، والإهانات على رءوس العباد والأجساد بعضها يلهب الظهر بالسياط، وبعضها تكاد لا تراه، والإنسان إذا خاف مات.

مالنا ومال الموت وأنا أستعد أن أخطف رجلى خطوتين، إلى عالم مجهول.

أول مرة سافرت فيها إلى الشرق الأقصى كانت بالصدفة وبدعوة من كوريا الشمالية، وقد كانت رحلة مبروكة، إذ طالت وتشعبت، وامتدت إلى الصين الشعبية وفيتنام وهونج كونج وإندونيسيا والهند، كما كانت رحلة بالغة التأثير فى حياتى، إذ دخلت بعدها معتقل مزرعة طرة، وأعتقد أن هناك علاقة بين السفر والسجن، وأعتقد أن دخول الزنزانة هو رحلة أخرى إلى عالم مجهول لا يعرفه إلا من ذاق طعم مرارته.

ولنبدأ الحكاية من أولها: خريف عام ١٩٦٥ مجموعة من الصحفيين تضم الأساتذة "سعد التايه" و"كمال عامر" ومحمد حقى" و"عاطف الغمرى"، وقع عليهم الاختيار ليكونوا أول وفد صحفى يسافر إلى كوريا الشمالية ولقاء رئيسها المشهور "كيم إيل سونج"، والغريب أنها على غير عادتى كانت المرة الأولى والأخيرة التى أزور فيها كوريا الشمالية، ذلك أن الكوريين غضبوا لأننى قمت بعد ذلك بسنوات بزيارة كوريا الجنوبية، وكان منطقى أن أتعرف على وجهتى النظر، وأن أشهد سر التقدم الاقتصادى فى الجنوب، ولكن الرفاق فى كوريا الشمالية لا يعرفون سوى الأبيض والأسود، ولا يقبلون إلا من كان معهم قلباً وقالباً.

ويبدو أننى أيضاً خسرت كوريا الجنوبية بعد ذلك لأنهم أصبحوا يستسهلون الإعلان المباشر والدفع الفورى وإملاء ما يريدون، ولم تعد لديهم هم أيضًا بعد أن أصبحوا من أثرياء العالم سوى الأبيض والأسود، ولا يقبلون إلا من كان معهم قلباً وقالباً.

المهم أن أيامنا فى كوريا الشمالية كانت مثيرة ومملة فى الوقت نفسه، بالتعرف على التجربة والاستماع إلى حماس المرافقين والمسئولين وكل من يسمح له بالتحدث إلينا، ولكن لم يكن هناك شىء آخر نفعله، وكان علينا أن

نقضى أسبوعين بالتمام والكمال، وأن نسمع الكلام نفسه، وأن يرافقنا على الأقل ثلاثة من الرجال، وألا نخرج وحدنا من باب الفندق أو إلى أى مكان، كانت أشبه برحلة تثقيف سياسى على الطريقة الكورية، وكنا فى كل يوم نستمع إلى السيرة الذاتية للزعيم المحبوب قائد البلاد ومحررها" كيم إيل سونج"، فهو الذى قاد الحرب والسلام وهو صاحب الثقافات والكرامات، وفوق تلك الصخرة جلس يفكر ويفكر حتى انتصر فى الحرب، وعلى باب الدخول إلى المتحف القومى صورته وهو طفل، وعلى باب الخروج آخر صورة التقطت له، وما بين البابين رحلة حياته بالتفصيل الممل والخدمات التى أداها للوطن والإنسانية جمعاء، هناك عرفنا عبادة الفرد على أصولها، ونسبة كل شىء للزعيم الأوحد، حتى الأمراض يشفيها.. ولم يكن أمامنا إلا أن نهز رءوسنا موافقين ومصدقين لنعود إلى حجرتنا بعد كل درس نقضى الليل بطوله لنستعد مبكرين لدرس اليوم التالى.. الدرس نفسه.

حتى جاء يوم اللقاء الكبير، حيث ينتظرنا الزعيم، فإذا بنا أمام شخص ودود غاية فى البساطة، يحتفى بنا ويجيب عن أسئلتنا، ويحملنا رسالة إلى شعبنا، أصابتنا الدهشة وأجمعنا على أن الداء يكمن فى المنافقين، وخرجنا من عنده مصدقين أنه بشر يجعل منه الآخرون إلها وهو لا يدرى ولا يريد، وقد كنا واهمين، فمن باب القصر أخذونا على التو إلى بيت آخر صغير فقير، وقالوا لنا هنا ولد الزعيم، وفى هذا المكان جلست أمه تناديه إلى آخر ما تعودنا أن نسمع من حواديت وأساطير طوال أسبوعين كاملين.

أما خير ما يعبر عن الواقع المزيف فى البلاد فهو زيارتنا لأحد مصانع الحديد والصلب، وما يردده مرافقنا فى حماس بالغ من أن تلك الآلات الضخمة صنعها العمال الكوريون، بينما واضح للعيان أن الماكينات كتب عليها «صنع فى ألمانيا»، لست أدرى من منا الذى فكر فى أن نعود عن طريق الصين.. فمن غير المعقول أن نكون قريبين منها إلى هذا الحد دون أن نقوم بزيارتها، فقد كانت الصين تثير الخيال بغموض الأباطرة وفساد بنات شنغهاى والألف مليون نسمة وحرب الأفيون، وبانتصار شعبها فى تحقيق ثورته الشعبية عام ٤٩، وظهور نجوم لامعة فى سماء الكون مثل "ماو" و"شواين لاى"..

ولست أدرى لماذا تطوعت بالقول إننى صديق لمراسل وكالة الأنباء الصينية فى القاهرة، وإننا تحدثنا فى أمر زيارة بلده، وتركنا الباب مفتوحاً فلا هو يملك ولا أنا أعرف ماذا أريد، وفى البلاد الشيوعية فى ذلك الزمان لم يكن مسموحاً لفرد أو جماعة بأن يدخلها سائح أو صحفى أو زائر على حسابه الخاص، وعندما يشاء، فلابد من دعوة رسمية ومن كفيل!!

المهم أننى كلفت بتنفيذ خطة السعى لدخول الصين بالاتصال بمندوب الوكالة الصينية فى العاصمة الكورية "بيونج يانج" مستخدماً اسم صديقى وزميله فى القاهرة، وما سبق ودار بيننا من حوار حول إمكانية زيارة الوفد الصحفى المصرى الموجود فى كوريا الشمالية للصين الشعبية.

هكذا وجدنا أنفسنا نشد الرحال، فيما عدا " محمد حقى " الذى اختار الذهاب إلى موسكو، ولعله كان حصيفاً أو أن "الأهرام " طلب منه ذلك، فقد كانت العلاقات المصرية - الصينية قد تأثرت بسوء العلاقات بين موسكو وبكين، ولم يكن مستحباً فى ذلك الوقت أن يذهب وفد صحفى مصرى إلى العاصمة الصينية، بينما القاهرة على أشد الوفاق مع موسكو.

ولعلها الأسباب نفسها على الجانب الآخر، التى جعلت الحكومة الصينية ترحب بنا، وتبرز زيارتنا فى وسائل إعلامها، وتحتفى بإقامتنا فى فندق "بكين" المطل على ساحة "السلام الأبدى"، وقد كان وقتها الفندق الوحيد فى العاصمة الصينية المخصص لكبار الضيوف الأجانب، سعدنا بأيامنا هناك، وانتقلنا من مدينة إلى مدينة، وزرنا "المدينة المحرمة" فى بكين التى تضم قصور الأباطرة وحدائقهم وكانت محرمة على المواطنين، وانتقلنا إلى مدينة "شنغهاى" ذات التاريخ الطويل والشهرة العالمية وكانت مرتعاً للعصابات وبنات الليل قبل أن يستولى عليها الثوار، ويقولون إنهم قضوا على الفساد بالتثقيف السياسى، بينما يقول خصومهم إنهم فعلاً قضوا على الفساد ولكن فى ليلة واحدة، بأن جمعوا تجار الأفيون والعاهرات وألقوا بهم فى البحر وانتهى الأمر، وفى "شنغهاى" أتيحت لنا فرصة لقاء آخر أباطرة الصين ولعله الرجل نفسه الذى قدم قصته المخرج الإيطالى الشهير "برناردو برتولتشى" فى فيلم سينمائى عالمى يحمل اسم "الإمبراطور الأخير"، تم تصوير مناظره الخارجية فى أماكنها الطبيعية بالمدينة المحرمة، أين تلك التطورات مما سبق وحدث

قبل زيارتنا بسنوات عندما ذهب إلى بكين بعد نجاح الثورة أول وفد صحفى مصرى، وكان يضم الأساتذة الكبار "عبد المنعم الصاوى" و" إسماعيل الحبروك"، و"على حمدى الجمال"، و"صبرى أبو المجد" و"إسماعيل الشافعى"، و"عبد العزيز عبد الله"، إذ سأل "الحبروك" جادا عن اسم الإمبراطور الذى بنى قصراً أعجبه، فارتبك المرافق وكان يتحدث اللغة العربية، وسكت قليلاً قبل أن يقول بحماس: "إنهم الشغيلة ياسيدى"، إذ كان اسم الأباطرة ممنوعاً وقتها.

كان لقاء الإمبراطور الأخير مثيراً من بدايته، إذ أخذونا إلى بيت يغلب عليه طابع الغرب، وكان الرجل يرتدى بدلة عادية وليست بدلة "ماو" الشيوعية، وكانت زوجته تقدم لنا قطع الجاتوه الفرنسية وبالشوكة والسكين، بينما يدور الحديث باللغة الإنجليزية وكله تحية للثورة وشكر على ماجاءت به من إصلاحات واعتراف بما كان يدور من فساد، وعلى الرغم من أنها تمثيلية غير محبوكة، فإن مجرد رؤية الإمبراطور والحديث معه عمل صحفى تحمسنا له.

ومن "شنغهاى" إلى "كانتون" فى الجنوب، وهى ذات طابع خاص وآخر المطاف قبل أن نعود إلى "بكين"، ومنها نطير إلى "هونج كونج" بوابة الصين إلى العالم الخارجى، ولكن مفأجاة كانت تنتظرنا فى "بكين" هى أننا سوف نسافر بالقطار إلى مدينة «هانشو» التى يسمونها، لحدائقها وجمالها، الجنة على الأرض لتكون ختام الزيارة السعيدة وراحة من عناء السياسة والسفر، وكنا قبل ذلك قد وعدنا بأن نلتقى برئيس وزراء الصين المشهور "شواين لاى" ووافق الرجل، بل وحدد الموعد وانتظرنا فى الفندق بعد أن ألغينا كل المواعيد ولكن اللقاء لم يتم، ففى اللحظة الأخيرة اندلعت حرب على الحدود بين الهند وباكستان وشغلت "شواين لاى"، وكانت بكين على خلاف حاد مع الهند، وتأييد كامل لباكستان بخلاف صراعها العلنى مع موسكو، وحتى يرضينا الصينيون، وهم يعتذرون عن عدم اللقاء، قالوا: على أى حال فإن زميلاً لكم سبق وتقدم بأسئلة لرئيس الوزراء باسم وكالة أنباء الشرق الأوسط التى يمثلها، والتى يقول إنها تجب سائر الصحف المصرية، لأن ما تذيعه سوف ينشر فى جميع أجهزة الإعلام فى مصر والوطن العربى.

كانت أول مرة نسمع فيها أن زميلنا "كمال عامر" قد تقدم بطلب حديث خاص من "شواين لاى" مما اعتبره البعض منا خيانة، بينما اعتبرها "كمال" شطارة وهكذا تكون الصحافة ويبدو أن الصين كانت أكثر منا حرصاً على الإدلاء بحديث يشرح وجهة نظرها فى كثير من الأمور الدولية، خصوصاً خلافها مع الاتحاد السوفيتى، فكانت محاولة اللقاء مع الوفد المصرى ومن بعدها الإجابة عن أسئلة وكالة الأنباء، وإرسالها على نفقة الحكومة الصينية، والحق أن ذلك لم يكن عملاً استثنائياً، فالدعوة كانت شاملة لدرجة أننا كنا نجد كل صباح علبة سجائر صناعة صينية بجوار سرير النوم.

عندما عدنا إلى بكين استعداداً لرحلة "الجنة على الأرض" قبل العودة إلى الوطن، لاحظنا جواً من التوتر بين مجموعة المرافقين الذين كانوا يسهرون على راحتنا، ولا يكفون عن الابتسام وهم يلبون كل رغباتنا، كل ما عرفناه أن رحلة الجنة قد تأجلت وأن لقاءً مهماً سوف يتم في إحدى قاعات الفندق الذى نقيم فيه، أما الحكاية فهى أن شيئاً خطيراً قد وقع مما يؤثر على العلاقات المصرية - الصينية وبطريقة رسمية تحدث شخص لم نره من قبل ويبدو أنه على درجة من الأهمية، يروى بالتفصيل ما حدث، إذ أغفلت الصحف المصرية نشر أجزاء من حديث "شواين لاى" وقد جرى العرف أن تنشر مثل تلك الأحاديث كاملة، وجرى الاتفاق قبل تسليم الإجابة عن الأسئلة أن تذاع بنصها دون زيادة أو نقصان ودون تدخل فى الصياغة حتى لا تفقد الكلمات الحساسة معناها أو يساء تفسيرها، وما حدث لحديث رئيس الوزراء مع وكالة الأنباء المصرية جريمة أو شىء مثل ذلك، أصابنا الوجوم، وأكد الزميل أنه أرسل النص كاملاً وعلى أيديهم وانبرينا للدفاع عنه باسم أن الصحف تغير وتبدل فيما يرد إليها من وكالات الأنباء، وبالتالى يكون المسئولون هم محررى الصحف فى القاهرة وليس كمال عامر فى بكين، المهم أن ننقذه وننقذ أنفسنا من الورطة.. ولكن المسئول الصينى أجاب فى هدوء وثقة بأنه قد طلب من السفارة الصينية بالقاهرة أن تتحرى الأمر، فإذا بدليل على أن الحديث قد تم تعديله قبل إرساله إلى الصحف، وعرفنا أن ما حدث هو شطب سؤال وجوابه، وأنه هو لب موضوع الحديث، إذ كان يتناول موضوع الخلاف مع موسكو، الأمر الذى يشغل بكين ويدفعها للحماس لدعوتنا

ولإجابة "شواين لاى" على أسئلة الوكالة، وكان الحل هو أن يعيد "كمال عامر" إرسال الحديث كاملاً مع التأكيد على إذاعته من القاهرة كاملاً، وهو ما حدث، بقيت مشكلة صغيرة وهى أن الفندق رفض إرسال الحديث هذه المرة على حساب الحكومة الصينية، وأصر على أن يقبض مقدماً وبالدولار، مما دفع "كمال" لإخراج كل ما كان يحتفظ به من مال ليشترى فضة وأحجار كريمة بسعر التراب، كما كان يقول وكم كنا نحسده على معرفته بالأشياء الثمينة وخططه التسويقية قبل أن يدفع دولاراته ويستدين لإرسال برقية التصحيح مع استعطاف الأستاذ "محمد عبد الجواد" رئيس تحرير الوكالة ليعيد إذاعة نشر حديث "شواين لاى" كاملاً.. ذلك أن "كمال عامر" إلى جانب الحرج وتقديرة لأهمية الالتزام بأصول المهنة، كان يخاف من الشيوعيين موت، ويصدق أنهم يلقون خصومهم فى البحر أو يضعونهم فى زنزانة حتى الموت، أو يقتلونهم ويشوهون جثثهم وينكرون معرفتهم بهم، وقد جاء عليه وقت تصور فيه أن نهايته قد جاءت على يد رجل أصفر مجهول، وما صدق أن خرج من "بكين" صفر اليدين، ولكن سليم الروح والبدن.

تلفق لهم تهمة

ذهبت أنا وحدى إلى فيتنام الشمالية، وكان القصف الأمريكى على أشده، وعشت أياماً تاريخية، فى الليل ظلام وفى النهار غارات، ليستقبلنى الجنرال "جياب"، واحد من الأساطير العسكرية فى القرن العشرين، وكان هادئاً وكأن الحرب قد انتهت، وكان واثقاً من النصر، وقد انتصر وكان يملأ جيوبى بالحلوى من أجل أطفالى فى مصر، ولقد تجولت فى العاصمة "هانوى"، وخرجت منها بوسائل انتقال بدائية، ونمت ليلة على حصيرة فى بيت عمدة بعد أن انقطعت بنا السبل، وكان نوماً متقطعاً، إذ أيقظونى أكثر من مرة لأسرع إلى حفرة فى الأرض أحتمى بها من قنابل الأمريكان. ولقد تذكرت ليلتها كيف تسللت إلى "بورسعيد" أيام حرب ٥٦ والرصاص فى الشوارع والباراشوت يتساقط والمدينة محاصرة، أنقذنى عامل مجهول وحملنى إلى بيته وكان حجرة واحدة أحسست فيها بالأمان ونمت حتى الصباح، والتهمت طبقاً من عدس ساخن، ولم يتكلم الرجل فى الحرب، ولكننى لمحت فى ركن الحجرة بندقية، فى طريق العودة من فيتنام مررت بفندق بلا زبائن يطل على بحر أزرق، حجراته وأثاثه وكل ما فيه من "البامبو".. وكانوا يحلمون بالسياحة بعد السلام.

كانت ليلة مثل كل الليالى، الأطفال هدتهم شقاوة النهار، أصغرهم مريض، لا يهنأ له نوم، فهو يسعل كل دقيقة، ومع ذلك يسود الهدوء المكان، ويسمح

بالقراءة، ويسمح أيضاً بالتفكير، وكانت تلك هى الجريمة، فالتفكير جريمة لا تغتفر!

أطفأت النور، استلقيت فوق السرير، بريئاً، نقياً، وقوياً، لست أدرى كم ساعة نمت قبل أن أجدهم أمامى، ثلاثة لا أنسى وجوههم ولا أسماءهم، أيقظوا كل من فى المنزل، الطفل الذى يسعل توقف سعاله من الدهشة أو الخوف أو الإزعاج، عاثوا فساداً، مزقوا كل ورقة، رفضوا أن يشربوا الشاى، ساقونى معهم، لست أدرى إلى أين، وأغلق باب مسكنى من خلفى، لم أكن أدرى أننى سأفقد المسكن، وأفتقد الطفل الذى يسعل، وأذهب إلى مكان بعيد لا ترى عيونى فيه شمساً، وإن ألهبت حرارتها جسدى.

كان الوقت فجراً وكان الفجر الأخير، الصحف وجدت طريقها إلى النور.. فيها أخبار ومديح، وكل شىء يبدو على ما يرام والحديث على صفحاتها عن "العدالة" لا ينقطع وأنا أصدقها وأنا أسهم فى صنعها، وأنا برئ وساذج ومغفل.

انطلقت بنا سيارة تشق الطريق بسرعة، كنا كمن يسير فى مواجهة التيار، الجميع يبدأون يومهم ونحن نسعى لنهايتنا، الناس كلهم يتجهون إلى الحياة، ونحن نتجه إلى ما وراء الأسوار، شباب آمنوا بمصر وهاموا بها حباً، وضعوا فى زنزانات مغلقة، بلا جناية، ولا تحقيق، ولا حتى تهمة محددة، إنها اتهامات عامة فضفاضة يمكن أن ينطوى تحتها كل البشر، وعندما أحسوا أن التسميات التقليدية من إخوان إلى شيوعيين، مروراً بالوفديين لم تعد تفى بالحاجة، اخترعوا كلمة جديدة تصلح لكل زمان ومكان وتحت اسم (النشاط المعادى) يمكن لمن يشاء أن يضع شعباً بأسره فى السجون دون أن يكون مطالباً ببرهان أو دليل.

وقادنى الطريق إلى داخل المعتقل، واحد من المعتقلات المتناثرة على أرض مصر فيه وجدت كل البشر، يساريين ويمينيين، وبين بين، أبرياء وأبرياء، بعضهم برأته ساحات المحاكم فخرج من باب السجن ليدخل من باب المعتقل، ولم ينج أحد!!

وإننى أتحدى لو كانت هناك أسرة واحدة فى مصر لم تعرف طعم المعتقلات فى يوم من الأيام. وهذه جريمة كبرى، وهذا إهدار للإنسان،

وحصار له بسياج من الرعب، يجعله يؤمر فيطيع، ولكنها أيضاً تنال من روحه، عندما تستنجد به قد لا تجده، وهذا بعض ما حدث لنا فى يونيو ٦٧.. خاف كل الناس فقطعوا ألسنتهم، من كان فيه عرق ينبض، وضعوه فى السجن، أو خوفوه بالقضبان، لم يستطع أحد أن يشير إلى خطأ أو فساد، فاستشرى الفساد، بل ودافعنا عنه خوفاً أكثر منه تملقاً، وهكذا سرى السوس فى كل مكان، وكان ما كان يوم نادوا على الرجال وعلى السلاح.

إن هذه الليالى السوداء فى حياة الإنسان المصرى لا تنسى ولا يصح أن يغفر لها أحد، أو يدعو لتبريرها، بل إننى أدعو لتحقيق شامل لمعرفة الذين قتلوا، وقيد الحادث ضد مجهول، والذين اختفوا ولم يعرف أحد لهم مصيراً، والذين تشردت أسرهم وجاع أطفالهم، والذين ما زالوا يحملون على ظهورهم آثار السياط والكى بالنار، والذين أهينت نفوسهم وتم تخريبها من الداخل.

إنها جريمة أن ننسى كل ذلك، وأن نعفو بشهامة أو بتردد، ولا بد أن يبدأ تحقيق عادل، يتناول (الزبانية) الذين تفننوا فى ارتكاب الجرائم ضد الإنسان المصرى، ولا يقولن أحد إنها كانت أوامر واجبة التنفيذ، ومَن ذلك الذى كان يملك رفض مثل تلك الأوامر التى قيل إنها عليا، أو يملك الوقوف فى وجه تعليمات مسئول كبير كتب بخط يده عن واحد من الضحايا: "تلفق له تهمة "!!

لا يقولن أحد ذلك لأن هناك من اكتفوا بتنفيذ تلك الأوامر فى أضيق الحدود، وبكل ما يملكون من حب لمصر، بينما هناك من أجادوا تنفيذ الشر، وبالغوا فيه، وهناك من ابتدعوا واخترعوا، وتباروا فى الوصول إلى قمم من السوء والدناءة، لم يحلم بها حتى الذين أصدروا أوامر السجن والعذاب، وهؤلاء أسماؤهم معروفة، ومازالوا يمشون بيننا، وحتى لو غيروا مواقعهم، فإن مسئوليتهم قائمة ويد العدالة يجب أن تمتد إليهم لتحاسبهم بالقانون وبالحق.

بعد عشر سنوات كتبت مقالاً

أنا ظالم ومظلوم

أنا مظلوم وظالم، كل الناس ظلمة دون أن يدروا، وهم أيضاً مظلومون، وهم يدرون ولقد سألنى صديق: مادمت تدافع عن المظلومين، قل لنا من فضلك: من هو الظالم؟.

ولم أجد جواباً شافياً، ولن أكتب بحثاً فى الموضوع، والذى أعرفه أن الإنسان هو المظلوم الأول، وأن الذى يظلم الإنسان هو إنسان آخر يضع فى يد أخيه القيود، يمنع عنه لقمة العيش، يحرمه فرصة الحياة، يسرق قوته وقوت أطفاله، يهزم روحه، يقتل نفسه، فيتحول الجميع إلى موتى يسيرون على قدمين...

أعترف بأن بى ضعفاً شديداً تجاه الذين حرموا من حريتهم، دون أن يدروا ما هى تهمتهم، أو بعد أن لُفقت لهم التهم المناسبة، وبى ضعف شديد تجاه الذين حرموا من أن يقولوا كلمتهم، فماتت الكلمات على الشفاه، وبى شغف شديد بالحرية: حرية الخبز وحرية الإنسان، فأنا قد عرفت الظلم، ودخلت السجن، وعانيت حتى من حق الشكوى والابتهال إلى الله. لقد سألونى مرة: لماذا أنت كذلك؟، فقلت فى براءة: لأننى كذلك، وكانت كذلك هى جريمة لا تغتفر.!!

الذين وجدوا أنفسهم فجأة فى ضياع الشارع، أنا مع عودتهم، والذين وجدوا أنفسهم فجأة فى ظلمات السجن، أنا مع حريتهم، والذين ماتوا من أهوال الجبروت، أنا مع إعادة تقديرهم..

كل بيت دخله زائر الفجر يفتش ويرهب ويأخذ الرجل، وكل بيت دخلته يدُ

قاسية تسد نور الشمس وتقتل دفء الحياة، وجاءت أدلة مصنوعة ليس فيها من الحق شيء، وقرأنا آيات القرآن على الجدران تقول: "إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا"، وكان الفسق يجرى تحت سمع الآية الكريمة، وغاب الرجال وراء الشمس شهوراً وسنوات، وتحول الناس إلى أرقام، والحجرات إلى زنزانات، وعانى من الظلم اليمين، وعانى اليسار وعانى الجميع..

"دنيس بروتس" شاعر من جنوب أفريقيا، عاش حياته متنقلاً بين قضبان السجن وتحديد الإقامة فى البيت، قال عن أيامه السوداء: «فى البداية يعرونك تمامًا»، يخلعون ملابسك قطعة وراء قطعة حتى تصبح عارياً فى طابور، ثم يوزع الحراس على كل سجين بنطلون شورت وصديرياً صغيراً، وبعدها يقيدونك بالسلاسل من يديك وقدميك، كل الطابور فى سلسلة واحدة، ويحشر الجميع فى اللورى لتبدأ الرحلة الحزينة مع الفجر، وفى السجن يحتقر الإنسان الشعر، ويحتقر أشياء كثيرة: "كانت قصائدى تبدو أمامى شيئاً عديم القيمة، لا يصلح إلا لصندوق القمامة، بل لقد فكرت لحظة فى الانتحار خجلاً مما كتبت ظناً أنه شعر.

"وول سونيكا" فنان نيجيريا المشهور كرس معظم أعماله للدفاع عما يتعرض له الإنسان الذى يختلف مع السلطة فى الرأى، لقد دخل السجن مرتين، المرة الأولى لبضعة شهور، والثانية لبضع سنوات.

وصف زنزانته ساخراً: إنه شئ أشبه بكفن الموتى، وضعت فيه حياً، مساحته ١٦ شبراً عرضاً، و٢٣ شبراً طولاً..

أفقدت تجربة السجن "سونيكا" رشاقته ومرحه، تحول إلى نبرة حزينة قاتمة بالرغم من المنصب الذى عين فيه عقب الإفراج عنه، وعلى الرغم من قرار الحكومة تخصيص مليون جنيه لتحويل مسرحياته إلى أفلام سينمائية.

إنه لم ينس، وكيف ينسى. إن المظلوم لا ينسى قسوة الأيام..

"عثمان سمبينى" كاتب السنغال، وأشهر مخرجيها السينمائيين، يقول فى رواية له عن إضراب عمال السكة الحديد عامى ١٩٤٧ و١٩٤٨:

"مضت الأيام والليالى، لم تكن هناك أخبار سوى تلك التى كانت تجلبها كل ساعة إلى كل بيت، وكان الحال لايتغير، انتهى المخزون، ونضبت المدخرات، ولم يعد فى البيت نقود، الناس يخرجون سعياً وراء من يقرضهم شيئاً، الإجابة التى يسمعونها من التجار لا تتغير: إنك أصبحت مديناً لى بالكثير، كيف تسدد؟

الطريق الى المعتقل

مثلما دخلت المعتقل دون مقدمات، أكتب الكتاب دون مقدمات..

انتصف الليل منذ زمن وساد الهدوء، ليس تماماً، فقد كنت أسكن فى عمارة "الطبلاوى" على ناصية شارع "محمد على" الذى لا يهدأ ولا ينام، وشارع "على باشا إبراهيم" الذى يقود إلى قسم الدرب الأحمر الذى كان من قبل المركز الرئيسى للإخوان المسلمين، أما شارع "محمد على" العريق فقد أصبح مهد العوالم وطريق المحمل من القلعة إلى محطة مصر، وهو يقود إلى قاهرة المعز لدين الله و"المغربلين "يأخذنا إلى الأزهر الشريف ومقام الحسين حيث عشت طفولتى وشبابى.

كان أبى قد اختار أن يشترى لنا بيتاً فى "الدراسة" قريباً من المشيخة والمجاورين أصحاب العمائم، إذ كان أستاذاً بكلية أصول الدين، وهو ما أتصوره السبب فى اختياره للمكان الذى نشأنا فيه، فقد مات أبى ولم أبلغ السادسة من عمرى، فلا تحدثت إليه، ولا حتى عرفت ملامح وجهه، وإن سمعت عنه الكثير ممن عايشوه، خصوصاً فى قريتى العزيزة مركز المنزلة دقهلية، إذ كان أول من حصل على العالمية من الأزهر الشريف فى القرية.

وسمعت عنه من صديق عمره الذى عاش عدة سنوات بعده، فضيلة الشيخ "محمد على سلامة"، الذى أصر على أن يدفن والدى فى مقبرته حسب وصيته وهى اليوم على طريق صلاح سالم فى مواجهة دار الإفتاء بقبتها

الخضراء، أو لعل لونها تغير بفعل الزمن فلم أقم بزيارته منذ سنوات، لعلى أنتظر حتى ألقاه. اعتبرنا الشيخ "أبو سلامة"، كما كنا نناديه، والدنا وأبناءه إخوة لنا: الدكتور الكيميائى "محمود" والدكتور مهندس "عزت" الذى أصبح محافظاً ووزيرا أيام عبدالناصر وابنه "عمرو" وزيراً أيام مبارك، والدكتور طبيب "رضا" الذى هاجر إلى أمريكا، تزوجت شقيقتهم الوحيدة من ابن خالتها "وجيه قطب" الذى تولى إدارة شركة "شل مصر" وهو أيضاً ابن أحد مشايخ الأزهر وأساتذته وشقيق وكيل النيابة اللامع فى ذلك الوقت "أحمد مختار قطب" الذى حقق عدداً من القضايا المثيرة للجدل.

كل هذا الاستطراد وصولاً إلى الليلة السوداء عندما استيقظت على كابوس، هرج ومرج، فى غرفة نومى، ووجوه كئيبة تدعى الهدوء، وتعالى معانا خمس دقائق، فكانت تلك العبارة من أدبيات الذين أطلق عليهم بعد ذلك زوار الفجر، ولم تكن المهمة يوماً تستغرق خمس دقائق، وإنما أحياناً خمس سنوات، ولم يكن مسموحاً بأن نأخذ ملابس معنا؛ إمعانا فى التمويه، ولم تكن تلك الوجوه التى تبدو سمحة تحتفظ بوداعتها، إذ سرعان ما يركبها عفريت السلطة بما يتبعه من أذى نفسى أوبدنى يستحقه أولاد الكلب، أبناء الشعب.

فتشوا البيت ولا أذكر أنهم وجدوا فيه شيئاً يستحق أن يتوقفوا عنده، ومع ذلك فقد أخذوا بعض الكتب والأوراق، فالثقافة هى ألد أعدائهم، والتلبس بالقراءة والمعرفة هو ما يثير شكوكهم، لم أكن أعرف أن عدداً كبيراً من الذين كتب على أن أشاركهم الإقامة فى عنبر واحد بمعتقل مزرعة طرة، شهوراً وأياماً وساعات لهم علاقة بالفن والأدب: عبد الرحمن الأبنودى، وسيد حجاب، وصلاح عيسى وجلال السيد، وصبرى حافظ، ورءوف نظمى، وعادل أمين، وعلى الشوباشى، وجمال الغيطانى، وإبراهيم فتحى، كان أخى المقيم معى فى البيت نفسه معتقلاً هو الآخر، والضباط والمخبرون، يحيطون بنا ويخنقون أنفاسنا داخل السيارة التى أخذتنا مع نور الفجر إلى مبنى وزارة الداخلية القريب حيث تتجمع "الغلة" فينقلوننا مجموعات إلى مكان مجهول، يبدو بعيداً، اختلفت حوله التنبؤات.

شوارع القاهرة فى الصباح الباكر جميلة، لا يحس بها إلا من يمر بها سيراً

على قدميه، والذين يعيشون حياتهم لا يعرفون أنه فى واحدة من تلك السيارات المارة يوجد من سلبت حريته، ولم تكن القاهرة قد عرفت السجون المتحركة، شبابيكها قضبان حديدية، ولم تكن قد سمعت أيضاً هتافات "الله أكبر، الله أكبر" من داخل تلك العربات تقول للناس نحن هنا.

بانت الرؤية، ووصلنا مزرعة طرة، كل واحد يسأل نفسه لماذا نحن هنا؟، ولايوجد جوابٌ مقنعٌ، إلا أن يكون التأديب والتهذيب والإصلاح.

نحن أولاً لا حول لنا ولا قوة، وثانياً بعضنا بينه وبين الحكومة عمار، وكلنا على ذمة الاشتراكية، بل وأعضاء متميزون فى منظمة الشباب التى كان يرأسها الدكتور "حسين كامل بهاء الدين" الذى أصبح وزيراً للتعليم فى سنوات حكم مبارك.

ولعلنى ندمت يومها لأننى لم أدخل التنظيم الطليعى الذى كان قد أقيم سراً بنظام الخلايا ليصبح حزب ثورة يوليو الحقيقى، وقد كنت على وشك أن أكون واحداً من الصفوة المنتقاة الحائزة على الثقة، إذ رشحنى مجهولون، وقال أكثر من واحد إنه صاحب الفضل، ووجدت نفسى مدعوا للقاء "فاروق القاضى" فى شقته بوسط البلد، وقد كان زميلاً ودوداً وقريباً من الثورة على الأقل بحكم أن أخاه "جمال" عضو بتنظيم الضباط الأحرار يقول لعبد الناصر: يا جيمى «إلى حين»، والرجل الثانى فى البوليس الحربى الرهيب.

وجدت هناك زملاء أعزاء آخرين، منهم "فهمى حسين" الأديب المشتغل بالسياسة، و"يوسف صبرى" الذى أصبح لفترة رئيساً لتحرير روز اليوسف وربما صديقى "جمال سليم".

لم أكن مرتاحاً لهذا الترشيح فلست أحب أن ألتزم بتنظيم، مفضلاً أن أملك حريتى، ثم إن لدى تحفظات على بعض مواقف ثورة يوليو مع تأييدى لها.

لماذا السرية ونحن تنظيم جمال عبد الناصر، ورأيت التنظيم الطليعى "حركات وتفانين"، غير أننى لم أستطع أن أرفض؛ لذلك حمدت الله أنهم هم الذين رفضونى بالتجاهل والبرود وعدم دعوتى للقاءات أخرى. لم تكن هناك أسرار فقد عرفناهم جميعاً بالاسم سواء لأنهم يتباهون بالعضوية الغالية، أو لأن نجمهم مكشوف، هم وحدهم الذين يعرفون أو يتصورون أن الأمر سرى للغاية!!!

ومع ذلك أردت أن أعرف لماذا حرمونى من ذلك الشرف، ولم أجد جواباً سوى كلمات مبهمة عن عقاب أستحقه لأننى كتبت اليوميات لأول مرة فى جريدة الجمهورية باختيار رئيس تحريرها ومجلس إدارتها الجديد "حلمى سلام" القادم من دار الهلال وصاحب القرارات الشهيرة بالتخلص من عدد من كبار الصحفيين والكتاب، ونقلهم لمؤسسات أخرى من بينها "باتا" للأحذية أو الجمعيات الاستهلاكية، وقد أثارت تلك القرارات غضباً شديداً بين الصحفيين وفى مجلس النقابة وجمعيتها العمومية، وما زالت تثير الجدل حتى اليوم حول دور "حلمى سلام" فى تنفيذها بالطريقة التى تمت بها، وقد تولى هو الدفاع عنها فى مذكرة للنقابة وللرأى العام، «عوقبت بسبب اليوميات»، واحتج "يوسف إدريس" لأن المسألة بذلك "عيلت"، وقد بقيت أحب "يوسف" منذ رأيته أول مرة سارحاً محلقاً فى بوفيه كلية طب قصر العينى، وأنا أتحسس طريقى داخل الكلية للخروج منها بأسرع وقت، مفضلاً القلم على المشرط، وكان يوسف إدريس قد نشر أولى قصصه القصيرة المتوهجة فى جريدة "المصرى" قبل أن تغلق أبوابها بقرار محكمة الثورة الغاشم.

فى الوقت الذى غضب فيه مَنْ رشحونى للتنظيم الطليعى، وكان كثيرون منهم ضحايا قرارات حلمى سلام، واعتبرونى خائناً مارقاً عميلاً أقل ما يفعلونه بى هو حرمانى من الجنة التى يقفون على بابها، الغريب أن حلمى سلام نفسه كان عضواً قيادياً فى التنظيم الطليعى.

لم أندم على فرصة دخولى التنظيم الطليعى إلا يوم أن اعتقلت، إذ تصورت أننى لو واحد منهم ما دخلت السجن، ولكن ندمى لم يطل فسرعان ما فتح باب العنبر الذى جمعونا فيه ودخل علينا "جلال السيد" وكنت على يقين بأنه عضو فى التنظيم السرى، عرفت منه أنهم صادروا أوراق التنظيم السرية التى ضبطت عنده، واعتبروها دليل إدانة له، وعرفت بعد ذلك قصصاً عن معتقلين سبقونا بأيام على ذمة القضية نفسها يمثلون قيادات منظمة الشباب أقرب التنظيمات إلى قلب الحكام، أخذوهم إلى سجن القلعة، ابتسمت عندما تذكرت ما روى عن حارس لم يكن يروق له إذا دخل عنبر المعتقلين الشيوعيين عام ٥٩ الذى طال خمس سنوات عجاف إلا أن ينادى بأعلى صوته: قوم يا جاهل منك له، لم يكن يوجه كلماته إلا لاثنين من أكثر المصريين علماً وثقافة؛

هما الدكتور "لويس عوض" أستاذ الأدب الإنجليزى، والدكتور "عبد العظيم أنيس" أستاذ الرياضيات فى كلية الهندسة.

وتذكرت ما روى عن الحارس والسعدنى، إذ كان الكاتب الساخر محمود السعدنى معتقلاً بعض الوقت فى الستينيات قبل أن يعتقل بعد ذلك فى السبعينيات، ورأى أفضل شىء هو أن يصادق ذلك الحارس قاسى القلب الذى يأخذهم كل صباح إلى معسكر الأشغال الشاقة وقطع أحجار الجبل، إمعاناً فى التعذيب والإهانة، وأن يحكى الحواديت للحارس يسرى عنه فيستبقيه إلى جواره فى الظل حتى تنتهى وجبة التعذيب، بقى الحال على ما هو عليه حتى وجد المعتقلون الذين كانوا يحسدون "السعدنى" على الراحة ورضا الحارس أنه لم يعد صاحب حظوة وقد أصبح مثلهم يعمل فى الجبل.

الحكاية أنه ذات صباح كان الحارس مكتئباً؛ مما جعل السعدنى يهتم به كالعادة شفقة أو نفاقاً ويسأل: "الجميل مكشر ليه؟"، قال الرجل: ابنى نجح فى التوجيهية، وجاب مجموع، عظيم، بس عايز يخش الجامعة، عظيم، لكن مفيش إمكانيات، والأحسن يختصر الطريق ويشوف له معهد سنتين، هوه يعنى الجامعة ها تعمل إيه؟!..

حبكت مع السعدنى فأجاب بمنتهى الجدية: لا يا شاويش، اسمع كلامى، ده ابنك قدامه مستقبل كبير، سيبه يخش الجامعة ويتخرج بإذن الله، ويمكن يعمل دراسات عليا، ويأخذ الدكتوراه، وبعدين ييجى هنا زى اللى أنت شايفهم دول!

هب الحارس بالكرباج يطارد السعدنى بجسده النحيل، ويرغمه على قطع الجبل وحمل الحجارة، فقد كانت النكتة قاسية، تصادف أن أكثر رجال مصر علماً وثقافة وراء الأسوار بلا خجل أو مداراة.

أدب السجون وعطر الزنازين

تمنيت أن أقرأ كل ما كتب وأثير عن أدب السجون فى الندوة التى أقامها مؤخراً "مركز البحوث العربية والأفريقية" وهى فى واقع الأمر دراسات وأبحاث وشهادات تستحق التسجيل والطبع والنشر لأنها تاريخ وإبداع.

وتمنيت أن يمتد فضح التعذيب فى المعتقلات، وما نتج عن المعاناة من أعمال أدبية وفنية ليشمل جميع الطوائف السياسية فلا يقتصر على اليسار واليساريين، بل يمتد إلى الإخوان المسلمين وجماعات أخرى احتاروا فى تصنيف اتجاهاتهم، فأطلقوا عليهم اسم "النشاط المعادى"، ومن بينهم من أصدر أيضاً كتباً عن تجاربهم المريرة.

تميزت تجربة الروائى المبدع "صنع الله إبراهيم" ليس فقط بأنه كان أول من أصدر "تلك الرائحة" قبل ثلاثة وأربعين عاماً وبعد خروجه من المعتقل بعامين اثنين، وفى وقت عنفوان السلطة فلم تكن هزيمة يونيو قد وقعت، مما عرض الرواية للمصادرة، وقد أدخله القدر وانتماؤه السياسى السجن فى العشرين من عمره، شاباً نحيلاً، يؤمن بالثورة والحكم والزعيم الذى وضعه ورفاقه وراء الأسوار، يدخل عالم القهر ومن حوله رجال عظام من عمال وفلاحين وأساتذة جامعة ومثقفين، ومعه فى القيد نفسه "شهدى عطية"، فى حفل التعذيب الرهيب، اختاروا أربعة - هو واحد منهم ربما لضعف جسده وصغر سنه، لمشاهدة ألوان الوحشية التى يمارسونها، فانتابهم خوف وذهول،

ولم يمض سوى فترة قصيرة على عودتهم لعنابر السجن حتى جاءهم خبر وفاة "شهدى" رفيقه فى قيد واحد.

فى اليوم التالى أخذوا "صنع الله إبراهيم" وآخرين ليشهدوا زورا بأنه مات وهو فى طريقه للمعتقل وليس بسبب التعذيب، أحس بأن إرادته مشلولة لدرجة أنه تصور أن يقول ما أمروه به، ولكنه لم يتعرض لمثل هذا الموقف الذى لم يكن ليسامح نفسه طول عمره لو حدث، إذ خرج الموضوع من يد المحققين المزيفين، ولم يكن فى قدرة سلطتهم أن يخفوا الحقيقة بعد أن افتضح الأمر.

وقتها أيقن " صنع الله " أن الكتابة هى سلاحه الباقى، ولو كانت على ورق الأسمنت، ولكن ماذا يكتب ولمن وبأى أسلوب؟..

الغريب أن تلك الأسئلة نفسها تتكرر بعد كل تلك السنوات وتغير الأحوال!

– مشهد مقتل "شهدى عطية" فى ليمان أبوزعبل عام ١٩٦٠، اختاره الباحث "عمر شهريار" ليقدم عنه نموذجين مختلفين من روايتين لفتحى غانم "حكاية تو" ومحمود الوردانى "أوان القطاف".

– ورائحة السجون العفنة مازالت فى ذاكرة أستاذة الأدب الفرنسى الدكتورة "أمينة رشيد"، التى عاشت فترة اعتقالها فى عنبر واحد مع صاحبات السوابق وتعلمت منهن النشل!!

– ومن تجارب المناضلات اختارت الدكتورة "ثناء أنس الوجود" ما سمَّته "عطر الزنازين" أوراق شخصية" للدكتورة "لطيفة الزيات" الذى صدر فى جزءين، "ومذكراتى فى سجن النساء" للدكتورة "نوال السعداوى" ورواية "أطياف" للدكتورة "رضوى عاشور"، وربما كان اختلاف كل واحدة منهن رغم اعتقالهن فى مكان واحد هو عنبر المتسولات بسجن القناطر، بسبب طبيعة وظروف واهتمامات خاصة، وأيضاً للوقت الذى كتبت فيه التجربة، إذ جاءت أوراق "لطيفة الزيات" بعد أكثر من عشر سنوات من تجربتها المريرة، وكذلك أطياف "رضوى عاشور" بعد سنوات من وقوعها، بينما سجلتها الدكتورة "نوال السعداوى" فور خروجها من المعتقل..

رحلة إلى المجهول

لا بد أن أتوقف عند رحلة من نوع آخر مختلف، أعتقد أنها كانت لها علاقة بزيارتى الأولى للصين الشعبية، والتى يبدو أنها كانت غير مرغوب فيها من قبل أجهزة الأمن، ومن الذين يحبون الاتحاد السوفيتى بلا حدود، وكان لهم فى مصر أنصار وعملاء وحكام، فقد كان الصراع بين موسكو وبكين على أشده، ووصول صحفيين مصريين إلى العاصمة الصينية بكين لابد أن يكون له تفسير ومعنى، وهو ما لم يكن على بال أحد منا، أما أنا فقد كان لى وضع يختلف، إذا لابد وأن عيناً سرية ساهرة كتبت تقريراً يروى ما حدث، وما لم يحدث من علاقة، خاصة بينى وبين صحفيين صينيين، كان لها دور فعال فى ترتيب دعوتنا إلى هناك، وقد كانت التقارير فى مصر هى لغة العصر، وكان كتابها من كل جنس ولون وملة، بعضهم معذور وخائف يتقى الشر، وبعضهم متطوع وطماع يتمنى الرضا، وعلى أى حال لم تكن رحلة الصين وحدها هى سبب رحلتى الغامضة إلى عالم مجهول فى "مزرعة طرة" على بعد أقل من عشرين كيلومتراً من القاهرة، ولكن الملابسات التى أحاطت بها، وإصرار جماعة من الشيوعيين المصريين المشايعين لموقف الصين على ألا يحلوا تنظيمهم، مثلما فعلت التشكيلات الشيوعية الرئيسية ثمناً واتفاقاً للإفراج عن الآلاف منهم فى عام ٦٤ بعد اعتقال طويل دام خمس سنوات، وعلى الرغم من أن عدد الرافضين للسير فى طابور "الاتحاد الاشتراكى"

الحكومى كان محدوداً فإنه كان "وجع دماغ" لا ضرورة له، وقد كان لى أصدقاء من هؤلاء وهؤلاء، وكان لى شقيق وحيد ينتمى إلى اليسار وتنظيم وحدة الشيوعيين بالذات، توافق ذلك مع المناخ السائد من تذمر وسط منظمة الشباب التى كانت تعتمد الحكومة عليها فى كوادرها، وجرت اتهامات متبادلة علنية من جانب، وسرية من جانب آخر فكان لا بد أن تتخذ مواقف حزبية على يد أمين عام المنظمة فى ذلك الوقت الدكتور "حسين كامل بهاء الدين" أستاذ طب الأطفال الذى أصبح وزيراً للتعليم، ولأن السياسة كانت كلها أمناء وشرطة، فقد كان الحل هو إلقاء القبض على المعارضين المختلفين فى الرأى، توافق ذلك أيضاً مع سلسلة مقالات نشرتها مجلة "الحرية" الناطقة باسم القوميين العرب بقلم "صلاح عيسى" أثارت الرئيس عبد الناصر شخصياً، واعتبرت هجوماً شديداً على النظام، وتصادف أن "صلاح عيسى" كاتب تلك المقالات فى صحيفة القوميين العرب كان عضواً بارزاً فى تنظيم "وحدة الشيوعيين" ذى الاتجاهات الصينية، وتصادف أننى، ولى فى التنظيم أخ وأصدقاء، قد سافرت وعدت من الصين مصحوباً بتقرير سرى محبوك، وبذلك يكون السيناريو تآمرا قومياً شيوعياً دولياً وتسللاً داخل أخلص تنظيمات الحكومة المصرية، وقد كان أن دق الباب قبل أن يطلع نور الفجر.

أعطنى حريتى أطلق يدى

يحكى "صلاح عيسى " أول المعتقلين فى كتابه" مثقفون وعسكر" كيف بدأت الحكاية:

كتبتُ دراسة عن "الثورة بين المسير والمصير" ونشرت فى الأعداد ٣٢٨ و٣٢٩ و٣٣٠ من مجلة " الحرية " البيروتية، حين كنت أعمل مراسلاً سياسياً لها بالقاهرة، وقد أثار نشرها غضب كثيرين فى دوائر الحكم المصرى، قيل لى فيما بعد، إن الرئيس " جمال عبد الناصر "، كان على رأسهم، وانتهى هذا الغضب، بأن كتب " على صبرى "، الأمين العام للاتحاد الاشتراكى العربى، مذكرة للرئيس عبد الناصر، لخص فيها المقالات وأشر الرئيس فى ذيلها: يعتقل ويفصل!..

فى حملة اعتقالات أكتوبر ١٩٦٦ التى شملتنى ضمن نحو ٢٠٠ من كوادر المنظمة والتنظيم الطليعى، وأساتذة المعهد العالى للدراسات الاشتراكية، ومعظم الذين كانت لهم علاقة تنظيمية بحلقة ماركسية صغيرة، اسمها "وحدة الشيوعيين ".

وكنت فى نحو العام ١٩٦٦، قد تركت هذه الحلقة الشيوعية الصغيرة، التى كانت قد واصلت النشاط، رغم الظروف السيئة، التى كانت سائدة فى فترة الجَزر الديمقراطى بين ١٩٥٩ و١٩٦٤، إذ كان كل الشيوعيين المصريين تقريباً قيد الاعتقال، كما أن " وحدة الشيوعيين " تمردت على قرارات الحل

التى أصدرتها سائر التنظيمات والأحزاب الشيوعية فى غضون عامى ١٩٦٤ و١٩٦٥ فاحتفظت بكيانها، لكن مشاكل تنظيمية وفكرية، سرعان ما خلقت داخلها خلافات أدت إلى استقالة عدد كبير من أعضائها، عقب صراع سياسى، كنت من بينهم.

كنت وقتها أعمل إحصائياً اجتماعياً بوزارة الشئون الاجتماعية، وأكتب فى عدد من الصحف والمجلات المصرية والبيروتية، من بينها مجلة "الحرية" اللبنانية، والبعثيين، وكان محسن إبراهيم أحد عوامل التقارب بين قيادة عبد الناصر، والحركة، فقد استعر الخلاف بينه وبينها، منذ إعلان الوحدة المصرية - السورية، وعقب الانفصال فى العام ١٩٦١.

وكنت أنشر، منذ عام ١٩٦٢، مقالات متفرقة على صفحات مجلة "الحرية"، وفى عام ١٩٦٤ كثفت كتاباتى فيها، وكانت لا تدفع أجوراً على ما تنشره، وفوجئت دون سابق معرفة، بخطاب يصلنى فى البريد على عنوانى يطلب فيه " محسن إبراهيم " منى أن أكون مراسلاً للمجلة فى القاهرة ويخطرنى بأن المجلة ستجدد فى الشكل والمضمون، وطلب منى أن أستكتب عدداً من الكتاب اليساريين المصريين، وأن أكتب تحليلاً إخبارياً فى السياسة أو الفكر مرتين فى الشهر على الأقل.

وقد اكتشفت فيما بعد أننى لم أكن شجاعاً، لكننى بسبب سذاجتى لم أكن أقدر العواقب، فتصرفت كما قال لى بعض أصدقائى فيما بعد، وكأن هناك ديمقراطية أو كأن هناك اشتراكية تهم أحداً، وكأن المعتقلات قد أغلقت إلى الأبد، ولأن أحداً لم يتصور أن هناك "أحمق" فى الدنيا يمكن أن يكتب هذا الكلام، ويتحمل مسئولية نشره، فقد شغلت الأوساط الصحفية نفسها بالبحث عن تفسيرات لتلك الحماقة، أما أحسنهم ظناً فقد اعتقد أننى "اسم مستعار" يتقنع به كاتب مصرى حتى لا يضار من نشر آرائه المتطرفة، وقال آخرون إننى لبنانى أقيم فى بيروت، وأدعى أننى أكتب من القاهرة، أما أوسعهم خيالاً فكانوا يجزمون بأننى أكتب تلك المقالات بتكليف من "عبد الناصر " شخصياً، وأنه يهدف من ذلك لمواجهة الجناح الرجعى فى الحكم الذى يقاوم اندفاعاته الثورية، وأنه اختار مجلة لبنانية حليفة له أو كان يمولها بالفعل، وكاتباً يكتب لأول مرة حتى لا يقال إننى أعبر عن اتجاهات رسمية، وإن

الهدف من نشر تلك المقالات هو تكوين رأى عام ضاغط لتمرير الاتجاهات الجديدة.

فيما بعد عرفت أنه كان لحركة القوميين العرب فرعٌ قُطْرى فى مصر، مسئوله السياسى محام شاب حديث التخرج هو " سمير حمزة "، ويضم نحو ٢٥ من طلاب الجامعات المصرية، أو من المتخرجين فيها حديثاً، وبعد مفاوضات سياسية بين " محسن إبراهيم "، أحد مسئولى الحركة فى لبنان والسلطات المصرية اتفق الطرفان على حل الفرع وأن ينضم أعضاؤه كافراد إلى " منظمة الشباب الاشتراكى "، ويمقتضى هذا الاتفاق انتخب " سمير حمزة " نائباً لأمينها العام "د. حسين كامل بهاء الدين" وكان طبيباً خاصاً لأطفال السيد " على صبرى "، كما دخل عدد آخر من قياداتها إلى عضوية اللجنة المركزية للمنظمة.

وكانت " منظمة الشباب " قد تشكلت قبل هذا التاريخ بعامين تقريباً، وأشرف على إنشائها السيد " زكريا محيى الدين "، واستعان فى ذلك بعدد من الماركسيين المصريين كان من أبرزهم المرحوم " الدكتور محمد الخفيف "، الذى أقام عدة معسكرات تثقيفية تم خلالها تدريب عدد من الكوادر الشابة أصبحوا فيما بعد " موجهين سياسيين " لأعضاء المنظمة التى سرعان ما احتدمت داخلها، بحكم شبابية أعضائها، معارك فكرية حادة!.

وبسبب طبيعة سلطة يوليو، فإن " سمير حمزة " ومجموعته، سرعان ما أصبحوا محل شك واتهام: وكان الاتحاد الاشتراكى متخماً بالصراعات ومراكز القوى والنفوذ، وكان من بينها صراع مكتوم بين أمينه العام " على صبرى " والمرحوم " كمال الدين رفعت " الذى كان أميناً للدعوة والفكر ومشرفاً على إصدار نشرة " الاشتراكى " نصف الشهرية، وهى بمثابة النشرة الداخلية للاتحاد.

وكان " حسين كامل بهاء الدين " الأمين العام لمنظمة الشباب قد ضاق ذرعاً بالأمين المساعد " سمير حمزة " بعد أن استشرى نفوذه فى المنظمة، فقد كانت اللجنة المركزية لها تضم نحو ١٣ من زملائه فى الفرع القُطْرى لحركة القوميين العرب، فضلاً على أنه كان مسنوداً من السيد " سامى شرف " سكرتير الرئيس " عبد الناصر " للمعلومات، الذى كان زميلاً لوالد سمير فى

الكلية الحربية وهكذا تفجر الصراع بينهما واتهم بهاء الدين، حمزة، بأنه يقود تكتلاً حزبياً داخل اللجنة المركزية للمنظمة يعمل لحساب تنظيمه الأصلى، ويوجه المنظمة فى خط بعيد عن خط الميثاق، وأن التكتل الذى يقوده يعقد اجتماعات فى المنازل، وينسق مواقفه. وساند السيد "على صبرى" موقف بهاء الدين وفى اليوم المحدد لاجتماع اللجنة المركزية لمنظمة الشباب وبعد قليل من بدء الاجتماع دخل اللواء " حسن طلعت " مدير المباحث العامة آنذاك وبعض ضباطه فاعتقلوا " سمير حمزة " والمتعاطفين معه من داخل الاجتماع.

وهكذا، وفى مساء ٤ أكتوبر ١٩٦٦، بدأت حملة بوليسية ضخمة، هدفها تطهير الاتحاد الاشتراكى ومنظماته من اليسار، فوجهت الضربة إلى المعهد الاشتراكى، وقبض على عدد من أساتذته والدارسين به، والعاملين فى أجهزته الفنية، كان على رأسهم عميده " د. إبراهيم سعد الدين " كما قبض على " سمير حمزة " ومجموعته وقبض علىّ، وعلى كل من كان عضواً فى "وحدة الشيوعيين المصريين" وعلى أعضاء فى تنظيم آخر هو " طليعة الشيوعيين " كان قد اتحد لوقت قصير مع وحدة الشيوعيين، وبدأ الضرب بالفلكة للبحث عن المؤامرة!.

استمر التحقيق معى نحو عشرة أيام، وعلى أوقات متفرقة، كانت الأيام الخمسة الأولى هى أقساها وأحفلها بالتعذيب، وقد دار الجزء الأول من الاستجواب حول مقالاتى " الثورة بين المسير والمصير "، وتولى التحقيق معى فى كل الموضوعات الرائد آنذاك " فتحى قته "، وهو الذى أشرف على تعذيبى، ودوّن أقوالى الرائد " عصام الوكيل " الذى تولى عملية التعذيب بمعونة عدد من المخبرين، وشهد جانباً من التحقيق معى العميد " أحمد صالح داود " مفتش المباحث العامة بالقاهرة وقتها، والعقيد "سيد زكى" المسئول عن مباحث الصحافة، وقد عرفت من " فتحى قته " فيما بعد أن "سيد زكى" هو الذى لفت النظر إلى خروج مقالاتى عن الخط.

وبعد مناقشة استغرقت نحو خمس ساعات حول المقالات، بدأ التحقيق الشفهى معى أثناء تعذيبى.

انتقل الاستجواب، وكان يتم بين وجبات التعذيب، إلى اللقاء الوحيد الذى

تم بينى وبين " محسن إبراهيم "، وهو لقاء قصير لم يستغرق سوى نصف ساعة، ودار كله حول المجلة، وقد أدهشنى أن الرائد " قته " قد سألنى عن الذين قابلهم " محسن إبراهيم " إبان زيارته لمصر، فقلت له برد فعل لم أحسن التحكم فيه:

- أظن أنه قابل الرئيس " عبد الناصر "!

وهو رد عوقبت عليه بنقلى إلى الزنزانة، حيث عُلقت فى مشجب حديدى فى حائطها نحو ساعة، استعادنى بعدها " فتحى قته " ليواصل التحقيق معى، وكان أعجب ما تطرق إليه التحقيق هو إغرائى بشكل ناعم بأن أعترف بمن حرضنى على كتابة المقالات، وقد قال لى " فتحى قته " برقة زائدة:

- إذا كان أحد المسئولين قد طلب منك كتابة المقالات وراجعها معك، فإن ذلك يلغى مسئوليتك، فاذكر لنا اسمه حتى نغلق ملفك؟، وسألته:

- مسئول زى مين يعنى؟

فقال بنعومة: السيد " كمال رفعت " أو السيد " أنور السادات "؟!.

وقد نفيت تماماً معرفتى بالرجلين، ولم أكن أعرفهما فعلاً، وإن كان السؤال قد أعطانى انطباعاً عن طبيعة الصراع على النفوذ فى كواليس الحكم، وأكد لى أن أجهزة الأمن هى الحقيقة الرئيسية الثابتة فى النظام الحاكم، وأنه لا كبير أمام سلطتها ونفوذها!.

وحين تطرق التحقيق إلى علاقتى بـ"سمير حمزة "، اشتدت وطأة التعذيب حتى بلغت الذروة، وتواصل الضرب بالفلكة، والسحب على البلاط، والتعليق على مشجب الزنزانة، حتى أعترف بطبيعة صلتى بسمير حمزة الذى لم أكن، لحسن الحظ، أعرفه.

ومضت ليال طويلة كنت فى معظمها أظل حتى الفجر معلقاً فى مشجب زنزانتى، أسمعُ طوال الوقت صرخات عشرات من أعضاء منظمة الشباب الاشتراكى الذين كانوا يضربون بالعصى أمام زنزانتى، وأنا معلق، وفى شبه إغماءة فيستغيثون هاتفين: أنا فى عرض عبد الناصر.

وقد انتهى التحقيق معى لأظل قيد حبس انفرادى مطلق نحو ٣٥ يوماً، عوملت خلالها معاملة حرف (ج)، وظل " عاصم الوكيل " يضربنى بالعصى

على أقدامى قبيل الإفطار والغداء والعشاء، وهو ما أكد لى أن هناك جهة ما تشعر بالغيظ منى، وكان " فتحى قته " قد قال لى فى اليوم الأخير من التحقيق:

ـ أنا قلت لهم من الأول إنك هايف ومفيش حاجة وراك مصدقونيش!.

ولم أسأله عمن هم، ولا عن " الحاجة " التى كانوا يظنون أننى وراءها، لكننى لحظتها فقط اكتشفت أننى بسذاجة - وربما بحماقة - مارست ما أظنه حريتى فدست بأقدامى أسلاكاً عارية كثيرة وأحدثت انفجاراً لم أكن أقصده!.

ويتذكر صلاح فى كتابه"تباريح جريح":

كان الفصل خريفاً كهذا من عام رقمه ١٩٦٦ عارياً كنت ومصلوباً إلى مشجب حديدى فى الزنزانة رقم ٣ بمعتقل القلعة.

دخل الرائد عاصم الوكيل الزنزانة فى يده زجاجة كوكاكولا، يتناثر الثلج على مسطحها قال: ما رأيك فى الكرافتة التى ألبسها؟ قلت له مش حلوة؟ فسألنى ليه: قلت: رأيى كده، ضربنى بحافة الزجاجة أسفل ذقنى، واصل الضرب بقوة حتى كاد يخلع فكى لم أحس بالألم، أنعشنى ملمسها البارد، وملأت رائحتها الشهية خياشيمى، استرددت بعضاً من وعيى الغائب نتيجة لضرباته قال: تعرف أنا رايح فين؟ وأكمل رايح السينما مع بنت زى القمر أرجع ألاقيك اتكلمت يا ابن .....!!

تذكر صلاح عيسى عندما سمع هذه الكلمة وجه أمه الوضئ، وهى تستيقظ كل فجر لتتوضأ وتصلى وسمع فى الصمت الذى أعقب رحيل معذبه صوت دعاء أمه الخاشعة فى وقت السحر، يارب يبارك فى عافيتك يا صلاح يا ابن بطنى ويكفيك شر سكتك.

فى ليلة رأس السنة، وعندما حل رأس السنة فى المعتقل، وقرر الشباب الاحتفال به، لعلع صوت صلاح عيسى بحرقة "أعطنى حريتى أطلق يدى" ولا أم كلثوم، ممسكا بيديه الاثنين قضبان حديد عنبر مزرعة طرة، حاولنا اصطناع شىء من الفرح، وكان لنا لجنة داخل المعتقل تأخذ كل الأموال التى تأتى إلينا، وتقوم بتوزيعها بيننا حسب حاجة كل واحد، فقررت هذه اللجنة أن

ترفه عنا، وتصرف سيجارة زيادة لكل واحد، واشترت علب طحينة ووزعتها مع الشاى، واشتروا بعض المشروبات من كانتين المعتقل، وبدأنا الليلة نغنى لنكسر حالة الإحباط، وقلنا حاجة ألفها الأبنودى الساعة ١٢ مساءً بالتمام وهى " فى داهية يا ٦٦ بالحضن يا ٦٧ "، وكبرت فى دماغ الأبنودى، وطلب أن نغنى أغنية الحشاشين لسيد درويش، وظللنا نردد " بس الأكادة حبسة ظلومة يكفينا شرك يا دى الحكومة ".

وتكفل عساكر المعتقل بتبليغ القائد بالأغنية، وفى صباح اليوم التالى حوسبنا عليها، وأفرج عنا فى نصف السنة لكنها كانت الأسوأ لنا لأن النكسة قد وقعت.

الأبنودى الواحد والعشرون

يحاور زميلنا الكاتب الصحفى "محمد منير" الشاعر عبد الرحمن الأبنودى يقول له:

قضيت ستة شهور فى زنزانة القلعة الانفرادية، ومع إخوانى ورفاقى فى سجن مزرعة طرة، وهى الأيام التى لم أكف فيها عن الضحك والتى كنت فى غاية السعادة أن ألتقى بمعتقلين قدامى ذاقوا الحبس من قبل فى معتقلات الواحات وقنا وغيرها، إلى جانب أصدقائى من جيل الستينيات أمثال سيد خميس وصلاح عيسى وجمال الغيطانى وسيد حجاب ومحمد العزبى وجلال السيد إلى جانب الإخوة إبراهيم فتحى والأردنى غالب هلسا.

أقمنا معًا لمدة أسبوع فى عنبر بسجن مزرعة طرة، نقلونا بعدها فجراً إلى زنازين القلعة ليضعوا كلاً منا فى زنزانة برقم معين، وعليك أن تنسى بعدها اسمك بعد دخولك من أبواب القلعة الرهيبة، وأن تتحول إلى رقم، ولن أحكى تفاصيل القبض علىّ بواسطة زوار الفجر لأنى أعتقد أن أصدقائى وزملائى قالوا وأفاضوا فى هذه النقطة.

وكلما رأيت سيارة المساجين الكئيبة تمر من أمامى فى القاهرة، أو فى أى بلد آخر، تذكرت ليلة الدخول بنا إلى الدروب المتعرجة الصاعدة فى قلعة صلاح الدين، ونحن نعامل كأخطر ما تكون المخلوقات، وكان إلى جوارى الصديق محمد عبد الرسول الذى قالها فيما يشبه النكتة لماذا لا

نخبرهم بمنظمة" الصياعة" التى كنا فيها ليضربونا بالمراكيب عقاباً لنا على هذه اللعبة التى لم نتعلم منها سوى الخوف من المخبر الذى يمشى خلفنا وكيفية التخلص منه، وضحك ضحكة متوترة عالية ونحن فى طريقنا إلى المجهول.

رقمى كان "٢١"، وكان يوضع على باب الزنزانة المظلمة، وأنا أتذكره جيداً، كما أتذكر " عم سيد " المخبر الذى دفع بى بقوة ووحشية إلى داخل الزنزانة، وهو لا يعرف ما حدث لى، أو ربما كان يعرف وقصد إلى ذلك؛ ففى زمن العز كان سرير المسجون السياسى عبارة عن لوح خشبى يوضع على قضيبين من الحديد، مثبتين فى جدار الزنزانة لينام بعيداً عن الرطوبة، أما فى زمننا، فقد رفعت هذه القضبان الحديدية، ويبدو أن أحدها استعصى عليهم فتركوه فى الجدار، وحين قذف بى عم سيد إلى داخل الزنزانة التى لم يكن بها إضاءة، حش القضيب الحديدى قصبة ساقى فذهبت روحى وغبت عن الدنيا جالساً فى ركن الزنزانة لا أعى ما يدور من حولى.

ومرة أخرى فتحت الزنزانة، وألقى المخبر ثلاث بطاطين هاتفاً: إنت فين «يا ٢١» ولم أستطع أن أجيبه فأغلق الباب وغادر، ثم بعد ساعة جاءنى برغيف فينو طويل وتسع زيتونات، وكان علىّ أن أنهى هذا الرغيف الطويل مع التسع زيتونات فى الوقت نفسه، وهكذا رحت أمضغ بعد أن عادت إلى روحى بعض الشىء، ثم فرشت بطانية وطبقت بطانية لأجعلها مخدة، واحتفظت بواحدة للغطاء وكنا فى شهر أكتوبر أى أن الجو كان بارداً ليلاً، ولم تكفنى بطانية واحدة للغطاء فأخذت البطانية المخدة وفردتها على البطانية الغطاء ونمت قليلاً من قسوة الحديدة التى ضربت قصبة الساق، ربما ربع ساعة أو نصف ساعة، لأفاجأ بأن جيوشاً من أشياء تأكل جسمى حين مددت يدى إلى ظهرى من خلف عنقى لأهرش وجدتها تخرج مبلولة بالماء الذى اكتشفته فى الصباح، إنه دماء البق الذى كانت تحويه تلك البطاطين اللعينة، ولم يمنعنى هذا من خلع ملابسى والجلوس عارياً حتى الصباح لأكتشف أن هذا كان "بقاً"، وحين نودى علينا لنغلق أعيننا بالمناديل للذهاب إلى دورة المياه رأيت كفى الحمراء، وكأنى ذبحت ثوراً، وصار هذا العذاب ينتظرنى كل ليلة بمجرد غروب الشمس، وكان على أن أتواءم معه لأكثر من عشرين ليلة فى زنزانة السجن الانفرادى.

وأرسل ضابط المباحث فى طلبى ففغم المخبر عينى، وظل يجرى بى لأرتطم بالجدران وسلالم القلعة لأجد نفسى أمام ضابط المباحث الذى صرخ فى المخبر بصوت مفتعل: لماذا تغمى عينيه ألا تعرف أنه عبد الرحمن الأبنودى؟ هل ضربك هذا المجرم؟ وكان هذا المجرم قد ضربنى بالفعل، وركلنى فى المشوار القصير بين الزنزانة وغرفة الضابط التى تقع خلفها مباشرة، سوف تتعجب من أن أول سؤال سألنى إياه ضابط المباحث هو: " ما حكاية عبد الرحمن الأبنودى؟ وتعجبت من السؤال أو تعجبت للسؤال وسألته ماذا تعنى؟ قال كيف اشتهرت فى ذلك الزمن القصير، ولم أدر بماذا أجيبه؟ وكعادة ضباط المباحث أعطانى سيجارة، وأن يطلب لى شاياً، فأجبته بما يعرفه من أن مسئولى السياسة الذى أبلغ عنى هو صاحب هذه الفتنة، وأننى لم أنضم إلى أى منظمة فى يوم من الأيام إلى آخر هذه المحاورة التى تجعل المخبر يأتى ليصفعك ويركلك مرة أخرى ولكن هذه المرة بدون تغمية العين، وهكذا ونعود إلى الزنازين لنرحل بعد نحو ٢٥ يوماً.

كان ضابط المباحث " منير محيسن " غفر الله له، وكان يعرف أن مسئولى السياسى فى تلك المنظمة هو الذى أبلغ عنى، فقد كان قريباً لأحد مسئولى الداخلية الكبار فى المباحث العامة، والذى جنده ليفشى أسرار المنظمة.. ثم انتقلنا إلى سجن مزرعة طرة مرة أخرى لنقضى بقية الستة شهور، وكان كل المعتقلين من إخوان مسلمين ومن حزب الوفد الذى قبض على الكثير من قياداته ممن كانوا يودعون الزعيم مصطفى النحاس إلى مثواه الأخير.

اخترنا عمدة منا، كان مناضلاً قديماً واسمه عم منصور، وكان يعمل فى تجليد الكتب وهو فى الخارج وسجن مرات كثيرة؛ بسبب رفضه حل الحزب الشيوعى، وإحساسه بأن المثقفين خانوا العمال فتجمع العمال، وأعادوا حزبهم إلى الوجود ليقبض عليهم جميعاً ويمضوا أجمل سنوات حياتهم خلف القضبان، وكانوا يسخرون منا بصفتنا أفندية، وأن قياداتنا خدعتنا، كما خدعتهم قياداتهم، والمهم أننا وزعنا المسئوليات وكان كل مدخن يأخذ سيجارتين يومياً، فبسرعة كونا "كوميونات"، بمعنى أن توضع الست سجائر وتصبح ملكية عامة للثلاثة معتقلين، ونقص السيجارة إلى ثلاثة أجزاء، وصنعنا من أنبوبة معجون الأسنان أقماعاً نضع فيها ثلث السيجارة لتمر على

الثلاثة ليأخذ كل منا "نفسين" لمدة ١٨ مرة فى اليوم، وحين بدأت كتابة "أحمد سماعين" طالبت بأن من يكتب شيئاً يأخذ سيجارة، وقدت ثورة ضد عم منصور، وانضم إلىّ الآخرون وعملوا انقلاباً على الرجل الطيب، والشيوعى القديم الذى كان يسلك على أساس أننا لن نغادر السجن أبداً، وكان أصدقائى من الخارج يرسلون لى؛ معتمدين على علاقتهم بالسلطة، الكثير من السجائر، مثل عبد الحليم حافظ وزوجة بليغ حمدى السابقة "آمال" رحمة الله عليهم جميعاً، فكانت السجائر تضم إلى الحياة العامة وتزداد يوماً بعد يوم، ونحن ما زلنا نتقاضى السيجارتين فى اليوم، وحسبناها بحسابات عم منصور، فاتضح أن السجائر تكفينا لثلاثة أعوام ونصف العام، فقمنا بالثورة فى العنبر وسلمنا العمدية لسيد حجاب، الذى لم يفلح فيها أبداً، فعدنا لنستردها ونعطيها إلى عم محمد عبد الغفار وهو عامل نسيج من شبرا ورجل جميل جداً ولماح، وعاش تجربة الاعتقال المريرة فى الواحات، ويحفظ الكثير من أشعار فؤاد حداد، وكان يغنيها لنا ليلاً ،ولما كان طيباً هو أيضاً فقد خربت الحياة العامة.

فى الزنزانة الانفرادية يموت الزمن، وتكتشف أنه لا يوجد شىء اسمه الزمن، وأن الزمن هو تعاملك مع البشر فهو الذى يحرك الحياة ويجعلك تقضى الليل والنهار دون أن تحس، وفى الزنزانة يتوقف الزمن؛ لأنه لا توجد حركة، فكنت أنتظر أن يدخل شعاع ضوء كل صباح إلى زنزانتى، فيرسم شكلا على الأرض، أظل ألاعبه وأداعبه حتى تسحبه الشمس مرة أخرى وهى تنتقل، وكانت هذه اللعبة الصباحية تستغرق نحو عشر دقائق إلى جانب أنك تجد "بقة" على جدار تظل تداعبها وتلاعبها وتحلق عليها بكفيك وتصعد معها وتهبط وتستغرق فى هذه اللعبة، وحين تهرب منك إلى أعلى يخيل لك أنك أمضيت معها نصف يوم، وأنت فى الحقيقة لم تمض سوى ست دقائق، ولأن الأيام متشابهة، ولأنك لا تملك ساعة أو راديو، ولا ترى جريدة فإنك مضطر إلى أن تنخر فى الجدار بأظفرك لتضع خطاً لتستطيع أن تعرف كم من الأيام مضت وأنت فى هذه الزنزانة، وحين يفكر الشاعر فى كتابة شعر فإنه مضطر للرجوع إلى الأشكال الشعرية القديمة نظام البيت بيت، أى أنك تقول بيتاً ثم تحفظه جيداً، ثم تقول البيت الثانى، وتحفظه جيداً ثم

تردد البيتين، وهكذا .. ومن ثم فإن قوالب الموال هى الأقرب للسجين الشاعر، لذلك فأنا أعرف جيداً، لماذا كتب فؤاد حداد أشعاره فى صورة أقرب إلى الزجل، ولماذا شعره مربعات كشباك السجن المقصوص أبياتاً بالأسلاك الحديدية وكجدران الزنزانة ومستطيلات كأبواب الزنازين، لذلك وجدتنى أقول تلك المواويل التى لم أدونها على الورق إلا بعد خروجى من السجن.

تحـركت أسـر المعتقلين وأصـــدقاؤهم، ولكن عطيات الأبنـودى زوجة عبد الرحمن السـابقة هى التى أصـدرت كتاباً جميلاً تضمن رسائلها إليه تحكى فيها ماذا كان يجرى خارج الأسوار.

رسائل عطيات الأبنودى

ـ «البارحة صباحاً خرجت، كان هو اليوم الموعود للذهاب إلى مكتب رئيس الجمهورية لنقابل على الأقل سكرتير السيد الرئيس، ذهبنا إلى مبنى الوزارة المركزية فى مصر الجديدة قالوا: "العنوان غلط يا هانم».

سكرتير السيد الرئيس سامى شرف فى منشية البكرى، وهو فى الوقت نفسه بيت السيد الرئيس، كنت أنا وإيفلين زوجة سيد حجاب، وسمية زوجة كمال عطية.

عطيات اتصلت بفريدة زوجة صلاح عيسى مرتين، ولكنها لم تأت فى الميعاد فى بيت الرئيس فى منشية البكرى، وعلى البوابة مكتب فقير وموظف بسيط أخذ اسمينا ولم يسألنا عن اسم من نريد مقابلته، أشار لنا إلى مكتب آخر فى الدور الأول من المبنى، دخلنا المكتب وتصورت أن هذا مكتب سامى شرف، سلم علينا الرجل من خلف المكتب وطلب منا الجلوس.. بعد قليل التقط سماعة التليفون وبدأ بقوله: "أنا عونى يا أفندم" وسأل عن شخص لا أذكر اسمه، قال الذى على الطرف الآخر: موجود فى اجتماع، قلت فى نفسى يمكن فلان ده بدل سامى شرف ويمكن يغنى عنه، ولكن الأستاذ عونى التفت لنا وقال كلهم عندهم اجتماع، واقترح علينا أن نذهب إلى مكتب وزير الداخلية، فقلت إحنا حنروح بعدين لوزير الداخلية، لكن دلوقت إحنا عايزين سيادة الرئيس أو الأستاذ سكرتير الرئيس، من حق أى مواطن يبعت جواب للسيد الرئيس أو يطلب مقابلته إحنا قرينا فى الجرايد الكلام ده.

خرجت فى الصباح مع سمية وإيفلين إلى مكتب محمد حسنين هيكل فى جريدة الأهرام لم نستطع مقابلته، بالطبع عندما عدت إلى البيت، قالوا لى إن شخصاً من مباحث محافظة القاهرة مر على فى الصباح، وعمل دوشة فى الشارع، وسأل عنى كل من كان فى طريقه بدءًا من الست أم محمود بائعة اللبن والست أم صلاح بائعة الليمون، وحتى جميع الجيران. جاء مرة أخرى فى المساء سألنى إذا كنت قد أرسلت برقية للسيد المحافظ؟ قلت نعم.. قال: المحافظ بعت التلغراف إلى مدير الأمن، ومكتب مدير الأمن بعتنى للاستعلام عن زوج السيدة عطيات الأبنودى، نظرت إلى الأوراق مكتوبا عليها شكوى السيدة عطيات الأبنودى عن غياب زوجها عبدالرحمن الأبنودى، ابتسمت كأن حضرتك مفقود ومدير الأمن سوف يبحث عنك، ولم يتبق إلا أن يرسلوا نشرة إلى كل أقسام الشرطة التى هى فى خدمة الشعب مصحوبة بصورة لك مكتوب تحتها «فُقِدَ وجارى البحث عنه» أو "عيل تايه يا أولاد الحلال"، سألنى الرجل: هل اسم المفقود بالكامل /عبدالرحمن محمود أحمد عبدالوهاب الأبنودى، وهل عنوان السكن كما ورد فى الأوراق.. قلت نعم كان كل المطلوب من الرجل أن يتحقق للسيد مدير الأمن من اسم المفقود وعنوانه ومع السلامة.

وخرجتُ صباح الأمس، بداية لمعتُ الحذاء فى محل فى طريقى إلى مقابلة خالد محيى الدين، رفعت السعيد مدير مكتب خالد، أنت تعرف رفعت كان يسكن فى شقتنا قبل أن يتركها لنا لنسكن فيها، قابلنى بشكل رائع، وجلس على الكرسى المقابل ولم يلزم مكتبه.

وسألنى لماذا لم أتصل بهم منذ بداية اعتقالك بدلاً من البرقيات الساخنة الصعبة التى أرسلتها، ذكر لى أن جمال حامد ضابط المباحث الذى قبض عليك حاول الحصول منه على هذه البرقيات المرسلة منى ومن إيفلين لمحاولة مضاهاة نصوصها، لأنه يعتقد أن التنظيم هو الذى يوجه الزوجات لكتابة هذه البرقيات، ولكن رفعت رفض، كما قال لى، و طلب منى عند مقابلة الأستاذ خالد أن أؤكد له أن الأبنودى ليس لة علاقة بأى تنظيمات سياسية، حتى يستطيع أن يتكلم مع وزير الداخلية "ويضمنك عنده".

قال خالد: حاضر أنا حاتكلم مع شعراوى جمعة.

كلمت عبد الحليم حافظ بالتليفون، كان نائماً وبعد ساعة ونصف الساعة

كان قد خرج، رد علىّ السفرجى فى كل مرة وفى كل مرة يسأل عنك، ويبعث لك السلام، سمعت أصواتا عالية وخبطا شديدا على الباب؟ مين؟ عبد الحليم حافظ للمرة الثانية، ومصطحباً معه منير عامر وأخو عبد الحليم الأصغر، نزل منير وأخو عبد الحليم، وتركونى معه نتحدث أكثر من ساعة، قال عبد الحليم إنه تكلم مع المسئول عن اعتقالكم.. لم يذكر من هو، وأبدى عبد الحليم للمسئول استعداده لضمانتك.. رد المسئول بأن الموضوع ليس محتاجاً لضمان، وأن هناك مجموعة سوف يفرج عنها بمناسة العيد، والباقى سوف يكون فى المعتقل حتى تنتهى التحريات، سأله لحد إمتى، قال المسئول الكبير: لا أدرى، ولا أستطيع أن أذكر لك أسماء الذين سوف يفرج عنهم على العيد، واستطرد عبد الحليم قائلاً: هروب يحيى الطاهر وعلاقته بعبد الرحمن هما السبب فى دخول الأبنودى المعتقل، قلت له بحدة: إذا كان السبب فى اعتقال عبد الرحمن هو علاقته بيحيى، فمن السبب فى دخول الآخرين المعتقل.؟

كل سكان البيت علموا بوجود عبد الحليم، فتوافدوا للسلام، حتى سامية الصغيرة بنت الست روحية طلبت منه أن يسمعها أغنية "جبار"، وضحكنا جميعاً، نزل نحو السادسة والنصف مساءً، كان الشارع مزدحماً بالذين يريدون مصافحة عبد الحليم، بعد خروجه بدأت أفكر لماذا جاء عبد الحليم لزيارتى دون موعد؟!

كلمتُ رفعت السعيد قال لى: أنا كنت بنفسى حاجيلك النهارده، وأقسم بالله العظيم قلت "آجى لك أنا" ركبت التاكسى وعلى مبنى الاتحاد الاشتراكى، حيث مكتبه أبلغنى أن الأستاذ خالد تكلم مع شعراوى جمعة بالفعل وكان الحوار كالآتى:

خالد: إيه موضوع الأبنودى؟

شعراوى: الأبنودى مين؟

خالد: على حسب وداد قلبى

شعراوى: لأ وأنت الصادق تحت الشجر يا وهيبة.

خالد: إنت عارف إنه شاعر كل الناس عارفاه، وكل الناس عارفه إنه ممسوك فمافيش داعى، وأنا عارف إنه مالوش دعوة بالسياسة.

شعراوى: أنا عارف إنه مالوش دعوة بحاجة، وحيخرج عن قريب إن شاء الله.

والله زمان يا عبد الرحمن

عرفت "الأبنودى" قبل أن أراه، استمعت إلى نبض قلبه شعراً، وأحببت الرجل والكلمات حتى قدر لي أن أقضى معه أياماً طويلة لم تكن فى الحسبان، كنا فيها لا نكف عن الحلم وأحياناً نبكى، ثم افترق بنا الطريق، ولم نعد نرى بعضنا البعض، وإن بقيت أتابع بإعجاب كل ما يكتب وبعض أخباره الخاصة والعامة، وأحياناً معاركه التى يخاصم فيها ويصالح على هواه، وقد تصل إلى حرب حقيقية له كل الحق فيها، وقد يهادن بالحماس نفسه، وقد يكون قتالاً يناطح طواحين الهوا ويصارع الأشباح، ولكنه فى كل الأحوال كان صادق الانفعال، ينبض قلبه دائماً بالأشعار، لقد كتب علينا أن تجمع بيننا القيود، فما إن نتحرر لا يرى الواحد منا الآخر، ولأننى أحبه فقد أشفقت عليه من الكتابة نثراً، عندما عرفت أنه سوف يكتب اليوميات، فعبقرية "عبدالرحمن الأبنودى" ليست فيما يكتب، وإنما فيما ينطق وينطلق به قلبه ولسانه، والشعر فى ذلك المقام أصدق تعبيراً، ثم إننى خشيت على النجاح الذى حققه أن يتعرض لامتحان جديد، ما زال "عبد الرحمن" التسعينيات هو نفسه فتى الستينيات، متحمساً منفعلاً منطلقاً، ما زال هاوياً يمسك القلم عندما يريد، ويقصفه بيده لو تغير لونه، أشفقت عليه فى زمن اختلطت فيه الألوان، وتنوعت فيه أساليب القهر والإغراء.

وتقدم بنا العمر، واستيقظ الشاعر ذات صباح فلم يجد أذنه اليسرى، انقطع عنها الإرسال، "أى الاستقبال" وحل محله "وش" فظيع، بينما الأذن اليمنى تعمل بنشاط تماماً، كما يعمل اليمين المتطرف فى بلادنا من تكفير "نصر أبو زيد" إلى محاولة اغتيال رئيس الجمهورية قالها "الأبنودى" وقال إننا فى زمن البيع والشراء والمكسب والخسارة، فتحسس جيبك!!

وقال إن الزمن اختل فاختل البشر، فقد كان حلماً أن يعبروا القناة ولو مرة قبل الموت، وصار الحلم أن يعبروا البحر ليعملوا أجراء فى بلاد الخليج، ومن النداء بـ " يا بطل" إلى النداء بـ "يا ولد".

تذكرت الأبنودى وأيام الحلم والشدة، وأنا أقرأ له وهو لا يتغير، جميل أن يبقى الإنسان على حاله لا تغيره الأيام، وأجمل منه أن يحتفظ بسجيته وتلقائيته، وأن يقبل على الدنيا بعض الوقت، ويتركها تبتعد عنه بعض الشئ، والله زمان يا "عبد الرحمن".

(هيـ...ـه... واهى الدنيا بتلعب بينا على رأى الأبنودى"!!)

أهتف من داخل الزنزانة "٢١" فى المخبـر الذى يمشى فى الساحة بين صفين من زنازين معتقل القلعة فى عام ١٩٦٦، (مش أنا يا عم "سيد" مش أنا اللى كاتبها دى!!)

يضحك بسخرية العارفين: هيـه؟ أمال هم جابوك هنا ليه..؟.

أيام السجن الجميلة!

.. وكتب الأبنودى:

كان صديقنا الأستاذ "العزبى" الذى لم أتعرف إليه إلا فى السجن هو مسئول "الفجل" فى عنبرنا، ولقد تبدو مسئولية عجيبة، إذًا ما دخل الصحافة بالفجل..؟

كان فى عنبرنا ٣٩ معتقلاً، وكان يصرف لنا جردل فول يعوم عليه عشرة سنتيمترات من الزيت الذى كنا نكبشه بملعقة ونفرغه فى إناء لنشعل به " التوتو " الذى يشبه مسرجة أو " سبرتاية " تشتعل بوقود " زيت الفول المدمس "، والفول، أجار الله الجميع تحس، وأنت تخرج من كل فولة سوستها التى فى حجم فولتها، أنهم وضعوا فيه السوس خصيصاً لعقاب المساجين.

وكنوع من الترفيه أو "الأوردفر" أو المشهيات كالكافيار أو المخللات، كانوا يصرفون لنا الفجل، وقد كان نصيبنا من الفجل " نصف فجلة "!!.

كان الأستاذ الصحفى "محمد العزبى" يذهب فى موعد الغداء لينادوا عليه: « مسئول فجل عنبر" ٢" » يتقدم بتواضعه الجم لينتع نصف الفجلة، ويأتى بها إلى العنبر يجلس فى منتصفه، ويبدأ فى تنظيفها وغسلها، وهو ينكر تماماً بصوته المهذب الخفيض أن داء الدوسنتاريا الذى انتشر فى العنبر سببه نصف الفجلة، ويؤكد على أن كل أكل سجن طرة يحمل الإسهال معه، وأن الفجل دواء وليس داءً!!

كنت قد نشرت شيئاً للمرة الأولى عن سجننا السياسى فى السلسلة التى تنشرها السيدة الفاضلة "سناء البيسى" فى مجلة نصف الدنيا للكاتب الشاب " محمد منير"، الذى حاور العديد من المساجين السياسيين، وإذا بهذا الحوار معى يثير ذاكرة الأستاذ "محمد العزبى" ويدفع به ليكتب شيئاً عن سجننا،

وإن كان تجاهل مسئوليته التاريخية التى أوردناها منذ قليل، وسأنشر رسالته الرقيقة، واسمحوا لى بالتدخل، للتفسير، أحياناً، و لقد "شخبط" لى على طرفيها ما هو أكثر من عنوان أو شهادة براءة من أن أعتبر وريقاته مقال "خواطر وذكريات ووجع دماغ، أنت الذى فتحت الباب.." فما كان يتوقع أن أنشر أقواله، كان رقم زنزانتى "٢١" كما ذكرت، ولقد سمَّانى بما يصلح عنواناً: "عبد الرحمن الواحد والعشرين" .

"عزيزى عبد الرحمن الواحد والعشرين "، أَثَرْتَ الذكريات بما نشرت، أعتقد لأول مرة، عن شهور قضيناها وراء الأسوار، ولقد صدقت إذ قلت إنك، وأنا أيضاً والآخرين، لا ننظر إلى الخلف بغضب.

كانت تجربة أضافت لكل واحد منا مع الاعتراف بأن السجن لا يحسد عليه أحد، وأحسدك على أنك مازلت تحفظ رقم زنزانتك، وعم " سيد "، وأين "عنكب" أقصر المخبرين قامة وأكثرهم صرامة وادعاء للنباهة، إذ داهمنا يوماً – أنا وأنت – فى الزنزانة وأنت ترسم لى بإصبعك على الجدار "الشالية" الذى تحلم به على ضفة القنال، فأراد تصوير الحلم الجميل خطة للهرب؟: "هرب مين يا بوى؟ ده إحنا ما صدجنا إنه اجتمعت صحبة من المبدعين، صحبة حلوة وشباب زى الورد!! " .

أحلى ما قلت هو الكشف عن أسماء بعض من أدى دور الجلاد.

الغريب يا أخى أو لعله الطبيعى، أنهم يتحولون إلى ملائكة فور أن يتخلى عنهم الكرباج.

رأيته بعدها بسنوات وقد تغير الحال، كان قد أصبح مسئولاً فى شرطة السياحة، و كنا على ظهر فندق عائم فى النيل توقف بنا عند قرية فى الصعيد، فذهب يصلى بخشوع فى الجامع ويتبتل وكأن شيئاً لم يكن.

وكان هناك "ع. أ " (كان ضابط حصل على فرقة تعذيب من ألمانيا، ومارس علينا بعض صفحاتها، وكان يفخر أمامنا بما تعلمه من وسائل التعذيب، وقد كان أحمر الوجه كالألمان، والضابط " جزر " ولست متأكدا إذا ما كان هذا اسمه أو لون بشرته الحمراء أم لأنه ضابط سجن "مزرعة" طرة!! مثل "الفجل"، وآخرون.

التجريس واجب

لكل من تجاوز وتلذذ بانتهاك حرمة وحرية الإنسان، ومع ذلك فأنت ترى يا أخى أنى رمزت للضابطين بحروفهما الأولى، ليس خوفاً من محكمة؛ ولكن لأننا اتفقنا ألا ننظر إلى الخلف فى غضب.

حتى " شعراوى جمعة" وزير الداخلية والذى يحظى بسمعة طيبة عند عدد من المثقفين، والدكتور " ح. ك. ب " تردد اسمه فى حبس أعضاء منظمة الشباب أيام أن كان مسئولاً عنها والغريب، أو لعله الطبيعى، أن تلمع أسماء محافظين ووزراء، ولا نعرف لذلك سبباً حتى نكتشف أن أيديهم كانت ثقيلة، ولا أقول طويلة، فى خدمة النظام!!.

المفاجأة كانت أن مصر كلها محبوسة، فلم أكن أتصور - بفعل الدعاية أو بسبب السذاجة - أن هناك معتقلين إلا أولاد الأفاعى أعداء الشعب، فاذا بهم فى "طرة ١٩٦٦ " إخوان ووفديون وشيوعيون وتنظيم طليعى " حكومى " وثرثرة محامين و" نشاط معادٍ" وهى لافتة تندرج تحتها جميع الاتجاهات.

وكان الوفديون أقرب جيراننا - الباب فى الباب - وتهمتهم الخطيرة هى السير فى جنازة النحاس باشا، وكان أول من زارنا منهم " مصطفى ناجى" رحمه الله، ولم أكن أعرف أن أخاه الصغير الذى يحدثنا عنه سوف يكون الروائى "محمد ناجى" صاحب رواية "خافية قمر" (لم أحقق هذا النسب، ولكننى سمعته فصدقته، وتمنيته).

أما بهوات الوفد فعرفناهم من ارتداء " الروب دى شمبر": "ياسين سراج الدين"، و"حافظ شيحة" وأولاد البلد " طلعت رسلان" و"على سلامة"، ولقد انتخبهما الشعب بعد ذلك على الرغم من تدخلات السلطة، وأصبحا نائبين اشتهر أولهما بواقعة التصدى لوزير الداخلية الخطير " زكى بدر " فى جلسة أذيعت على الهواء، استخدمت فيها ألفاظ وحركات "مش ولا بد" انتهت بـ "موافقة" على فصل رسلان من المجلس.

هل كان الاعتقال "هزار" وشقاوة مباحث؛ بدليل أنهم استعانوا بأجمل أشعارك بعد النكسة، ووضعونى فى منصب قيادى بالجمهورية، وكان "فتحى غانم" قد تولى رئاسة مجلس إدارتها، ولم أعرفه شخصياً، لكننى لم أستطع

أن أعلو فوق جراحى وغضبى من الهزيمة والخديعة، وليس من "طرة"، و"القلعة" مما جعلهم يمنعون اسمى من التوقيع والنشر، ويرفضون منحى الإذن بالسفر للخارج، وقد كان شرطاً وقيداً فى يد وزارة الإعلام.

حتى بعد ذلك بقيت فى مكانى أحظى بالثقة كما يقولون، بينما أنبههم إلى أنى خطر على الرأى العام، فمن موقعى أستطيع أن أمنع نشر خبر أو أبالغ فى النشر، أو أعيد صياغة، أو أضع عنواناً له لا يتفق مع السياسة المطلوبة، أما عدم التوقيع بالاسم فيكشف النوايا، وما زلت أذكر دبلوماسية "بهجت الدسوقى" فى التعامل مع حرمانى من السفر، وحواراً مع "إبراهيم علام" حول دور الإعلام لمواجهة يأس الهزيمة، وكلاهما كان ينفذ التعليمات برقة، وقد أصبحا بعد ذلك سفيرين لمصر فى الخارج.

أما وزيرهم "محمد فايق" فلم يطق أن يستمع إلى شهادة صديقى "محمود سالم"، ولا أقول وساطته، وقد كان مقرباً منه على الأقل بصفته رئيساً لتحرير " مجلة الإذاعة" و"محمود" ما زال يقرأ كثيراً، ويكتب قليلاً، ويعيد نشر قصصه التى تخصص فيها للأطفال وشياطينه الـ ١٣.

دارت الأيام

جاءنى مرة استدعاء أزعجنى، وكان للقاء "حسن أبو باشا" ولم يكن قد أصبح وزيراً للداخلية، فكان رقيقاً ودوداً استنكر الإزعاج، وقال ما معناه "مش عايزينك"، وفهمت أن البحث هو الشعراء وكلامهم الكتير، وطبعاً أنت أولهم!! غلط المخبر فى العنوان، ولكن ذلك لم يمنع "أبو باشا" من "تقليب الزبون" وتسليمه لـ "سيد زكى" مسئول الصحافة فى المباحث، وكان معروفاً بيننا صديقاً لبعضنا منذ كان يعمل مع رئيسه "إبراهيم حليم" والد مذيعة التليفزيون الرقيقة "نادية حليم"، وكانت زيارتهما للصحف مزيجاً من الصداقة والرقابة.

شربت القهوة و"سيد زكى" يستنكر استجابتى لدعوة "أبو باشا" أو غيره دون الرجوع إليه باعتبارى تحت حمايته، ادعيت أننى صدقته، ثم اكتشفت أنها مقدمة لطلب التعاون معه.

سألنى: من الذى يتصل به رجال " سفارة ألمانيا الشرقية " فى "الجمهورية؟" قلت بلا تردد: "أنا أول واحد"، قال بضيق: "مانا عارف، أنا عايز الشباب والأجيال الجديدة اللى ما أعرفش عنهم حاجة" ولم يكن عندى جواب، وكان آخر لقاء!!.

ياه.. ذكريات وحكايات، هذا ولم أذكر الرفاق القدامى، فقد كانوا أهل

البـيت، ومنهم من توفـاه الله، ومنهم من يسـعـد الناس، ومنهم من ضـاع فى الزحام، ومنهم من يتبعهم الغاوون: شعراء ورؤساء تحرير!!

كـانت حبسـة فنيـة شـبـابيـة أضـاف إليـهـا الوقـار مـجـمـوعـة من المنـاضلين أصحاب الخبرة فى المعتقلات، ومع أنك قمت بانقلاب على "عم منصور"، وتم عـزله من قـيـادة العنبـر، فـإننى لا أنسى لحظة أن أطل علينا من باب العنبـر صبحية يوم الحبس وعلى كتفه "جردل المسح" يتصاعد منه دخان لذيذ يحمل رائحـة الشـاى السـاخن للجـمـيع، هذا ولم أكن أعـرف أن علبـة الدخـان التى انهالت علينا فور وصـولنا من قضبـان الحديد السوداء فى شبـابيك العنبـر العالية جاءت معظمها تحية لك.

مع خالص حبى ولو أنه عن بعد.

همه عذبوك يا أستاذ حجاب؟

عبقرى وجميل" سيد حجاب " كنت أتمشى معه كل صباح نسمع من إذاعة السجن المفتوحة على راديو القاهرة "بنت اللذينة" أغنية "ياما زقزق القمرى" للشاعر الشاب، ولعلها كانت أول أغنية تذاع له، وكان صاحب "القمرى" يهز رأسه، لا أعرف طرباً أم دهشة فكيف يزقزق وهو مكبل بالقيود؟

درس الهندسة، أحب بحيرة المنزلة، دخل جامعة الإسكندرية، انتقل إلى القاهرة بجوار أخيه المهندس صلاح حجاب، انضم إلى سرب الطيور المغردة بالعامية الهادرة، أحبه صلاح جاهين، وقدمه فى" شاعر جديد يعجبنى".

عندما تزوج عام ١٩٦٣ من فنانة النحت السويسرية إيفلين بوريه فوق سطح عمارة بشارع نجيب الريحانى، عاش حياة تواكب فكره، فكان السرير من أقفاص جريد مغطاة بالخيش والبطاطين القديمة، انفصل بعد ذلك عن زوجته، اختارت الحياة فى ريف الفيوم، وأبقى على ثوريته.

دخل السجن فى ١٩٦٦/١٠/١٠، وخرج بعد شهور بلا تهمة ولا سبب ليصطدم بنكسة ٦٧، فسافر إلى سويسرا بعد أن خرج من زمن الزنازين.

عاد بعد سنوات معدودة لينطلق فى سماء الفن والوطن، ويندمج بشعره وشخصه فى ثورة ميدان التحرير.

"دخلت تنظيم وحدة الشيوعيين الذى أسسه الناقد الأدبى إبراهيم فتحى،

ومن قياداته الصحفى إبراهيم عامر، كنا نمارس نشاطنا من خلال الكتابة والنشر والندوات وعبر المنابر الثقافية المتوفرة فى ذلك الوقت، وبعد إعلان الاشتراكية فى مصر، أو ما كنا نسميه رأسمالية الدولة، بدأ بعضنا يدخل صفوف الاتحاد الاشتراكى، ويناضل من داخله، وبعضنا دخل منظمة الشباب، والبعض الآخر رفض دخول المنظمة، وأنا كنت ممن دخلوا منظمة الشباب، وكان معنا من يكتبون فى مجلة الحرية، التابعة للقوميين العرب امثال صلاح عيسى، وهكذا كنا جميعاً ضد فكرة حل التنظيمات الشيوعية، وأن يحتكر النظام وحده عملية شحن النضال الوطنى، لذلك كنا نشكل نوعاً من الإزعاج للنظام.

رأيت مواقف قمة فى الصلابة، ومنها موقف زميل اسمه محمد عبدالرسول، وكان إحصائياً اجتماعياً من جيل صلاح عيسى، وضبطوا عنده فى البيت منشورات تؤكد علاقته بالعمل التنظيمى، لكنه أصر على الإنكار رغم أنه تعرض لكل أنواع التعذيب التى تتخيلها والتى لا تتخيلها، من الجلد والصلب والتعليق والسحل وكل شىء ولم يغير أقواله.

ألقوا القبض علىّ، وبدأ التحقيق أخذونى من الزنزانة، ووضعوا منديلاً على عينى، ومن الزنزانة حتى غرفة التحقيق لم يتوقف الضرب، وكنت لا أرى أمامى أكثر من نصف متر، لأننى تعمدت أن أرفع المنديل قليلاً، وكنت أسمع أصواتاً كثيرة حولى، واكتشفت شيئاً غريباً وهو أنك بعد كام قلم لا تشعر بالضرب، كأنك فى غيبوبة.

ودخلت غرفة التحقيق، وما زالت العصابة حول عينى، لكننى من خلال نصف المتر الذى أراه أمامى رأيت المحقق، وكانت يده غليظة جداً، ويدخن السجائر الأمريكية المخلوطة بالنعناع، وكانت منتشرة فى تلك الفترة، وكنت أقول لنفسى إنهم يضعون هذه العصابة على عينى حتى لا أراهم؛ لأنهم يعلمون أننى المستقبل والغد الذى لا يعرفونه، وهذا يؤكد أنهم يخافون منى؛ ولذلك يجب ألا أخاف منهم.. وهذا الرجل الذى يقف أمامى لابد أن أكسره قبل أن يكسرنى، ولن يخرج من دماغى إلا الذى أريد أن أقوله، كنت أقول لنفسى هذا الكلام حتى أقوى نفسى بهذه "الحقن" النفسية، وبالفعل هذا الحوار مع نفسى أعطانى صلابة غير عادية، وجعلنى أصمد أمام المحقق

الذى كان يسألنى ولا أجيبه بغير ما أريد مما أثار استفزازه منى، وفى نهاية التحقيق انتفض، وقال بصوت مرتفع خالص: ارموه للكلاب والكهرباء، وخرج من غرفة التحقيق بعد أن رمى شحنة الإرهاب الغبية التى تعلمها من صلاح نصر، كل هذا والعصابة على عينى، وبعد خروجه سمعت صوت سلاسل وصرخات من زنازين أخرى لمعتقلين يتم تعذيبهم، وطبعاً قرأت كل هذا فى كتاب صلاح نصر، وكنت أعرف أن هذه الأصوات مسجلة من وقائع تعذيب حقيقية، لكنها لا تحدث فى الوقت الذى أسمعها فيه، وبعد فترة ليست طويلة يعود المحقق مرة أخرى إلى غرفة التحقيق، وأرى أمامى الأيدى الغليظة نفسها والسيجارة " السالم" نفسها، أشم العطر "البرفان" نفسه؛ لكن المحقق يرتدى ملابس أخرى.. ويقول مفتعلاً الدهشة: الله الله الله هم عذبوك يا أستاذ حجاب، هم ضربوك يا أستاذ حجاب، هم مغميينك يا أستاذ حجاب.. أنا آسف جداً.. ورفع المنديل من فوق عينى فقلت له: وكانوا عايزين يرمونى للكلاب كمان.. قلتها وأنا أنظر إليه نظرة معناها أننى أعرف أنه هو الذى أمرهم بذلك، وكأننى أقول له: وأنت الذى ضربتنى، هكذا انتهى التحقيق، وعدت إلى زنزانتى بعد كل شى ممكن تتخيله من الضرب بالخرزانة، والمد على الأرجل، واللكمات فى الوجه، والضرب الذى لا تعرف من أين يأتى.

وفى تلك الفترة مات "شهدى عطية" نتيجة التعذيب الذى تعرض له فى المعتقل؛ مما وضع الرئيس جمال عبدالناصر فى موقف صعب، عندما سافر إلى الاتحاد السوفيتى، وأثناء زيارته للبرلمان اليوغسلافى، وقبل بداية الجلسة دعا رئيس البرلمان الأعضاء إلى الوقوف وقال: سنقف دقيقة حداداً على وفاة المناضل شهدى عطية الذى مات فى سجون الرفيق جمال عبدالناصر، وبعدها أصدر جمال عبدالناصر قراراً بألا يصل التعذيب فى المعتقلات إلى القتل.

مقابلة وزير وإفراج سارتر

نداء أثار الدهشة والجدل، دخل العنبر ضابط يعلن أن معالى وزير الداخلية أرسل فى طلب وفد من المعتقلين سمَّاهم " سيد حجاب، عبدالرحمن الأبنودى، كمال عطية رحمه الله " إذ توفى فى حادث بالسعودية بعد الإفراج عنه بزمن قصير.

لماذا اللقاء؟ ولماذا هؤلاء الثلاثة بالذات؟ وأسئلة كثيرة يحلو بها السهر فى السجن، شيئاً فشيئاً تتضح الصورة، ونكتشف وراءها حكاية أخرى، وعندما يعود الزملاء الثلاثة من لقاء شعراوى جمعة وزير الداخلية وقتها نحس بالتفاؤل.

سيد وعبد الرحمن وكمال كانت زوجاتهم تثير القلق فى القاهرة، شكاوى ومقابلات وشجاعة، وقرأنا بعضها فى يوميات "عطيات الأبنودى"، والأهم أن يظهر دور الفيلسوف الوجودى الفرنسى الشهير "جان بول سارتر" فى الصورة بشدة، كان قد دعاه جمال عبدالناصر لزيارة مصر، وقد رفض مادام هناك معتقلون يساريون فى السجن، وعندما أقنعه ووعده من تحدث إليه فى باريس؛ مبعوثون عن ناصر، جاء وكان أول ما أثاره عندما التقى بعبد الناصر هو طلب الإفراج عن المعتقلين، يقصد مجموعتنا.

ذلك أن جزءاً من حملة السيدات الثلاثة وصل صداها إلى باريس أثناء لقاء سارتر وناصر.

استدعى وزير الداخلية شعراوى جمعة، وكان أيضاً أميناً للتنظيم السياسى، عددًا من المعتقلين على عجل فذهبوا إلى مكتبه بعد أن استبدلوا ملابس السجن بما كانوا قد جاءوا به من بيوتهم، وأودعوه أمانات فى إدارة المعتقل ليصير مكرمشاً مبهدلاً، نظرة إليه تكشف سوء الحال وراء القضبان.

استقبلهم شعراوى جمعة قائلاً: اللى بيناقشكم مش وزير الداخلية، ولكن أمين التنظيم ونفسى أعرف أنتم شعراء وكتاب، والريس بيحبكم ويحترمكم ومندهش ليه بتعملوا تنظيم معارض للنظام.

قال سيد حجاب: إن القطاع العام يتم بناؤه من خلال القطاع الخاص، وهذا يهدد مستقبلاً بثورة مضادة.

وقال الأبنودى: كيف تعلن الدولة أنها اشتراكية، والفصيل الوحيد المستبعد من العمل السياسى هم الاشتراكيون.

استدعى الوزير العقيد "محمود يونس" المسئول عن مكتب مكافحة الشيوعيين، وقال له: طب دول معتقلين ليه يا محمود؟!

عندما تركنا مكتب شعراوى جمعة، وقد بدا متفهماً آراءنا استنكر اعتقالنا، ذهبنا مع محمود يونس الذى قال: اعتقد أنه مفيش ديمقراطية أحسن من كده.

قالوا له: لأ فيه أن إحنا مانجيش السجن ده.

طالبهم بكتابة استنكار لفكرهم بعد كلام الوزير، فرفضوا قائلين: استنكار ليه ما دام الوزير وافق على كل اللى إحنا قلناه.

هكذا عادوا إلى المزرعة ليطلق سراحنا مع استمرار التحفظ على القدامى: عم محمد عبدالغفار عامل النسيج بشبرا، وعم منصور مجلد الكتب، ومحمد بدر الذى كان يعمل بشركة للنحاس بكرموز..

كل أشعار سيد حجاب ثورية، ولكننى أحتفظ بأبيات قديمة له يعارض فيها قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقى "سلوا قلبى"، التى جعلتنا أم كلثوم نحفظها عن ظهر قلب.

كتب سيد حجاب:

سـلوا قلبـى وقـولوا لى الجـوابا
لمـاذا حـالنا أضـحى هبـاباً؟!
لقـد زاد الفسـاد وسـاد فينـا
فلـم ينفـع بوليس أو نيـابة
وشـاع الجهـل حتى أن بعضـاً
مـن العلمـاء لـم يفتـح كتـاباً
وكنا خيـر خـلق الله صـرنا
فى ديل القايمة وف غاية الخيـابة
قفلنـا البـاب، أحبطنا الشـبابا
فـأدمن أو تطـرف أو تغـابى
زمـان يطحـن النـاس الغـلابة
ويحيـا اللص محتـرماً مهـاباً
فكن لصاً إذن أو عش حمـاراً
وكـل مشـًا إذن أو كـل كبـاباً
أميـر الشـعر عفـواً واعتـذاراً
لشعـرك فيـه أجـريت انقـلاباً
ومـا نيـل المطـالب بالطيـابة
دى مش دنيا يا شوقى بيه دى غابة!!!

أوراق شاب عاش منذ ألف عام

يرى جمال الغيطانى أن جيل الستينيات كله اعتقل مرة واحدة، من الذى وشى به؟

أديب كان يكتب بالعامية، وكان يمت بصلة قرابة للواء "حسن طلعت داود" مدير المباحث العامة فى ذلك الوقت، أحب فتاة واحتاج إلى ١٥٠ جنيهاً ليتزوجها، فقال له "حسن طلعت" بعد أن عرف بأزمته: أنا أعرف أنك على علاقة بمجموعة مثقفين يعملون ضد النظام، أعطنى أسماءهم أعطك المائة وخمسين جنيهاً، وهكذا دخلنا المعتقل!!

روايته عن التعذيب لا يريد أن يكررها، ولكنه قرر أن ثلاثة كانوا الأكثر تعرضاً للتعذيب، لدرجة أن أحدهم كان يتم تعليقه ثلاثة مرات متتالية مثل الخروف، هم: محمد عبدالرسول وهو شخص غير معروف على نطاق واسع، ولو أنه ألّف كتاباً عن تجربته، كان زميلاً لصلاح عيسى فى مدرسة الخدمة الاجتماعية، وأحمد العزبى وكان صحفياً بالجمهورية، وصلاح عيسى نفسه.

غير أن أكثر الأشياء تأثيراً فى نفسه، وبقى ملازماً له حتى الآن هو أن الضابط الذى كان يحقق معه سبَّ أمه، كانت الطريقة أن تجلس على كرسى خشب، وخلفك عدد من المخبرين يمسكون " شومًا " ويضربونك إذا أشار لهم فى أى لحظة، "وحين شتم أمى شعرت بقهر شديد واغرورقت عيناى بالدموع، وحتى هذه اللحظة لم أغفر لهذا الشخص إهانته، وظللت أتتبعه فى

المناصب التى تولاها، وهو ضابط فى أمن الدولة أخرجوه منها بعد مظاهرات ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧ م، وتولى شرطة المسطحات المائية، وكنت أرسل له شتائم مع أى أحد يعرفه، ولو رأيته سأشتمه لأن هذا ثأر بينى وبينه ".

لم يكتب الغيطانى تجربته المريرة، ولكنه نشر روايات مبدعة، وأشاع جو الاعتقال فى أوراق شاب عاش منذ ألف عام.

"فى بعض الليالى التى أقضيها هنا أضيق بوجودى وبنفسى، فى النصف الثانى من الليل يكون الهدوء غويطاً كالموت، والظلام مخيفاً حتى للذين ألفوه، وأسمع أصواتاً تجئ من الأحياء المجاورة، لا يبين فيها صوت الرجل من صوت المرأة، ولا تفسر منها كلمة، أقوم متجولاً حول السور الذى يعلو البناء، إذ اقترب من منتصف السطح أسمع هسيساً، أصواتاً رفيعة ممطوطة، يقشعر لها البدن، من هنا يبدأ سلم حلزونى هابط إلى عمق كبير، على جانبيه حفر ضيقة فى الجدران، لا يتمدد فيها الإنسان على راحته، كما لا يمكنه الوقوف بطول قامته، هذه هى المواضع التى يربط فيها المحابيس، وربما نزلت من حين إلى حين يتقدمنى السجانة ينيرون السراديب، وأسأل نفسى ما الذى يفكر فيه شيخ قضى هنا ما يزيد على سبعين عاماً، أو شاب مضى عليه عامان، أتأمل وجوههم، أداعبهم وربما ضربتهم فجأة وصحت فيهم أنه لا أمل لهم يرجى، فالوجوه تبدو كريهة ممقوتة، وإذا أردت أن تجعل رجلاً من المحابيس الجدد يبكى كالنساء، ويقول أنا امرأة، فأخبره أن عياله مات منهم اثنان، وأن زوجته طلبت الطلاق منه وتزوجت، وإذ ينزل الليل تطلع الوطاويط ويسمع صوت أجنحتها، وعندما تصطدم بالجدران، وأراها تأكل النبق المختطف من شجرة قريبة، وساعات يصرخ المحابيس من أسفل وتتبعث رائحة كريهة مهولة تهب فى أحايين كثيرة فجأة، ويكاد السجانة يهجون على رءوسهم لفظاعتها، ولم يعرف سبب ذلك.

جاءنى سجان كبير وأخبرنى أن الأمير أرسل جملة محابيس لإيداعهم عندنا، قلت كم عددهم؟ قال أربعون، وقفت عند حافة السور وأنا أتحرق شوقًا لرؤية المحابيس الجدد، إننى لا أعرف من يجئ إلى المقشرة إلا بعد تسلمى له، ومن يدرى، ربما كان أحد الأمراء، ربما الأمير الدوادار أو أتابيك العساكر نفسه، لا يعلو إنسان فى بر مصر والعرب والعجم على المقشرة.

سألت: متى يصل الوارد الجديد؟

قال: بعد ساعة زمن.

قلت: ألم تعرف بعد من هم؟

قال: إنهم فلاحون.. هززت رأسى بلا اهتمام، هذا شئ يثير القرف.

سألنى: أين نضعهم؟

قلت: فى القاعة الصغرى.

قال: الأربعون مرة واحدة!

قلت: نعم.

كل منهم كالعود البوص أو عصا الخيزران، ثيابهم مقطعة، أيديهم مربوطة إلى بعضها، عيونهم جاحظة كأنهم زجوا إلى يوم الحشر، لا تعلو منهم همهمات أو أصوات، سألت واحداً منهم ماذا فعلت؟ طلع صوته متحشرجاً غليظاً، والله لم أجن ذنباً، ولم ينكسر على درهم واحد من مال السلطان، صفعت آخر على قفاه وتلقى الصفعة بهدوء كأنه يقول، اضرب غيرها ورجعنى إلى امرأتى وعيالى، جاءوا بنا على أننا عربان يا سيدنا، ما قدروا يمسكوا عربياً واحداً من أهل الجبل، فأمسكونا نحن حتى يقولوا للسلطان، انظر أحضرنا لك أربعين عاصياً، سألنى فجأة شاب عيناه واسعتان: كم سأقضى فى الحبوس؟ إذا قدر لرقبتك ألا تقطع فربما تقضى عندنا تسعين عاماً، لن تخرج إلا إذا أمر السلطان بذلك، همس الفلاح العجوز، والله يا أمير ما عملنا شيئاً، ضربه سجان كبير على وجهه، ونزل الصمت فوق الجميع كالمصيبة.

طائر المساء الحزين

جاء من بلده الأردن ليعتقل فى مصر فى زمن "عبد الناصر"، ويطرد فى زمن "السادات"، ويموت فى دمشق، ليعود مرة أخرى إلى مسقط رأسه فى تابوت، ثم عادت كتبه الممنوعة بعد سنوات يقرؤها الناس.

عاش غريباً ومات غريباً، ولكننى أحسب أن أحلى سنوات عمره هى التى عاشها فى القاهرة مع رفاق الستينيات، بما فى ذلك شهور معتقل طرة.

أحبه الجميع، وكانوا يداعبونه باسم الخواجة، ويرون السجن جميلاً بليالى الخواجة فى المعتقل، استمر على ولائه ومشاركته فى نضال الشعب المصرى، وسعى للتعرف على زعماء الحركة الطلابية، التى بدأت فى أعقاب نكسة يونيو، واشتعلت فى بداية السبعينيات، ومنهم أحمد بهاء الدين شعبان، وزين العابدين فؤاد، وسهام صبرى، وسمير غطاس.

وفى عام ١٩٧٦ وبسبب إدارته ندوة عن العلاقات العربية - الأمريكية طرد "غالب هلسا" من مصر بعد عشرين سنة نفيًا من المنفى الذى أحبه إلى حد العشق إلى بيروت.

كان أسلوب الترحيل فى عهد السادات أن يتم دون أن يسمح للمعتقل المرحل بأخذ شئ من حاجياته، انتقل من التحفظ عليه فى أمن الدولة إلى سجن القناطر الخيرية، ثم إلى سجن الترحيلات فى قسم الخليفة، ثم إلى سجن المطار.

لم يكن كاتباً كالآخرين فهو الأردنى الذى يتحدث بلهجة "مصرية " والأديب الذى تؤنسه لغة السياسة، والكهل الذى لم يتخل يوماً عن طفولته، رواياته، حياته، وبطله كان ظلاله، يكتب "فيصل دراج" فى مجلة الوسط عن الرجل الذى كان يكره الأماكن الضيقة، المبدع الذى أحب بغداد، وأخلص للقاهرة، واستظلل بيروت، ومات فى دمشق وعمره سبع وخمسون سنة، وقد كان يتفاءل بأن جده توفى عن مائة وخمسة أعوام، بقى جثمانه على حدود الأردن حتى أفرجوا عنه، وسمحوا بدخوله ليدفن فى قريته "معان".

بقيت أعماله الأدبية، واهتم النقاد بدراستها، واشتهرت روايتا «الخماسين» و«البكاء على الأطلال»، وأطلقوا عليه اسم "طائر المساء الحزين " الذى يكتب بمنطق حلم اليقظة، وقد تنبأ بانهيار اليسار والحب، كان أيضاً عاشقاً للمرأة.

أما آخر رواياته " الروائيون"، فقد أثارت جدلاً فى الأوساط الأدبية لصراحتها وحكايتها التى تشير إلى أسماء وحكايات وقسوته فى النقد الجارح، هل كان يعرف أنها الأخيرة؟!

انهزمنا فى ١٩٦٧، بينما كانت سامية صادق تذيع برنامج ربات البيوت، تشرح طريقة عمل "دقية البامية"، عندما توقف الإرسال فجأة لينطلق من الراديو "مارش عسكرى"، وصوت المذيع: تم إسقاط أربعين طائرة للعدو، ثم تعود "دقية البامية".

قبل الهزيمة كان النظام الحاكم قائماً على معاداة الشعب وفتح أبواب المعتقلات للإخوان وللشيوعيين، وأحياناً يعتقل الشخص الواحد نفسه بالتهمتين معاً.

غضب اليسار المصرى من "الروائيون" لغالب هلسا بعد أن حلوا أحزابهم ليصبحوا أعضاء فى الاتحاد الاشتراكى، تنظيم الحكومة، وكانت نهاية "زينب" الغرق فى ملذات الجنس مع كل الرجال الرفاق وضباط المباحث والسياح، "وإيهاب " مات منتحراً، والجيش انهزم ومات المؤلف بعدها.

الطوق والأسورة

كان يحيى الطاهر الغائب الحاضر الأصغر سناً، وكاتب قصة مبشرة بمستقبل رائع، تميز بأنه يحفظ قصصه القصيرة عن ظهر قلب، ويسمعها للحاضرين قبل أن يجد فرصة للنشر، آخر من ألقى القبض عليه، فتصوروا أنه الزعيم، مع أنه غلبان مثلنا جميعاً، مجرد طول لسان، وكان شعراوى جمعة يتحجج دائماً بأن رأس التنظيم حر طليق هارب، يقصد يحيى الطاهر عبدالله، عرفه الناس فيما بعد، بعد أن شاهدوا فيلم " الطوق والأسورة " للمخرج خيرى بشارة المأخوذ عن قصة كتبها يحيى، ومات دون أن يشاهدها .. أما نهايته فكانت مأساوية على طريق القاهرة - الواحات يوم ٩ أبريل ١٩٨١، انفتح باب السيارة ووقع يحيى الطاهر عبدالله فأصيب بكسر فى قاع الجمجمة.

مات الطاووس المشاغب أمير الحكى، ونديم الحى، الغماز، اللماز، الهجاء، الغضوب، المتشاجر مع ذباب وجهه، طفل البرارى، ابن الموت، الذى عاش دنياه دائماً كأنه يموت غداً.

ألا يأتى على هذا الوطن يوم نجد أمامنا خياراً رابعاً غير الموت أو الهجرة أو الزنازين؟!

يقول عن نفسه: عشقت الناس والقص والخمر وبعض النساء، ورفضت أن أكون إلا ما اخترت؛ لذلك لم أجد شقة ولم أملك سيارة ولم يدخل على الطائرة سوى نعش.

دفن فى قريته الكرنك بالأقصر، ولم يكن قد بلغ الثالثة والأربعين من عمره، ولكنه ترك لنا ابنة، وأكثر من قصة ورواية «أنا وهى وزهور المعالم »، و«ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالاً» و«حكايات للأمير حتى ينام».

من الاعتقال إلى الفصل

تمر السنوات ولا ننسى، قد نغفر
لعنة الله على حكم الفرد والعسكر والذئاب
مات عبدالناصر فبكيناه، وتنفسنا الصعداء

ذات مساء، كنت مسئولاً عن إصدار "الجمهورية " نجلس على "الدسك" ويرأسنا الضابط الصحفي الوطنى "مصطفى بهجت بدوى"، نحاول كل ليلة أن نصدر صحيفة أقل كذباً فى ظل عصر "السادات "، الذى تلبدت فيه غيوم الغموض.

استأذن "مصطفى بيه"، كما كنا نسميه، لحضور اجتماع طارئ عاجل دعا إليه وزير الإعلام وقتها الدكتور "عبد القادر حاتم "، كان هناك جميع رؤساء التحرير، عاد مهموماً متوتراً وهمس فى أذنى بأن أخباراً مهمة متوقعة بين لحظة وأخرى مطلوب إبرازها وهو لا يعرف على وجه التحديد من هم المثقفون والكتاب والصحفيون الذين سوف يطاح بهم، بفصلهم من عضوية الاتحاد الاشتراكى التى كانت شرطاً لاستمرار عملهم؟

قلت له جاداً ومخففاً من قلقه: أنا أول واحد فيهم.

جاءنا على غير العادة فى المساء الصديق "عبدالحميد حمروش " المدير

العام المهموم بالشأن العام، وكان عضواً نشطاً فى التنظيم الطليعى أيام عبدالناصر، يبدو أنه سمع أيضاً أخباراً عن فصل الصحفيين.

دقت أجراس ماكينة وكالة أنباء الشرق الأوسط التى تتبه لخبر مهم، أسرعنا وتزاحمنا نقرأ الأسماء حتى ورد اسمى، قلت أنا أهه، استنكر حمروش ومصطفى بهجت والآخرون:

"ياشيخ"، أكدت لهم فأنا أدرى به: " محمد جاد الحق محمد العزبى "، ضللتهم " جاد الحق " !!

كانت القائمة الأولى نشرتها بنفسى على الصفحة الأولى، وقد تبعتها قوائم أخرى رُئى أن تكون نقلاً إلى مؤسسات أخرى، أهمها مصلحة الاستعلامات، لنا شرف الفصل ولهم الخزى.

أسماء الدفعة الأولى

فيليب جلاب - محمد عودة - حسين عبدالرازق - مصطفى نبيل - كمال سعد - محمود المراغى - يوسف إدريس - عادل حسين - أحمد عبدالمعطى حجازى- فريدة النقاش - مكرم محمد أحمد - سمير تادروس - الأمير العطار - صلاح عيسى- صافيناز كاظم -مصطفى الحسينى - محمد العزبى - أمير إسكندر - سعيد حبيب - نبيل زكى - محسن الخياط - فتحى عبدالفتاح - جمال الغيطانى - شوقى مصطفى - أسعد حسنى - فاروق الطويل - زيد شريف - الإمام الجميعى - محسنة توفيق - سامى السلامونى - على عبدالخالق - صلاح السعدنى- عدلى فخرى - فؤاد التهامى - رجاء الميرغنى - أحمد فواد نجم - على الراعى - محمود أمين العالم - ألفريد فرج - أمل دنقل - إبراهيم منصور - لويس عوض - زكى مراد - عبدالله الزغبى - يوسف درويش - حامد الأزهرى - نبيل الهلالى - عادل أمين - عبدالمحسن شاشة - عادل كامل - سعد حماد - جلال رجب - عبدالعظيم الجزار - محمد علوان - لوقا جرجس - رشوان فهمى - على نويجى - د. مصطفى الشماع - عبدالمحسن حمودة - عبدالرحمن شوقى- نزيه أمين - عبدالرازق عبدالعال - بديع الشرملى - سمير عبدالباقى.

وتبع نشر هذه القائمة قائمة أخرى نشرت فى ٧ فبراير ١٩٧٣ تضمنت

قراراً بفصل ١٦ عضواً آخرين، كان من بينهم ٧ كتاب وصحفيين هم لطفى الخولى - وثروت أباظة - وبهيج نصار - وابتسام الهوارى - وأمينة شفيق - وميشيل كامل - وخيرى عزيز.

تقول الديباحة:

وبعد ذكر الأسماء تنبه اللجنة أو الصحيفة أو وزارة الإعلام فى صورة مذكرة تفسيرية صادرة عن الهيئة التى لم تجتمع طويلاً، وإنما "بصمت" وتضم عضويتها رجالاً غلبوا على أمرهم مثل الدكتور كمال أبوالمجد وآخرين من صغار رجال السادات يحركهم متحمساً أمين التنظيم محمد إسماعيل، والذى أصبح محافظاً لأسيوط، وقيل إنه عراب تقوية شوكة الإسلاميين لضرب الناصريين واليساريين، فكانت بداية نهاية حقبة من نظام ثورة يوليو باغتيال الرئيس أنور السادات على يد النمور التى تربت فى ظل الرئاسة وغباء الدببة.

تقول المذكرة التفسيرية: إنه من المعروف أن الفصل من العضوية العاملة للاتحاد الاشتراكى يترتب عليه إسقاط عضوية أى تنظيم نقابى أو مجلس إدارة وحدة اتحاد اشتراكى أو أى مستوى من مستويات التنظيمات السياسية المساعدة، كما يترتب عليه إبعاده عن أى عمل تكون العضوية العاملة شرط لممارسته مثل الصحفيين، وذلك حسب قانون نقابة الصحفيين، ولا يجوز تبعاً لذلك أن يعتبر صحفياً لأن ممارسة العمل الصحفى تشترط أن يكون عضواً عاملاً بالاتحاد الاشتراكى على أن تسوى حالته فى المؤسسة الصحفية التابع لها ويحال إلى المعاش.

واللجنة "هيئة النظام" فى حالة انعقاد مستمر للنظر فى سائر الحالات فى التنظيم السياسى والتنظيمات المساعدة.

حتى أحمد بهاء الدين!

يقول أحمد بهاء الدين فى كتابه "محاورات مع السادات": إن الأستاذ محمد حسنين هيكل زاره فى منزله فجأة قبيل منتصف الليل يبلغه بالقرار، ويعرف تفاصيل ما دار فيما سمى "بلجنة النظام" فى الاتحاد الاشتراكى التى كانت ترسل لها الكشوف من الرئاسة لتصدر قرارات الطرد، وكيف كانوا يتحدثون

عن المطرودين، ويقسمونهم إلى فصائل وأنواع سياسية وأخلاقية غريبة، حتى أنهم لم يجدوا ما ينسبونه إلى عدد كبير من الشبان الصحفيين الذين عملوا معى فى فترات مختلفة فاختلقوا لهم الاتهامات، كما روى لى عضو اللجنة الوزير الأسبق الدكتور أحمد كمال أبوالمجد فيما بعد، وكان قد بذل أقصى جهده داخل اللجنة لتقويم هذا الأسلوب، ولكن رئيس اللجنة محمد عثمان إسماعيل (محافظ أسيوط بعد ذلك، ومن أقرب المقربين للسادات)، كان ينهى كل جدل أن هذه أوامر الرئيس شخصياً.

وكنت وقتها رئيساً منتخباً لاتحاد الصحفيين العرب، وهو الاتحاد الذى يضم كل نقابات الصحفيين فى البلاد العربية، وطلبت نقابات عربية كثيرة عقد اجتماع طارئ للاتحاد لمناقشة هذه القرارات والتنديد بها والبحث فى إجراءات تتخذ ضدها، ووجدت أننى ملزم بدعوة اللجنة التنفيذية للاتحاد إلى الاجتماع الطارئ.

ولكنها لو انعقدت خارج القاهرة، كما طلبت النقابات العربية، فسوف تكون الحملة على مصر وعلى السادات قاسية جداً، ولا يمكن أن نتوقع ما قد يصدر من قرارت، ففاجأتهم بتوجيه الدعوة للانعقاد فى آخر مكان خطر على بالهم وهو القاهرة.

وفى الاجتماعات التى عقدت برئاستى، وأنا أحد المفصولين، فى إحدى قاعات فندق شيراتون الجيزة، بذلت جهداً جباراً لإقناع النقباء العرب بعدم اتخاذ أى قرار، وترك الأمر للنقابة المصرية فترة من الزمن تحاول فيه حل الأزمة بطريقتها، لأن البلاد تمر فعلاً بظروف حرجة، فإذا فشلنا فسوف ندعوهم إلى اجتماع جديد، وكان موقفى هذا محل موافقة الأقلية من الصحفيين المصريين ومحل انتقاد أغلبيتهم، ولكن هذا ما قدرت وقتها أنه التصرف السليم.

فى خلال مظاهرات الطلبة والعمال سنتى ١٩٧١، ١٩٧٢.. انتشرت دعوة بين عدد من الصحفيين لكتابة بيان باسم الكتاب والصحفيين، ووافق الأستاذ توفيق الحكيم متحمساً على أن يتولى كتابة هذه الرسالة أو هذا البيان ووقع عليه بالفعل ما يقرب من مائة صحفى، وكانت به فقرة لم ينسها السادات أبداً لتوفيق الحكيم بعد سنوات طويلة، كما سمعت منه وهى فقرة تقول: "لقد

كثر الكلام عن المعركة دون معركة حتى صارت المعركة مضغة فى حلوقنا لا نستطيع أن نبتلعها، ولا نستطيع أن نلفظها"، وكان الرئيس السادات بعد ذلك بسنوات طويلة، إذا جاء ذكر تلك الأيام قال لى: هذا المخرف العجوز توفيق الحكيم الذى لا أعرف ماذا يعجبكم فيه، أليس هو الذى قال إن المعركة مضغة لا نستطيع أن نبتلعها ولا نستطيع أن نلفظها؟

جرى إرسال هذه الرسالة وعليها نحو مائة توقيع من الكتاب والصحفيين.. وقد كنت بالطبع مؤيداً لها، ورغم أننى لم أوقعها لمرضى بأنفلونزا شديدة فى ذلك الوقت وبدأت الصحف تنشر أسماء الذين وقعوا على الرسالة على دفعات مع قرارات بنقلهم من الصحف إلى مصلحة الاستعلامات، ولم يكن هذا فى رأيى هو المهم، ولكن الذى آلمنى حقاً أن الصحف كانت تنشر أسماء أبرز وألمع كتابنا مقرونة بصفات العملاء والخونة وما إلى ذلك من صفات.

ولم أكن من بينهم، ولكننى ذهبت إلى الأستاذ هيكل وقلت له من المستحيل أن يحدث هذا دون أن يصدر عنا أى صوت بالاحتجاج، وقال لى هيكل ألا تعرف أن هناك رقابة على الصحف؟ وأين الرقيب الذى سيسمح بنشر احتجاجاتك؟ قلت له: أنا لا أريد أن أتخذ موقفاً بطولياً ويشطبه الرقيب، ولكننى أريد أن أكتب مقالاً عقلانياً وهادئاً جداً، فيه معنى الاحتجاج ولكن فيه أساس فتح باب لتضميد الجراح.

وقال لى هيكل: أكتب كما تريد وسنرى رد فعل الرقيب.

كتبت مقالاً بعنوان " محايد" - وهو بدلاً من " العنف المتبادل " - وكنت مسافراً فى الساعة الخامسة صباحاً إلى لندن لإلقاء ثلاث محاضرات في كلية سانت أنطونى بجامعة أكسفورد، لكن فى الساعة الحادية عشرة ليلاً وأنا أحزم حقائبى، دق الباب ووجدت هيكل واثنين أو ثلاثة من الزملاء، وقال لى هيكل الخبر على دفعتين، قال لى أولاً إن المقال شطبه الرقيب.. وبعد قليل قال لى إنه صدر قرار من الرئيس بنقلى أنا أيضاً إلى مصلحة الاستعلامات.

كان رد فعلى الأول أننى اتصلت بالمطار لألغى سفرى إلى لندن، مشاركة للمعاقبين المذنبين، وقلت إننى لن أقوم بالإجراء الشكلى، وهو التوقيع على إقرار بتسلمى العمل فى مصلحة الاستعلامات، وسأعتبر نفسى مفصولاً.

مطلوب عملاء مباحث أولاد ناس!

ويعود بهاء الدين إلى ذكرياته فى دار الهلال التى كان يرأس مجلس إدارتها ويقول:

تذكرت أن السيدة سكينة السادات التى كانت على علاقة طيبة بى خلال عملى رئيساً لدار الهلال قد جاءتنى فى اليوم التالى مباشرة لإعلان انتخاب أنور السادات رئيساً للجمهورية، وقدمت لى طلباً أن أعينها مديرة لتحرير مجلة المصور، وقلت لها وقتها بروح طيبة: إننى أعلم أنه، وقد أصبح أخوك رئيساً للجمهورية، فمن طبائع الأمور أن ينعكس هذا على وضعك بصورة أو بأخرى، أقترح أن تتركى هذا لى فى الوقت المناسب، ولكن من المستحيل أن أعينك مديرة لتحرير مجلة المصور، وأتخطى الزملاء الأقدم منك والذين يرأسونك فى العمل، وأنت بدون شهادة جامعية، وأن يتم هذا فى اليوم التالى لانتخاب أخيك رئيساً للجمهورية، ودهشت حين وجدتها لا تقبل هذا المنطق البسيط، وإنما تجادلنى طويلاً فى إلحاح على طلبها، ووصلت إلى حد البكاء؛ متهمة إياى بأننى لم أنصفها أبداً وطيبت خاطرها، وقلت لها تأكدى أننى أعرف مصلحتك أكثر منك، وما تطالبين به يسئ إلى أنور السادات.

وجاءتنى السيدة أمينة السعيد يوماً وهى ترتجف من الغضب، وقالت لى: إن تصرفات سكينة السادات صارت لا تطاق، وإنها تجلس فى اجتماعات التحرير بين أعضاء أسرة مجلة حواء، وتقاطع المناقشة العادية أكثر من مرة وتقول: أبيه أنور رأيه كذا وكيت.

واستدعيت السيدة سكينة السادات، ورويت لها ما يتحدث به زملاؤها، وقلت لها: أبيه أنور اسمه فى دار الهلال الرئيس أنور السادات، والرئيس أنور السادات لا يرسل بتعليماته عن طريقك، ولكنه إذا كان لديه تعليمات فإنه سيبلغها للدار عن طريقى كرئيس لمجلس الإدارة، وأنت تعرفين علاقتى بالرئيس، وإذا تكرر هذا منك فإننى لن أفعل إلا أن أشكوك إلى الرئيس شخصياً، وتوتر الموقف بيننا ذلك اليوم إلى الدرجة التى جلعتنى أقول لها: أرجو ألا أراك فى مكتبى هذا بعد الآن، ولا تضطرينى إلى أن أعطى تعليمات للسكرتارية بمنعك من الدخول، فتخرج هذه الحكايات إلى المؤسسة كلها.

وبعد بضعة أسابيع اتصل بى السيد ضياء الدين داود، الذى كان فى ذلك الوقت عضواً فى اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى، وطلب إلىّ أن أمر عليه فى مكتبه لأمر مهم، وكانت هذه أول مرة أتعرف فيها شخصياً على السيد ضياء الدين داود، وقدم لى خطاباً مكتوباً على الآلة الكاتبة وعليه توقيع أنور السادات بخط يده، الخطاب الموجه للسيد ضياء الدين داود، يقول إن الرئيس علم أننى منحت أخته السيدة سكينة السادات علاوة قدرها أربعون جنيهاً فى الشهر بدون مبرر، وأنه سمع أننى فعلت هذا لأسئ إلى الرئيس، وأؤلب عليه العاملين فى دار الهلال، ثم يطلب الخطاب إلى السيد ضياء الدين داود أن يسألنى فى هذا الموضوع.

كان هذا الخطاب مفاجأة تامة بالنسبة لى لعدة أسباب:

فقد كنت متصوراً أن العلاقة التى بين أنور السادات وبينى تسمح بأن يرفع التليفون ويسألنى مباشرة أو يلومنى على أى تصرف يصل إلى سمعه دون حاجة إلى هذا الخطاب الرسمى الذى يكاد يكون طلباً للتحقيق معى، ثم إن الموضوع خاص بالسيدة أخته، وبالتالى فمن السهل عليه أيضاً أن يعرف الحقيقة من أخته، بدلاً من أن يكتب فيه خطاباً رسمياً إلى عضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى، ذلك أن ما جاء فى خطاب السادات لم يكن له أى أساس من الصحة!

قلت ذلك للسيد ضياء الدين داود، وقلت له إنه فى آخر حركة علاوات فى دار الهلال نالت السيدة سكينة الحد الأدنى من العلاوة وهو خمسة جنيهات، ولم تكن دهشته أقل من دهشتى.

وكان قد تكون فى دار الهلال "حزب صغير"، رأى فى تغيير رئاسة الدولة فرصة للوصول، وكان قادة هذا الحزب هم: الشاعر والأديب المرحوم صالح جودت، والصحفى المرحوم إبراهيم البعثى، والزميل الذى هاجر بعد ذلك إلى كندا الأستاذ شريف فام، والسيدة سكينة السادات.

شعرت على الفور أنه قد أصبح بينى وبين السادات بحر واسع، هل هذا ما تفعله السلطة وجماعات المنافقين بالعلاقات الوطيدة بهذه السرعة؟ وبدأت أتنبه وأنا أمارس عملى العادى فى رئاسة تحرير المصور فى مراجعة المقالات بعد أن تصبح "بروفات" إلى أشياء أراها عادية، وأقوم بحذفها إذا كان فيها تجاوز ما.

وكان المرحوم صالح جودت يصف فى مقالاته كل الكتاب الذين لا يحبهم بأنهم شيوعيون حمر، بمن فيهم زملاء يكتبون معه فى مجلة المصور نفسها، واستدعيته يوماً وقلت له: إننى إذا سمحت لك بأن تكتب على صفحات المجلة تتهم زملاءك بالشيوعية، فلابد أن أسمح لهم بأن يردوا عليك ويقولوا لك: يا عميل، ويسترجعوا أشعارك وأغانيك فى مدح فاروق، وبالتالى فأنا لن أسمح لا بهذا ولا بذاك، وحرية الكتابة الموضوعية مطلقة.

بالمرة أذكر ما كتبه أحمد بهاء الدين: قال لى ممدوح سالم ما معناه: إن كل التقارير التى تتلقاها أجهزة الأمن ضد الصحفيين يكتبها صحفيون منكم.

وقلت له: هذا طبيعى، فأدق التقارير عن الطلبة لابد أن يكتبها طلبة، وهكذا الشأن فى كل مجال، ونحن نعرف الصحفيين الذين يحترفون كتابة التقارير السرية لأجهزة الأمن ضد زملائهم، ولكنكم لو تحريتم عنهم قبل أن تأخذوا بكلامهم لعرفتم أنهم من أردأ نوعيات الصحفيين الفاشلين المملوءة قلوبهم بالضغينة ضد كل صحفى ناجح.

ورد علىّ ممدوح سالم رداً لا أنساه لطرافته وصدقه معاً، فقد قال لى على الفور: طبعاً ونحن نعرف ذلك، ولكن هل تتوقع من صحفى مستقيم حسن الأخلاق، ابن ناس، وناجح فى عمله، أن يكتب تقارير للمباحث نظير أجر؟ هات لى عشرة من هؤلاء ولو كانوا من متخرجى أوكسفورد، يرضون أن يكتبوا تقارير للمباحث، وسوف تستغنى المباحث فوراً عن النوعية التى تكتب التقارير عادة..

حديقة النقابة القديمة

يقول محمد أبو الحديد فى شهادته:

كنت أحد هؤلاء المفصولين، ضمن دفعة مارس.

لم تكن كلمة "فصل" أو "استبعاد" أو غير ذلك من الكلمات قد وردت فى القرارات التى فصلنا بمقتضاها، فقد احتال الخبراء والمستشارون المتمرسون فى هذه المسائل على الأمر بصيغة غاية فى البساطة.

كان القانون يمنع أى شخص من العمل بالصحافة والحصول على عضوية نقابة الصحفيين إلا بعد حصوله على ترخيص بذلك من "الاتحاد الاشتراكى" وهو التنظيم السياسى الوحيد والحاكم فى ذلك الوقت.

كل ما فعلوه أنهم، سحبوا الترخيص وفى خطاب من سطرين، أبلغوا كل مفصول بأنه تم سحب ترخيصه بالعمل فى الصحافة، ونقله إلى الهيئة العامة للاستعلامات، حتى يبدو الأمر أمام أى جهة محلية أو أجنبية، عادياً.

لكن، كان سحب الترخيص حقيقياً، وهو الذى تم تنفيذه على الفور.. فقد منعنا من دخول مؤسساتنا، ومن الكتابة فى صحفنا، وإن لم يمنعوا صرف مرتباتنا.

أما النقل إلى الهيئة العامة للاستعلامات، فقد كان وهمياً، وعلى الورق، ولم ينفذ قط حتى لمن كان لديه استعداد منا للامتثال له.

ولقد قالها لى صراحة رئيس هيئة الاستعلامات فى ذلك الوقت، الدكتور "يحيى عويس"، وكان أستاذاً بتجارة عين شمس، وتربطنى به صلة تسمح بالمصارحة:

- قرار نقلكم.. صورى.. وعملياً يستحيل تنفيذه..

استطرد:

- هل تتصور مثلاً أن يكون الأستاذ توفيق الحكيم أو أحمد بهاء الدين تحت رئاستى فى الهيئة؟!

إنها أسماء أكبر من أى كرسى وأى وظيفة.

كان السادات قد ضاق بمعارضيه

كانت هناك دعوات لمزيد من الحرية والديمقراطية، تترد فى أوساط الجامعات بين الطلبة وهيئات التدريس.. وعلى صفحات الصحف.. وفى بيانات تصدرها تجمعات مختلفة.

وكان السادات يجهز لحرب أكتوبر.. وهو لا يستطيع أن يعلن ذلك لأصحاب هذه الدعوات حتى يهدأوا.. بينما أصحاب هذه الدعوات لا يعلمون ما يعد له، ويتهمونه بالتراخى، ويطالبون بالحريات، ولذلك كان الحوار صعباً.. وفرصه ضئيلة.

تنعقد جمعية عمومية طارئة فى النقابة لمساندة المفصولين.. ولم تحتجب صحف احتجاجاً على الفصل.. ولا اعتصم أحد أو أضرب.. ولم تكن هناك فضائيات تنشر وتذيع.. ولا منظمات حقوق إنسان تتابع وتضغط.

كانت هناك جهود حثيثة يقوم بها نقيب الصحفيين فى ذلك الوقت، الكاتب والأديب عبد المنعم الصاوى، بحكمته وهدوئه المعهودين، وقدرته على التفاوض دون التفريط فى أى مبدأ.

وكان يقوم بذلك فى أجواء غير مواتية.. فبعض كبار الكتاب والصحفيين كانوا يكتبون ضدنا، ويحرضون الدولة على مزيد من التنكيل بنا، وكأن الفصل لا يكفى.

وكان يقود حملات التحريض، صالح جودت فى مجلة "المصور"، وإبراهيم الوردانى وعلى الدالى فى "الجمهورية"، وثروت أباظة فى "الأهرام"، وموسى صبرى فى "الأخبار".

وخلت الساحة من أى مساندين، فيما عدا بضعة أصوات عاقلة تناشد الرئيس السادات إعادة النظر فى قراره، وكان على رأسها عبدالرحمن الشرقاوى فى "روزاليوسف"، و مصطفى بهجت بدوى فى "الجمهورية".

أما العبء الأكبر فى محاولات حل مشكلتنا.. فتحملناه وحدنا.

كنا نلتقى صباح كل يوم فى حديقة مبنى النقابة القديم لنضع خطط التحرك والاتصال بالمسئولين، وكانت حديقة النقابة هى المكان الصحفى الوحيد المسموح لنا بالوجود فيه، والتفكير، والحديث، وكانت مؤسساتنا تبعث

إلينا أول كل شهر بـ"الصرافين"على حديقة النقابة لتسليمنا مرتباتنا، وكنا نقسم أنفسنا إلى وفود ومجموعات، تتجه كل منها لمقابلة أحد المسئولين للاستفسار منه عن سبب فصلنا .. وحيثياته .. وما هى الاتهامات الموجهة إلينا حتى نرد عليها.

ولم يكن لدى أحد ممن التقيناهم إجابة عن أى سؤال من أسئلتنا.

كان أحد الذين التقيناهم، الدبلوماسى القدير الدكتور أشرف غربال، وكان السادات قد عينه مستشاراً صحفياً لرئيس الجمهورية.

وأذكر تعليقه الهادئ الطريف على انفعالنا، ونحن لا نجد منه رداً على أسئلتنا .. فقد قال:

- أنا مجرد ماسورة..!

واستطرد:

مهمتى أن أنقل إلى الرئيس ما تقولونه، وأنقل عنه - إن شاء - إليكم، لكنى لا أملك الآن ردوداً .. ولست صاحب قرار.

بقينا على هذا الحال سبعة شهور..

صمد منا من صمد.

ويئس من يئس.. وهاجر البعض إلى لندن وباريس وبغداد، واستقروا فيها وعملوا بصحافتها.

حتى كان يوم الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٧٣.

ألقى الرئيس السادات خطاباً فى ذكرى وفاة الرئيس عبد الناصر، أعلن فى نهايته قراراً بعودة الصحفيين المفصولين إلى مؤسساتهم.

وعدنا غير مصدقين.

وبعدها بأسبوع.. قامت حرب أكتوبر.

أساتذة كتابة التقارير

زمان كانت لعنة وسُبَّة أن تتهم أحداً بأنه يتجسس على زملائه، ويعمل لحساب أى جهاز أمن ورقابة، وما أكثرها فى بلادى، متطوعاً، أو حتى يتقى الشر، وربما أملاً فى خير يأتيه، خصوصاً أن رأى الأمن ضرورى عند الترقى.

مضى هذا الزمن بعد أن أصبحت كتابة التقارير عادية وعلنية لا يحتاج أصحابها لضغط أو إغراء، ليقوموا بالمهمة، بل أصبحت المشكلة هى انتشارها وقلة ذمتها.

وأصبحنا لا نسأل رد القضاء، وإنما اللطف فيه، بالصدق وقليل من الأخلاق!

كان لنا زميل اشتهر بكتابة التقارير، ولم يكن يخفى الأمر، بل يفخر به أو يهدد.

جاء يوماً يقول علناً إنه أبلغ عن أحد رؤساء التحرير بما يفيد تعاطفه مع الجماعات الإسلامية، ولما كان الرجل المشكو فى حقه أبعد ما يكون عن هذا الاتهام بأفكاره وسلوكه، فقد ابتسم واحد من المستمعين وقال: يا شيخ؟!

أجاب الزميل: ما أنا عارف، بس دى التهمة الماشية هذه الأيام!!

وكنت فى زيارة لبلد عربى شقيق، كان قد سبقنى إليه العالم العظيم "

أحمد زويل "، وألقى محاضرة، والتقى بعدد من المصريين هناك، حيث روى لى صديق كان يعمل مديراً لأحد مكاتبنا فى البلد العربى قصة غاية فى الغرابة، إذ تلقى تليفونا من القاهرة بعد منتصف الليل يسأل فيه المتحدث وهو مسئول كبير: هل حقاً أساء زويل لمصر؟..

جاءت الإجابة فورية: لم يحدث، بل على العكس، فعلى الرغم من صراحته فلم يقل كلمة واحدة تحتمل الإساءة لبلده الذى يعتز به.

وهل كنت حاضراً اللقاء بنفسك؟

من أول كلمة حتى آخرها وسجلته حرفياً.

أرجو أن تبحث كل التفاصيل على الفاكس الخاص بمكتبى، وفى دقائق اتضح أن مديراً آخر لأحد مكاتبنا فى العاصمة العربية نفسها سبق وأسرع وبادر بإرسال تقرير مختلف تماماً وكاذب ومثير عما قاله " أحمد زويل "، وحسنا أن اهتم المسئول المصرى بتحرى الأمر.

بعدها جاء العالم الكبير إلى القاهرة، واستقبله السيد الرئيس (السابق)، ولفت نظر زويل ما قاله مبارك "ربنا كتب لك الخير "!

لم يفهم زويل ما وراء تلك العبارة، فلم يكن يعرف أن تقريرًا سبق عن محاضرة ألقاها فى الكويت قبل مجيئه لمصر، تنقل عنه هجومه على النظام على غير الحقيقة.. أنقذه أن تقريرًا آخر جاء من الكويت برأ ساحته استناداً إلى النص الكامل للمحاضرة محل الوشاية.

تذكرت قصصاً كثيرة مشابهة، وأنا أقرأ ضمن مختلف تفسيرات خروج الدكتور "محمود أبو زيد" من الوزارة أن تقريراً على مستوى، تناول سياسة الوزير السابق، واتهمه بالتقصير، وقدم البديل، ويقال إنه للحق تقرير علمى فنى ظاهره النصيحة والإنقاذ، أما باطنه فالله أعلم وإن جاء سره باتعاً وسريعاً.

حكاية مشابهة عن تقرير شفوى أطاح بالدكتور " كمال الجنزورى" رئيس الوزراء عن لومه وتأنيبه للوزراء الذين لم يذهبوا لاستقباله فى مطار القاهرة عائداً من رحلة له خارجها.

لم يكن الحادث أو اللوم أو التقرير هو المشكلة، وإنما الطريقة والتوقيت والكلمات التى اختيرت للإبلاغ.

أحياناً أصدق، وأحياناً لا أصدق، ولكن كتابة التقارير بالحق وبالباطل، أصبحت أمراً شائعاً، وأخشى أن أقول مقبولاً مفروضاً.!!

نال الدكتور حمادة حسنى درجة الدكتوراه فى التاريخ يرصد فيها التنظيم الطليعى والتقارير التى كانت تقدم ومضمون ونص تلك التقارير الخطيرة أحياناً شديدة التفاهة، وأحياناً أكثر من باريس، حيث بعثات الطلبة المصريين، وأخرى من داخل المؤسسات الصحفية وغيرها تتحدث عن نكتة سخيفة، أو عن زيارة عبد الحليم لأم كلثوم، أو عن عبارة مدونة داخل أتوبيس خط ٤٠ نقل عام!!!

وقد ذكر د. حسنى فى رسالته للدكتوراة نماذج كثيرة لمثل تلك التقارير.

وقررت هيئة النظام بالاتحاد الاشتراكى إسقاط العضوية العاملة عن ٦٤ ممن أخلوا بواجباتهم كأعضاء عاملين بالتنظيم السياسى، واشتركوا فى إثارة الجماهير بالأكاذيب والإشاعات والتحريض ضد الوحدة الوطنية.

وقد وضعت هيئة النظام فى اعتبارها أن عدداً من هؤلاء يتولون أعمالاً حساسة فى مواقع مسئولية مهمة تفرض الالتزام بمواثيق الثورة والحرص على دعم الوحدة الوطنية، خاصة فى مواقع إعلامية مثل المؤسسات الصحفية أو الإذاعة والتليفزيون، وقد حاولوا عن عمد وإصرار استغلال النقابات التى ينتمون إليها لإشاعة الفوضى، وتقويض المبادئ الديمقراطية، وتشويه عمل المؤسسات الدستورية.

ويترتب على إسقاط عضوية الاتحاد الاشتراكى عن هؤلاء إبعادهم عن أعمالهم فى المؤسسات الصحفية وغيرها، وتسوية حالتهم وإحالتهم إلى المعاش.

وكانت هيئة النظام بالاتحاد الاشتراكى العربى قد اجتمعت برئاسة حافظ بدوى رئيس مجلس الشعب وعضوية محمد حامد محمود وأحمد عبد الآخر، والدكتور أحمد كمال أبو المجد، ويوسف مكادى وممثل أمانة التنظيم محمد إسماعيل، وقد استعرضت الهيئة فى اجتماعها التقارير السياسية التى قدمت إليها بالنسبة لعدد من أعضاء الاتحاد الاشتراكى العربى الذين أخلوا بواجباتهم الأساسية؛ كأعضاء عاملين بالتنظيم السياسى الذى يحقق تحالف قوى الشعب العاملة.

كما بحثت الهيئة كل التقارير التى تجمعت لدى لجنة تقصى الحقائق بمجلس الشعب خلال دراستها المستفيضة للأسباب التى أدت عن عمد وتدبير إلى المخطط الذى كان يعمل لإثارة الجماهير بالأكاذيب والإشاعات والتحريض ضد نظام الدولة وتحالف قوى الشعب العامل، وكان يشكك فى كل تصرف؛ بهدف إشاعة البلبلة وتشويه سمعة مصر سواء بإمداد الصحافة والإذاعات ووكالات الأنباء الأجنبية بمعلومات كاذبة، أو التوقيع على بيانات مضللة لكى تنشر فى الخارج بهدف إظهار البلاد وكأنها مهتزة بعدم الاستقرار والفوضى، وقد استغلوا فى ذلك الأجواء الديمقراطية التى حققتها حركة الجماهير فى ١٥ مايو لضرب الديمقراطية وأرادوا أن يحولوا مبدأ سيادة القانون إلى إرهاب فكرى وتحد لاحترام القانون وإهدار للحريات.

بعض ما عرفت.. ومن عرفت

ولدنا علاء

التهم ثقيلة بحيث يصعب تصديقها.. أحسب أنه سوف يخرج منها سالماً، إن لم يكن اليوم فغداً.

أصدقاؤه الذين عرفوه عن قرب ثائراً، حدثونا عنه برومانسية حببته إلى القلوب.. يكمل الصورة تقاطيع وجهه المتمردة وشعره الطويل.

شجاعته استمدها من أسرته.. فمن الذى يرى ابنه مقيداً بالأغلال خلف الأسوار ينتظر مصيراً مجهولاً ويقف إلى جانبه يشجعه على ما فعل بكل تلك القوة والإصرار سوى رجل مثل «أبى علاء» الناشط السياسى والحقوقى، والمحامى أحمد سيف الإسلام الذى أتيح لنا أيضاً أن نعرف قصته وسجنه هو الآخر!!

الطبيعى أن يجزع قلب الأب، وينصح الابن بالجنوح إلى السلم، وقد يستعطف السجان أن يفك أسره ويعيده إلى بيته.

تعبير عن الثورة والسياسة والقانون، رأيت علاء واحداً من أبنائى.

أمه «ليلى» لم تجزع وتستسلم للبكاء، وإنما أعلنت الإضراب عن الطعام، وانتقلت بموقفها وقضيتها من البيت إلى الجامعة حيث تعمل أستاذاً للرياضيات فى كلية العلوم.. لم يكن موقفها عاطفياً، بل ثورياً استمراراً لدورها الذى اختارته رفيقة لزوجها.. أسهمت بإيجابية فى حركة ٩ مارس

التى نادت باستقلال الجامعات وتحريرها من قبل الثورة، وتعرضت هى وزملاؤها العظام للاعتداء البدنى من بلطجية الحزب وبعض العمداء السائرين فى الركاب.

شارك فى الإضراب الناشر الوطنى محمد هاشم صاحب «ميريت»، والحائز منذ أيام على جائزة الحرية من نادى القلم الدولى بألمانيا.. والإعلامية الثائرة بثينة كامل وآخرون، مما جعلنى أحس بدفء يحيط بعلاء، فهؤلاء ليسوا من أهله وأقاربه.. يقولون: «عمر السجن ما غير فكرة، عمر القهر ما أخر بكرة».

قرأت لخالته الروائية «أهداف سويف»، وكان يقف حائلاً إلى حد ما أنها تكتب أساساً باللغة الإنجليزية؛ مما قد يؤثر على مقالاتها بعد ترجمتها - رغم وضوح فكرتها واستقامتها - حتى جاءت قضية علاء، فإذا بها تبدع بكل اللغات، واقرأوا مقالاتها الأخيرة فى جريدة «الشروق» عنوان إحداها «دى الثورة من جديد، جابها لنا علاء ع العيد».

والاثنتان ابنتا الأستاذين الجامعيين المعروفين مصطفى سويف «فلسفة»، وفاطمة موسى «لغة إنجليزية» بجامعة القاهرة، وأخته «منى» من مؤسسى مجموعة «لا للمحاكمات العسكرية»، من قبل أن يذهب إليها علاء، ولأنها مجموعة معظمها من السيدات، فإنهم يطلقون عليها اسم «نساء ضد العسكر»!

هكذا يبدو علاء قريباً منى حتى عرفت أن زوجته وشريكته فى الكفاح والمدونات هى «منال» ابنة الصديق القديم بهى الدين حسن الذى عمل معنا فى القسم الخارجى بجريدة «الجمهورية»، وكان من الكفاءة ودماثة الخلق والاستقامة ما جعل الكل يذكره رغم مرور سنوات طويلة على تفرغه لقضية أكبر هى الدفاع عن حقوق الإنسان.. هكذا أقول ولدى علاء.

«حمروش» العسكرى الاشتراكى

لن أنسى يوم كان يتلقى العزاء فى ابنه الوحيد.. لا بد أن قلبه ظل يبكيه ما بقى للأب من عمر.. ولكن أحمد حمروش ظل متماسكاً أمام الجميع، مواصلاً نشاطه السياسى والاجتماعى، مؤمناً بالدور الذى اختاره قبل أن يشارك فى ثورة يوليو.. أما الابن الدكتور علاء فقد كان شاباً واعداً، واحداً من زعماء حركة الطلاب والشعب.

عرفته بشكل خاص وغير مباشر فأحببته أكثر، إذ كان صديقا للراحل الشاعر الضابط العزيز مصطفى بهجت بدوى، أحضر جانباً من لقائهما عندما يأتى لزيارته بجريدة "الجمهورية"، وقد كان رئيساً لمجلس إدارتها.. ولم يكن "حمروش" غريباً عنها فقد عمل بها سنوات.

وبطريقة أخرى كنت أراه مع ابن شقيقته عبدالحميد حمروش - رحمهما الله - العضو المنتدب لدار التحرير. لقاء إنسانى فيه حب وحنان واحترام، لا يخلو كل مرة من ذكر قرية الخوالد بالبحيرة، مسقط رأسيهما، وارتبطا بها عملياً ووجدانيًا.

وبشكل عاطفى أحسست دون أن أعرف أو أسأل أن والدى كان صديقاً لفضيلة كبيرهم الشيخ إبراهيم الذى أصبح شيخا للأزهر، فالرجلان كانا فى فترة متقاربة أستاذين فى علوم الدين.

ظل "أحمد حمروش" مؤمناً بالاشتراكية وبحكم العسكر.. حتى آخر يوم فى حياته.. ولماذا لا يستمر المجلس العسكرى مادام يحظى بشعبية!

ومع أنه كان واحداً من طليعة "الضباط الأحرار"، ومقرباً من جمال عبدالناصر، فقد اعتقل فى بداية الثورة، وأحسب أنه تعرض لتعذيب نفسى أو بدنى دون أن يُوجه له اتهام.. كانت ثورة يوليو هى أول من وضع أسس الاعتقال والتعذيب الذى استمر مع تغير أوجه رؤسائها وحتى اليوم.

بعد أن أفرج عنه استقبله جمال عبدالناصر، ولم يسأله إلا عن منشورات أصدرتها منظمة «حدتو» الشيوعية؛ دفاعاً عنه، وهجوماً على العسكر، وقصيدة للشاعر كمال عبدالحليم.

لعب أدواراً سياسية مهمة، بعضها ظل سرياً حتى كشف عنه الستار.. أكثرها إثارة للجدل هى مفاوضات مع إسرائيليين فى باريس، دعوة مشتركة للسلام أيام عبدالناصر.. ساعده على ذلك علاقات "هنرى كورييل" اليهودى المصرى من منفاه فى باريس، وقد كان أحد مؤسسى الشيوعية رغم أسرته الثرية فى مصر.. وصداقة خاصة مع الصحفى الفرنسى المتخصص فى الشئون المصرية "إريك رولو" وقد أصبح أيضاً سفيراً فى تونس.. ومساعدة صحفيين وكتاب ومسرحيين إسرائيليين يدعون للسلام، وصولاً إلى زعيمهم «ناحوم جولدمان» الذى أراد زيارة القاهرة وأفشى السر قبل موعده فانهارت المفاوضات وتراجع عبدالناصر عن دعم الفكرة رغم أن فصائل من الشعب الإسرائيلى سارت فى مظاهرات بتل أبيب، تهتف: إلى القاهرة يا جولدمان.. إلى المطبخ يا مائير.. ولكن جولدا مائير ذهبت إلى الحرب ضد العرب!

عمل مديراً للمسرح القومى، فقدم أفضل أعماله فناً وفكراً.

وكان دائماً صحفياً وكاتباً غير مهامه الخاصة ودوره فى إقامة الجسور مع حكام السودان "جعفر نميرى"، وفيهم ضباط جيش، يساندهم أصدقاؤه فى الحزب الشيوعى السودانى غير مسئول عن خديعة السادات فى محاولته الثانية لاستقرار الأوضاع فى السودان، وكان فيها أيضاً نميرى بوجهه الآخر.

أما أهم ما يبقى منه فكتبه العديدة التى أصدرها من حرب العصابات وأسرار معركة بورسعيد إلى سنوات فى المسرح، ورحلاته من طوكيو إلى لندن، حتى تأريخه لثورة يوليو.. وخريف ناصر.. مجموعة كتب عظيمة يأخذ البعض عليها أنها تبالغ فى دور «حدتو» وفى دوره ضابطاً ويسارياً حتى سمَّاها الكاتب الساخر محمود السعدنى "ثورة ٢٣ حمروش"!!

إبراهيم عيسى

لم نحتفل كما يجب بالجائزة التى فاز بها إبراهيم عيسى، صحفى العام ٢٠١٠ .. هل هى الغيرة المهنية، أم السهو والنسيان، أم أنه لا وقت - ولا داعى - للاحتفال؟ مع أنها جاءت فى موعدها تقديراً لصحافة مصر كلها، واعترافاً بقدر مصر الثائرة.

اختارته نقابة الصحفيين البريطانيين بعد لجان تحكيم جادة وتدقيق يليق بقدر الجائزة التى تمنح كل عام لعدد من الصحفيين المتميزين فى مختلف الاختصاصات، وصولاً إلى اختيار جريدة واحدة على رأس صحف العالم كافة، وكانت هذا العام ٢٠١٠ «الجارديان» البريطانية لتغطيتها المتميزة بنشر وثائق «ويكيليكس» فأخذت عنها سائر الصحف، وأثارت اهتماماً وجدلاً واسع النطاق.

واختير إبراهيم عيسى صحفى العام لشجاعته ومواقفه ومقالاته والمستوى المهنى الذى سلكه فى تقويض النظام الفاسد، ومعاناته فى سبيل ذلك.

دخل السجن، وتآمروا على صحيفة «الدستور» التى كان يرأس تحريرها، وطاردته قضايا ملفقة وتصريحات من نوع الكشف عن مرتبه.. وكأنه قد كفر لأنه نشر أخباراً عن صحة رئيس الجمهورية محل اهتمام الجميع.. ثم إنه كاتب مقال «إنك ميت» وجهه لحسنى مبارك فى عام ٢٠٠٧، قبل سنوات من سقوطه .

كتب: «سأقول لك ما لم تقرأه من كتبتك ومداحيك وطبالى مواكب نفاق السلاطين ومصاحبيك على جناح طائرتك وعرشك .. أقول لك سيادة الرئيس إنك ميت وإنهم ميتون».

لم يكن ذلك أول عقاب له.. وقد لا يكون الأخير.

قرأت قبل سنوات روايته «مقتل الرجل الكبير» عما يدور فى قصر الرئاسة، عندما تقترب النهاية، فكتبت عنها، وتلقيت عتاباً ولوماً فى مكالمة الساعة الثامنة صباحاً.. وصودرت الرواية لتعود بعد الثورة وتلقى رواجاً.. ولكننى أعجب إذ أذكر من كل الأحداث الدرامية والمشاهد المثيرة حب الرئيس لأكل «الوز» المشوى.. أريد أن أجربه وأذوق طعمه وأسأل هل حقاً تلك هى الوجبة الرئاسية المفضلة أم أنها أحلام إبراهيم عيسى؟

تصفه - شكلاً - على صفحات الإنترنت فتاة لم تذكر اسمها: تقول جسم مكور، وش مدور، تظهر عليه خيرات الريف الذى ينتمى إليه.. نظارة سميكة، شارب أسود، يذكرك بصول «مخلة» وحمالات بنطلون مثل ممثلى زمان ومقدم البرامج الأمريكى الشهير «لارى كنج».

لم تذكر الأوزة المشوية، مازال أمرها سراً.. أما الباقى، فقد رأيناه جميعاً فى البرامج التليفزيونية التى قدمها على شاشات مختلفة، تعرضت هى الأخرى للمنع سواء كانت دينية أو سياسية أو من نوع «حمرا» على «موجة كوميدى».

عندما سأل الإعلامية الناشطة سياسياً بثينة كامل فى آخر الحلقة التى استضافها فيها: «تقولى حمرا لمين؟» أجابت أنا ست مؤدبة، وقد كان برنامج «اعترافات ليلية» الذى قدمته سنوات بنجاح ملتزما بالأصول؛ فهى أخلاقية زيادة عن اللزوم.

وحتى وهو ضيف على البرامج التليفزيونية الأخرى تعرض للمطاردة، وتدخل أحمد شفيق عندما كان رئيساً للوزراء لمنع إذاعة الجزء الثانى من «واحد من الناس» تقديم عمرو الليثى، وكان التدخل والمنع فجاً.

ومع كل ذلك فإن إبراهيم عيسى يحتفظ بروح مرحة.. عندما استضافه مجدى الجلاد ووائل الإبراشى فى البرنامج المشترك خلال شهر رمضان من

إنتاج الفنانة التشكيلية «شاليمار الشربتلى» عروس المخرج المشاغب خالد يوسف، ويظهر فيه شخصان يختلفان فكرياً وكان مقابل «إبراهيم» رئيس تحرير أخبار اليوم السابق «ممتاز القط».. سئل إبراهيم عيسى فى نهاية الحلقة: ماذا يقول للقط فى كلمة؟ أجاب: أقول له «نو.. نو»!

وفى مقال له عن التعديلات الدستورية الأخيرة، وما يجرى من ترقيع قانونى اختار عنوان «لا لبدلة أنور وجدى» وهى البدلة المبهدلة التى ظهر بها الفنان الراحل فى فيلم «دهب».

سبق أن نال إبراهيم عيسى جائزة تحمل اسم «جبران تويني» وهو صحفى لبنانى مرموق رئيس تحرير جريدة «النهار» التى أسسها والده «غسان تويني».. اغتيل بشحنة ناسفة فى سيارة مغلومة فى مدينته بيروت.

ثم جاءت جائزة صحفى العام العالمية تتويجاً لأعمال تستحق التقدير وتشجيعاً على استكمال المشوار فى صحيفة جديدة ومحطة تليفزيون، وتمسك بالدستور الأصلية تصدر إلكترونياً.. ومازال طريق المعاناة طويلاً.

وأسأل: لماذا لم يكن احتفاؤنا بالجائزة المرموقة لصحفى مصرى شجاع كما يجب، أيها الزملاء؟!

إمام «مكرم» الثائر

عاد "عمر مكرم" ثائراً مدافعاً عن الوطن.. قاد المقاومة ضد احتلال الفرنسيين.. فلما جلس محمد على باشا فى القلعة والياً على مصر.. كان أول ما فعل أن نفى "عمر مكرم"، وارتاح منه ومن الثورة.

ربما لم يكن الناس يذكرون الزعيم إلا فى كتب التاريخ لولا أن أطلق اسمه على أهم وأشهر مسجد فى قلب القاهرة يتنافس الجميع على أن يقام فيه عزاء أحبائهم.

هكذا أصبح عمر مكرم على كل لسان.

الشىء نفسه حدث لأديبنا الكبير عباس محمود العقاد، وزعيمنا الوطنى مصطفى النحاس، وثائر يوليو "صلاح سالم" ،وثائر ١٩٩٩ مكرم عبيد، وآخرون بقيت ذكراهم على ألسنة العامة بإطلاق أسمائهم على الشوارع، وعلى أشهر موقف سيارات "أحمد حلمى" الصحفى الشجاع جَد "صلاح جاهين"، حتى ولو لم يعرف العامة من هم!

"إمام جامع" عمر مكرم أفاد من ثورية صاحب الاسم الأصيل بمشاركته خطيباً فى ثورة التحرير.. يفتح أبواب المسجد لمن يحتاج الرعاية والحماية ويلهب المشاعر ويدفع الأذى.

آخر خطب الشيخ "مظهر شاهين" دعا فيها للتحقيق مع جميع الضباط

الذين وجدوا فى ميدان التحرير يوم المذبحة الثانية.. ويلوم المسئولين عن البطء فى محاكمات القتلة والتى انتهت فقط بأمين شرطة هارب.. ولماذا لا يضم الرئيس المخلوع إلى اللواءات والضباط والجنود الذين أطلقوا الرصاص على الثوار وقتلوا مئات الشهداء؟.. هذا أو نضطر لمحاكمة القتلة بأنفسنا وننصب المشانق.. أو ندخل فى اعتصام مفتوح.. ويقول إن المدرس الذى ضرب التلاميذ فى شريط فيديو أحيل للجنايات فى أيام، فلماذا جنرالات الموت فى الحبس الاحتياطى؟!

دعوته لأن يكون ميدان التحرير منطقة خضراء لا يدخلها شرطى بسلاح لقيت استهزاء من وزير الداخلية ورجال الأمن، وآخرون يتساءلون عن ألوان الميدان وهل هو اقتباس من الميدان الأحمر الشهير فى موسكو؟

هل الشيخ تابع لوزارة الأوقاف، أم للسلفيين، أم ثائر حر؟!

يقول: بعض الذين شربوا عصير الليمون بالمكاتب المكيفة، أصبحوا يتكلمون عن الثورة وحقوق الإنسان.. تحدثوا كيفما شئتم، ولكن باسمكم فقط، وليس بدماء الشهداء!

ويقولون له مكانك الطبيعى فى المسجد وليس الميدان.

فيرد: لن يستطيع أحد منعنا من النزول والتظاهر.. هددونا فى التليفونات، ويطلقون علينا الشائعات. وحاولوا الوقيعة بيننا مسلمين ومسيحيين.. وإذا كانوا هم "دياية" وعاوزين يضيعوا القضية، فأنا أقول لهم: الذئاب لا تأكل إلا الحيوانات الشاردة، ونحن لسنا كذلك، فشباب مصر أسود، والأسود لا تخشى الذئاب.

نموذج يختلف عن ذلك الداعية الأكثر شهرة الذى خرج على الثوار يطالبهم بالانصراف، فكادوا يفتكون به لولا أن احتمى بإمام مسجد عمر مكرم.. والرجل لا يكتفى بالكلمات الثائرة، وإنما يفتح الأبواب لكل ثائر أو مصاب يحتاج لحماية بيت الله.. وما زال نداؤه عندما اشتد الضرب لأسر الشهداء المحاصرين فى الميدان أن تعالوا إلى "عمر مكرم" ادخلوه بسلام آمنين.

أليس هذا أفضل من الخلاف على اختطاف المساجد والصراع المسلح على من يعتلى المنابر.. أكثر الله من أمثال الشيخ شاهين.

الحماقة.. من يداويها؟

ما حدث للصحفية «منى الطحاوى»، التى تكتب مقالاتها فى كبري الصحف الأمريكية «النيويورك تايمز»، ليس له أى منطق إلا إذا كان المقصود الإساءة لمصر.

لم تعد الواقعة خافية على العالم كله بوسائل الاتصال الفورية، وأولها «التويتر»، الذى أبلغت به «منى» الجميع فور إلقاء القبض عليها فى «ميدان التحرير».. وبالصور التى أظهرت آثار الضرب العنيف على ذراعيها الاثنتين فى ضمادات بيضاء.. يدها التى تكتب بها مقالاتها التى تدافع فيها عن الديمقراطية وحقوق الإنسان.. وقد كانت السبب فى منعها من الكتابة فى جريدة الشرق الأوسط قبل سنوات لحسابات خاصة بالحكام العرب.

قالوا لها: الزمى الصمت وتعالى معنا فى أدب.. ووضعوا غمامة على عينيها لتقضى اثنتى عشرة ساعة، تعرضت خلالها للضرب والإهانة والتحرش الجنسى.

لماذا التحرش الذى أصبح «عقيدة أمنية» لتعذيب الفتيات، وربما منحة لإسعاد الجنود فقد قام خمسة أو ستة منهم على الأقل بتلمس أجزاء حساسة من جسدها، قالت إنهم دسوا أيديهم داخل البنطلون!!.. وهو ماحدث أيضاً لأخريات.

استنكرت ما حدث كل صحف العالم تقريباً، وكذلك شخصيات سياسية،

مثل وزير خارجية السويد فى مشاركة على حسابه الخاص على «التويتر».. كما أبدى رئيس البرلمان الأوروبى، والمتحدثة باسم الخارجية البريطانية قلقها من اعتقال «منى الطحاوى».

لم تكن تحمل جواز سفرها «الأمريكى» عندما ألقوا القبض عليها قرب الفجر.. اشتباه يبرر التحقق، ولكنه لا يوجب العقاب.

ماذا لو لم تكن تحمل الصحفية المصرية أيضاً الجنسية الأمريكية، وهى وغيرها من الجنسيات الأجنبية خط أحمر، أتذكره عندما تعرض عدد من نزلاء فندق فى «الزعفرانة» للغرق، وكلما وقع حادث أتوبيس سياحى على طريق الغردقة، ويطلب أولاد الحلال النجدة فيأتيهم سؤال سخيف : «فيه خواجات واللا كله مصريين؟!».. إذا كان هناك أجنبى واحد قامت الدنيا على عجل، وإن كانوا مصريين يمكنهم أن ينتظروا، أو ما معناه بلاش وجع دماغ!

ماذا لو احتجزت وسئلت بقدر من الاحترام، وماذا يفيد التحرش والضرب بغير حساب إلا أن تصبح سيرتنا على كل لسان وسمعتنا فى الحضيض؟

عندما سأل مراسل النيويورك تايمز أحد ضباط الأمن برتبة عقيد، كانت إجابته : وماذا كانت تتوقع وهى بدون تحقيق شخصية، وبدون تصريح من المركز الصحفى فى هذا الوقت المتأخر من الليل وقت الاشتباكات فى الميدان.. ألم يكن من المحتمل أن تكون جاسوسة؟!

هل التحقق يأتى بدس أيدى رجال الأمن المركزى فى بنطلون الصحفية المعروفة.. حتى ولو لم يكن سجانوها يعرفونها؟!

وماذا عن الصورة التى نشرتها صحيفة إسرائيلية لمحررها، وهو فى قلب الميدان يقف مع ثلاثة رجال اختارهم من أصحاب اللحى الطويلة؟

إذاعة الجيش الإسرائيلى أجرت حواراً مع مراسلة إسرائيلية تنقل أحداث القاهرة من ميدان التحرير!!.. وتقريراً لجريدة «يديعوت أحرونوت» من مراسلها «الداد بيك»، بعث بها مؤخراً من العباسية أيضاً!!

لأنه قليل الأدب!

عندما رفضت السفارة المصرية منحه تأشيرة دخول أول مرة قبل سنوات لم يندهش، ولكن الرفض هذه المرة بدا غريبا، إذ تغيرت مصر، أو هكذا تصور.

ماذا قال له رجلنا فى بيروت وهو يعيد إليه جواز سفره بدون إذن السفر؟

لابد أنها نفس القوائم التى منعته من دخول مصر.. ولابد أن هناك كثيرين غيره.. رغم أن الظروف تغيرت تماما.. ثورة قامت لم تصل بعد إلى جهات عليا.

كيف كان يسمح له بالدخول أيام مبارك والتليفزيون المصرى لا يسمح بإذاعة خبر إلقاء الصحفى العراقى الشاب «منتظر الزيدى» حذاءه على الرئيس الأمريكى «جورج بوش» الذى كان فى زيارته الرابعة والأخيرة لمدينة بغداد قبل انتهاء مدته رئيسا.

ما كاد يبدأ المؤتمر الصحفى للرئيس الأمريكى بصحبة رئيس الوزراء العراقى حتى انطلقت فردة حذاء مصوبة بقوة ومهارة إلى المنصة مع صوت يدوى: «هذه قبلة الوداع من الشعب العراقى يا كلب».. أعقبتها الفردة الثانية.. وقد تفادى «بوش» الحذاء برشاقة ودهشة.. وقال بعد عودته إلى واشنطن: «كان هذا أغرب شىء تعرضت له».

أحاط الحراس بالشاب مراسل محطة تليفزيون «البغدادية» الذى نذر نفسه للدفاع عن ضحايا الغزو العراقى من الأرامل واليتامى، وآخرها تقريره عن التلميذة الصغيرة «زهراء».. وقد سبق تعرضه أكثر من مرة للاختطاف من مجهولين معلومين.

ضربوه وجرجروه على الهواء ليحكم عليه بالسجن فى بلده، وليحظى بالشهرة والتقدير فى العالم العربى، ويثير جدلا بعد أن أرسى استخدام سلاح الحذاء تعبيرا عن الرأى فى السنوات الأخيرة.. وأصبح حذاء «منتظر» لعبة على «الإنترنت»!

أسرع أهالى مدينة «الصدر» برفع تمثال لحذاء ضخم لم يستمر طويلا، إذ أرسلت الحكومة العراقية من يزيله.. وتبارى محبو الظهور يعرضون شراء الحذاء مقاس «٤٣» الذى ألقى على «جورج بوش» ووصل المزاد إلى ملايين الدولارات.

وكان الضرب بالحذاء رمزا للإهانة فى كل العصور، خصوصا عند العربى.. والقباقيب التى قتلت بها «شجرة الدر» دخلت التاريخ.

فى مصر الحديثة نشبت معركة فى مجلس الأمة بين وزير الداخلية القوى «زكى بدر» والنائب الوفدى «طلعت رسلان» عندما هاجم الوزير المعارضة، وأشار إلى الوفد بما يهين، فاندفع النائب وضربه بالقلم.. ويقال إن الوزير رفع الحذاء.

وفى مجلس الشعب قبل الأخير ارتفعت الأحذية، أشهرها ما فعله النائب «طلعت السادات» عندما استفزه أحمد عز قائلا «بلاش تشوح، اقعد واسمع يمكن تستفيد وتفهم».. جاء رد السادات «حاضريك بالجزمة».. وهم بفعلها، ولم ينقذه مؤقتا إلا شهادة الدكتور «فتحى سرور» رئيس المجلس -وقتها- بأنه لم ير بعينيه حذاء السادات يضرب عز.

ورفع النائب الإخوانى «أشرف بدرالدين» حذاءه على زميله «نشأت القصاص» وهو نائب العريش الذى اشتهر بعد ذلك بدعوته لضرب المعتصمين «قبل ثورة يناير» بالرصاص!

وخارج البرلمان اشتهر حذاء مرتضى منصور الذى رفعه فى «الاستاد».

ورفع النائب «على لبن» حذاءه داعيا الجميع لاستخدام أحذيتهم إذا كان ذلك يحقق الجلاء عن غزة.

على المستوى الدولى خلع «نيكيتا خروتشوف» الرئيس السوفييتى حذاءه أثناء اجتماع الأمم المتحدة وأخذ يضرب به على المائدة، احتجاجا على خطاب ممثل «الفلبين»، وكان يدعو لتحرير دول شرق أوروبا من الاستعمار السوفييتى.. وعندما سئل «خروتشوف» بعد ذلك عن رأيه فى مرشحى رئاسة أمريكا «كنيدى أو «نيكسون» أجاب: الاثنان فردتا حذاء!

نعود إلى سلاح الأحذية فى العراق حيث اشتهر «نعل أبو تحسين» الذى كان أول من قذف تمثال «صدام حسين» بعد سقوطه، وتبعه الآخرون، وبدا أنه أسلوب للاحتجاج وصل ذروته بإلقاء «منتظر الزيدى» فردتى حذائه على «جورج بوش».

خرج من سجنه، وغادر بلده، ورفض اللجوء السياسى لسويسرا، مفضلا أن يعيش ويعمل فى لبنان، ويؤلف كتاب التحية الأخيرة للرئيس بوش.

أراد أن يزور مصر فمنعوه.. وعندما قامت الثورة كرر المحاولة فمنعوه أيضا.. لم يعرف السبب.. غالبا لأنه قليل الأدب!!

عاشق وشاعر وعالم آثار

افتقدنا «زاهى حواس» ونحن فى أشد الحاجة إليه حيث تسرق آثارنا بأيدى أشقيائنا، ويتبجح بلطجية تجار العالم، ويجاهرون بأنهم لن يعيدوا ما سرقوه من تاريخ مصر عبر سنوات طويلة.. كان «زاهى» يقف لهم بالمرصاد لا يكف عن فضحهم ومطاردتهم، فكاد ينجح فى إرساء مبدأ أن تعود الآثار المنهوبة أو نصل إلى حل مقبول يؤكد حقنا فيها ويكون تنازلنا عن تسلمها مؤقتاً لأسباب نقتنع بها ونرضاها.

نسيناه ولم نحتفل معه بقرب إعادة قناع فرعونى نادر حارب كثيراً من أجل استعادته من متحف «سانت لويس» بأمريكا الذى أصر على الاحتفاظ به رغم ثبوت سرقته.. أكثر من سبع سنوات و«زاهى حواس» يطالب بقناع تاريخى عمره أكثر من ثلاثة آلاف عام.. جميل مصنوع من الذهب والزجاج بعد أن استطاع إثبات قصة اختفائه وهو فى طريق عودته من معرض لآثارنا فى اليابان ليظهر فى المتحف الأمريكى الذى قال إنه اشتراه بنصف مليون دولار!

حاول عالمنا المصرى بعشقه للآثار وغيرته الوطنية وما توصل إليه من وثائق أن يقنع المسئولين عن المتحف بإعادة التمثال النادر فأصروا.

لجأ إلى نفوذه حارسا لآثار مصر واستخدم سلاح مقاطعة المتحف علميا وأثريا، وهو ما يمنع بعثاته من الحفر والتنقيب فى بلادنا، ويحول دون إقامته معارض أثرية مصرية فى داخله.

ولشهرته العالمية خاصة بين الأمريكيين استخدم سلاحا شعبيا وهو دعوة أبناء الشعب الأمريكى والأطفال بالذات للامتناع عن زيارة المتحف لاقتنائه أثرا مصريا مسروقا.

ووصل الأمر إلى المحاكم الأمريكية.

ليته ما قبل الوزارة التى تغيرت بعد أيام معدودات فأبعدته رسمياً عن شئون الآثار، وقد كان على وشك استعادة قطع أثرية من مقبرة «توت عنخ آمون» ثبت أنها خرجت من مصر بطريقة غير شرعية وضبطت بمعرض «مترو بوليتان» فى نيويورك.. انتهز مدير المعرض الأمريكى فرصة غياب «زاهى حواس» وأحداث الثورة فى مصر وادعى أنه لن يعيد آثارنا إلا بعد أن تستقر الأوضاع!!!

كانت حربا ضارية فى أكثر من جبهة، ربما كان أشهرها «رأس نفرتيتى» فى برلين التى انتهت بإثبات سرقتها ورفض إعادتها بحجة أن المصريين لن يستطيعوا المحافظة عليها؟!

يقولون إن تجارة الآثار - المسروقة - تحقق ستة مليارات من الدولارات أرباحا سنوية.

نفتقد الكثير بغياب رجل مثل الدكتور «زاهى».. فما بالك وقد بدأ الهجوم عليه تصفية لحسابات شخصية أو لأخطاء نسبت إليه أو لأى سبب آخر يجب ألا ينسينا، ليس فقط ما قام به فى عالم الآثار وإنما ما نحتاجه منه اليوم وغداً.

أذكره جالساً، وهو وزير على كرسى بسيط عند المدخل الرئيسى للمتحف المصرى متحفزا حزينا «قاتل يا مقتول» يحيط به أفراد من الجيش وشباب من ميدان التحرير تصدوا لهجمات المجرمين الذين حاولوا سرقة مصر.

هذا هو «زاهى حواس» وزيرا أم حارسا فلا شىء عنده أعز من آثار مصر.

وليت الذين يحاولون اليوم قذفه بالحجارة أن يسيروا على نهجه.

لو أنه هاجر إلى أمريكا لأقاموا له تمثالاً، ولكنه عاشق وشاعر وعالم غارق فى حفريات مصر.

ليته ما قبل الوزارة!!!

الدكتورة عواطف

قلبى معها وهى فى شدتها، ولو أننى تأخرت فى إظهار عواطفى تجاه زميلة عزيزة، وهى تعانى من مرض وتدخل المستشفى، وتكتشف إهمال الأطباء، الذين طالما دافعت عنهم، وأخيراً تضطر للسفر إلى الخارج فتشفى.. نحن هكذا زملاء المهنة، ولابد أنها تعرف وتغفر، لم نعد نلتقى كثيراً، أنا والأستاذة الدكتورة «عواطف عبدالجليل»، أول من قدم صفحة للعلوم فى الصحافة المصرية، ولكننى كنت أواظب على قراءة عمودها اليومى فى «الجمهورية»، الذى يحمل عنوان«العلم والحياة»، ويهتم دائماً بالإنسان، فهى إلى جانب اهتمامها بالدراسة التى استهوتها وقدرتها على تطويع العلم وتبسيطه، ومتابعتها للجديد قدر استطاعتها، وحضورها المؤتمرات الطبية بعيون الصحفية، جعلت من كلماتها الودودة جسراً بينها وبين قرائها فأحبوها، يبدو ذلك من الرسائل التى تنشرها، ومن قلقهم عليها عندما تغيب عنهم، ومع كل ذلك الذى أحمله لها من ود وتقدير، لم أسأل عنها، وإن سعيت للاطمئنان عليها بشكل غير مباشر، حتى قرأت خبر سفرها إلى سويسرا لإجراء عملية جراحية، فأحسست بتقصيرى، وبقيت طوال غيابها أتطلع إلى مكان عمودها فى الجريدة فلا أجده، وأدعو لها بالسلامة، أخيراً أسعدنى توقيعها على رسالتها الصحفية من العاصمة السويسرية «بيرن»، وبقدر سعادتى، أزعجنى ما جاء فى المقال عن عملية الست ساعات والأيام الستة

بعدها، بآلامها المبرحة إلى حد الغياب عن الوعى والإغماء، ثم تفتح عينيها والطبيب الجراح يشرح لها ما قام به فريق الأطباء لتخليص الساق من المسامير والشرائح المعدنية، التى أتلفت مفصل الركبة، وأحدثت التهابات شديدة فى الأنسجة، دون أن تلتحم كسور الفخذ وعظمة الساق، وقال الطبيب السويسرى: إنها محظوظة جداً لعدم وجود إصابات ميكروبية مع الالتهاب.. المحزن أن الدكتورة «عواطف» كانت قد أجرت عملية جراحية فى مستشفى استثمارى بالقاهرة، هى سبب كل تلك المضاعفات، ولكن الأكثر حزناً ليس فشل العملية التى قام بها أستاذ فى جراحة العظام، وإنما إخفاء الحقيقة، وإبقاؤها سبعة أشهر كاملة فى المستشفى دون أن يسمح لها بالتأكد مما جرى لها من تخريب لعظامها ومفاصلها وعضلات ساقها.. والأستاذ الجراح السويسرى لا يعرف ولا يصدق، ويسأل دائماً أكثر من مرة: لماذا انتظرت كل هذه المدة؟

يحدث هذا مع الدكتورة «عواطف عبدالجليل»، فما الذى يحدث مع الآخرين، إن لم يكن فى كشف الحساب، أو فى الإهمال القاتل، أو فى التعالى على المرضى، مهما يدفعوا من أموال، أو بالخطأ فى التشخيص ليس عن جهل، بقدر ما هو عن عدم اكتراث، وكم يبقى المريض من أيام وأسابيع وشهور بلا داع، إلا أن يعد العداد.. وما الذى يحدث فى عنابر مستشفيات الحكومة، مهماً نحاول الإصلاح، فالمسألة ليست فقط ميزانيات، وإنما ذمة ورحمة وسلوك.

تعلموا اللغة الصينية

«محمد الخولى» مظلوم وظالم، فهو صديق ودود ولكنه كثيرا ما يغيب عن الأحباب، وهو كاتب مستقيم فى عالم اختلطت فيه الألوان والمذاهب.. ظلمناه لأننا لم نعرف قدره، وظَلَمَنَا لأنه لم يتمسك بحقه، فكانت هجرته إلى الأمم المتحدة كاتبا وباحثا وخبيرا إعلاميا، توجت أعماله بجائزة الملك «عبدالله بن عبدالعزيز» عن ترجمة كتاب «انهيار العولمة» للباحث الأمريكى «مارتن جاك».

كان من نجوم إذاعة «صوت العرب» فى عصرها الثورى، ولكن دوره الأكثر أهمية كان فى تثقيف شباب العرب، وخلق كوادر تكمل المسيرة التى تعثرت.

ربما لم ينل ما يستحقه من شهرة عند القارىء المصرى، راضيا بما يحققه من تأثير عميق على مستوى الأمة العربية.

أتوقف عند مقال كتبه فى جريدة «البشاير» الإلكترونية بعنوان «انطباعات استهلاكية عن رحلة أمريكية»، لا شغلة ولا مشغلة.

غير أنه مشغول بـ«عندما تحكم الصين العالم، ومولد نظام عالمى جديد».

يتوقف عند مؤلف لا يكتفى بالحديث عن أم الدنيا وست الكل. ومدح الرؤساء والحكام والوزراء ورجال الأعمال وصولاً إلى الملك «أحمد فؤاد» وزيارته الملوكية الأخيرة فى مصر المحروسة.

أما النهاية فدليلها أن السجادة والسبحة وعروس المولد وغشاء البكارة أصبحت فى بلادنا صناعة صينية.

ونعرف من مقال «محمد الخولى» تعبير «بريكس» ينقله لنا من خبير اقتصادى دولى، وهى الحروف الأولى لأسماء الدول المرشحة للعب أدوار محورية فى الخمس والعشرين سنة القادمة، وهى البرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب أفريقيا.

وهو ينصحنا بتعلم اللغة الصينية، أو نعلمها لأولادنا!!. فالزمن الأمريكى لا يدوم!!

وربما نتعلم «الأردية» لغة الهند أو «اللاتينية» لغة البرازيل، أو الروسية أو اللغات التى يتحدث بها شعب جنوب أفريقيا.. إلا لغة «الضاد» العربية فلم يعد لها فى مثل تلك الظروف، وما هو قادم فى الأفق، فائدة تذكر فيما عدا قصائد الغزل والنفاق.

هل يعتقد «الخولى» أنه مظلوم وظالم؟.. لا أعتقد، فهو راض عن نفسه وعن تمسكه بمبادئه وعن دوره فى الحياة، ويعرف كيف أن هناكً من يحبه، ولكن من يحترمونه أكثر!

ولعله يعود إلينا بقلمه وقلبه، نسمع ونقرأ ماذا يحدث فى العالم، وماذا سوف يحدث، وأين نحن وسط سباق الأمم.. وخسارة أنه يكتب فقط فى جريدة «العربى» الناصرية «والبشاير» الإلكترونية.

نتركه يستمتع بتكريمه العربى فى نيويورك، ورحلاته الاستهلاكية فى الربوع الأمريكية، وسعادته بابنته وحفيديه المقيمين فى واشنطن.. أما الجائزة المالية فحلال عليه!

شهرزاد فى المعادى

يرقد "صبرى العسكرى" فى حجرة بمستشفى خاص بالمعادى، وحق علينا أن نقدم له باقة ورد، وأن ندعو له حتى يعود إلينا فهو أحد فرسان الزمن الجميل الذين مهدوا الطريق لجيل جديد صنع ثورة.

تمنى لو شارك فى التحرير مثلما كان يفعل، ويحاول فى الستينيات، ولكنه لم يستطع فظل ساهراً متابعاً قلقاً، كلما سقط شهيد هم بأن يحل محله.

أحسب أن "شهرزاد" تزوره كل ليلة، تحكى له حتى يدركهما الصباح الذى أنقذها من ضيق أفق رقيب كاد يجهز عليها دون حاجة للسياف مسرور.

تصدى "صبرى العسكرى" بما يملك من حس أدبى وكفاءة قانونية لقرار مصادرة "ألف ليلة وليلة"، التى جمعت من الأسواق وأودع ناشرها السجن، وحفظت شهرزاد له الجميل الذى لم يحفظه الكثيرون.

مكتبه فى وسط البلد ظل ملاذاً لأدباء مصر كلما واجهوا مشكلة قانونية، ولم يتقاض يوماً أجراً عن قضاياهم مهما تطُل ومهما تحقق لهم من تعويض.. فهو واحد منهم وصديق للجميع حتى مَن يختلف معهم يهب لنصرتهم دون تردد.. عمل مستشاراً قانونياً لاتحاد الأدباء سنوات.

أصدر وهو طالب حقوقى رواية "قيود محطمة" ثم أعاد نشرها، كما هى

وعلى صورتها التى ظهرت بها أول مرة قبل خمسين عاماً رسم غلافها الفنان زهدى، ونشرت جريدة "المصرى" إعلاناً عنها فى عددها الأخير قبل أن تصادر، وتغلق بعد عامين من ثورة يوليو.

وواصل العطاء الأدبى فى الرواية "الملهى الليلى" و"دنيا غير الدنيا" وفى المقال "صوت ولا صدى" و"يا قلبى لا تحزن".

أثار مقاله الذى دافع فيه عن حق صديقه الراحل الكاتب المسرحى نعمان عاشور جدلاً فى أوساط المثقفين، فهو يرى أن عمارة يعقوبيان الرواية الأشهر لعلاء الأسوانى متأثرة بمسرحية "برج المدابغ" لنعمان عاشور.

كان دائماً عاشقاً للمحاماة غير أن قضاياه تنتهى قبل أن تبدأ فعنده الصلح خير، بما يعنى أنه لم يكن يهتم بالمال، ولم يحقق منه شيئاً يذكر، مكتفياً بكرامته واحترام الناس له.

وقف مع توفيق الحكيم وثروت أباظة ويوسف إدريس وجمال الغيطانى وعبدالرحمن الأبنودى ومحمد نوح ونزار قبانى، وكل أديب أو شاعر أو مثقف يطلب الإنصاف.

فى قضية "ألف ليلة" الشهيرة لم يكن يدافع عن حق الناشرين حسن الزين ومحمد رشاد، وإنما عن حرية نشر التراث، وقد كتب مذكرة قانونية أدبية رفيعة المستوى، أخذ بها القاضى من أول جلسة وهى تستحق إعادة النشر.

رقد "صبرى العسكرى" فى حجرة بمستشفى خاص فى المعادى راضياً، وإن غاب مؤقتاً عن الوعى، كان من حقه علينا أن نذكره بالخير، وأن يقوم اتحاد الأدباء بدوره، وأن يبدى نقيب المحامين اهتماماً عملياً بواحد من المحامين المحترمين لم يترك مالاً، وإنما كرامة، وإذا كانت أسرته لا تحتاج ولم تطلب، فهو واجبنا جميعاً نحن الذين وقف معنا صبرى العسكرى دائماً.

قبل أن يداهمه المرض الأخير كان مشغولاً برواية قصيرة كتبها منذ سنوات، ولم يكن يعرف أنها ترجمت إلى اللغة الفرنسية، جاءته عدة نسخ منها، فأخذ يبحث عن الأصل العربى، ويشرك أصدقاءه معه فى البحث دون جدوى.

بعد أن دخل المستشفى عثر ابنه الدكتور فريد الأستاذ المساعد بكلية طب أسنان عين شمس على ما كان يبحث عنه والده .

ونحن فى انتظار أن يعود من غيبوبته، ضاعت الابتسامة وأسدل الستار ومات صبرى.

قليل من الوفاء، كثير من الجحود

نشرت مجلة «أخبار الأدب» مقالاً لإبراهيم عبد العزيز، كتب فيه:

رحل محامى ألف ليلة وليلة فى صمت لا يليق بشهرزاد التى انقذها من مسرور سياف القرن العشرين..

بعد ساعات قليلة من رحيل أديبنا الكبير إبراهيم أصلان رحل ـ فى صمت لا يليق به ـ صبرى العسكرى الذى أنقذ شرف الثقافة المصرية والعربية بحصوله على البراءة لألف ليلة وليلة يوم أن صودرت وطالبت النيابة بحرقها، مما جعلنا بصدد فضيحة عالمية كالتى حدثت لأفغانستان يوم أن حطم حكم طالبان تماثيل بوذا، ورغم الحكم التاريخى الذى حصل عليه صبرى العسكرى، فإنه لم يتاجر به أو يسع للأضواء وأصبح مثل أبطال ثورة ٢٥ يناير الذين تواروا فى الظل ليتقدم الانتهازيون المشهد والكاميرات، بل تم تجاهله يوم أن أصدرت مجلة فصول عددا خاصا عن «ألف ليلة وليلة» حين كان يرأسها د. جابر عصفور الذى عاد لينصف صبرى العسكرى على صفحات مجلة «العربى» الكويتية، وحين داهم المرض الرجل لم تتحرك نقابة المحامين التى ينتمى إليها كمحام، ولم تطرف عين لاتحاد الكتاب الذى خدمه صبرى العسكرى مجانا لمدة عشر سنوات حين كان مستشارا قانونيا له، وهكذا غاب الضمير القانونى والضمير الثقافى، أما الضمير الاجتماعى فحدث ولا حرج، فقد استحل بعض المتقاضين أتعاب العسكرى عن قضايا كسبها لهم، واستغلوا مرضه وفقدانه للذاكرة فأكلوا حقوقه وحقوق أسرته التى أنفقت من «لحم الحى» على علاجه فى مستشفى خاص، ولا حياة لمن تنادى، وقد غابت القيم وماتت الضمائر.

ولا نملك اليوم سوى أن نكرم الرجل بعد رحيله ونتذكر فضله الكبير على الثقافة المصرية والعربية، إنه صبرى العسكرى (١٩٣٠ ـ ٢٠١٢) الذى ترجم

إلى كل لغات العالم - بعد أن صودرت (١٩٨٥) إلى درجة أن ممثل النيابة طالب فى جلسة علنية بحرق «ألف ليلة وليلة»، الأخطر أن المشكلة برمتها دخلت فى دائرة صمت القبور بمجرد صدور حكم أول درجة بالمصادرة وتوقيع العقوبة على الناشرين، وكانت مشكلة عسيرة الحل لأنها لم تكن مشكلة قانونية فحسب، بل كانت مشكلة ثقافية بالدرجة الأولى، تخص المثقفين فى العالم أجمع، لأن غير العرب من أوروبيين وآسيويين وأمريكان قد أزعجتهم المصادرة، حتى أن البعض منهم طالب بالحجر على العرب، لأنهم سوف يزورون تراثهم الثقافى، وهو ليس مملوكا لهم، إنما تملكه البشرية جمعاء، وقد كشفوا عن أهمية «ألف ليلة وليلة» كمصدر للثقافة الشعبية العالمية، فصرحوا - بغير تردد أو مواربة - أن الأدب الشعبى الأوروبى الذى أسهم فى تنشئة الأطفال عندهم مدين لها، بل تكاد تكون المصدر الأول لثقافتهم الشعبية، فضلا على أنهم اجتهدوا فى تأصيل «ألف ليلة» على نحو لم يفطن إليه العرب!وهو أنها لم تكن لتؤلف لولا أن اللغة العربية لغة البراءة، إذ درجت منذ قديم الزمان على تسمية الأشياء بأسمائها دون لف ولا دوران، مما تفتقده اللغات الأخرى.

ما تقدم وغيره من العناصر الثقافية كان ينقص الرؤية العربية التى قادت المثقفين العرب للاحتجاج على المصادرة، لذلك لم يكن هناك اتفاق بينهم على رؤية واحدة، حتى أن صدمة المصادرة لم تلق منهم احتجاجا جماعيا، بل إن بعضهم - وهذا هو المخجل - شارك النيابة العامة فى الادعاء بأن نسخها المضبوطة كانت مزورة، وهو ادعاء لم يكن صحيحا، وأخص من هؤلاء كاتبا مشهورا بذل جهدا - على مدى خمسة أيام متتالية - لكى يؤكد تلك الشائعة فى خمس مقالات قصيرة - نشرها - على صفحات «الأهرام» فى الفترة بين انتهاء المرافعة فى الدعوى أمام محكمة أول درجة وصدور الحكم، وكان هذا الكاتب نفسه - يا للأسف - هو صاحب نسخة من «ألف ليلة وليلة» أعدها بمعرفته ونشرها تحت مقولة إنها نسخة مهذبة! وصرح وزير الداخلية آنذاك - أحمد رشدى - للصحف بأن ضبط نسخ «ألف ليلة» يمثل جزءا من حملة ضبط الشارع المصرى ككل، كما تحدث المحامى العام لنيابات شمال القاهرة ماهر الجندى لصحيفة «أخبار اليوم» متهما صبرى العسكرى بأنه وراء الحملة فى الصحف

خدمة للناشر اللبنانى، وبأنه أوهم البعض بأن النيابة تحاكم التراث، وبالتالى استطاع التغرير ببعض أصحاب النوايا الحسنة فانساقوا دون تبصر، وتعرضوا لموضوع مطروح فى ساحة القضاء، وجاء حديثهم - فى باطنه - دعوة لتخريب العقول وإفساد الأخلاق.

وقبل صدور الحكم بالمصادرة أصدر اتحاد الكتاب قرارا بأنه لا يجوز لأى سلطة المساس بالتراث، وطلب من صبرى العسكرى - باعتباره المستشار القانونى للاتحاد فى ذلك الوقت - الحضور عنه فى القضية، منضما للمتهمين فى طلب رفض المصادرة، وبعد أن صدر الحكم بالمصادرة كتب صبرى العسكرى مقالا «بالأهرام» فى صفحة «الأدب» التى كان يشرف عليها ثروت أباظة الذى - يا للعجب - ألحق فى ذيل المقال عبارة «هذا المقال لا يعبر عن رأى اتحاد الكتاب وإنما يعبر عن رأى صاحبه»!

أما د. شوقى السيد - أحد المشتغلين بالقانون - فقد قدم بلاغا للنيابة ضد توفيق الحكيم وجريدة «الجمهورية» التى نشر بها مقالا دفاعا عن «ألف ليلة» مطالبا - ويا للدهشة - باتخاذ الاجراءات القانونية ضدهما بتهمة امتهان العدالة لنشرهما مقالا أكد كاتبه أن «ألف ليلة وليلة» لا يمكن اعتبارها فعلا فاضحا علنيا، مما يتدخل فيه القانون، كما أنهى الحكيم مقاله منبها القضاء حفاظا على سمعته.

وهكذا جاءت قضية «ألف ليلة وليلة» لتكون كاشفة لسلبيات المشهد الثقافى وازدواجية المثقفين، ولكن صبرى العسكرى لم يستسلم أو يتراجع، ومضى وحده لإنقاذ سمعة الثقافة المصرية والعربية.

أما كيف استطاع أن يفعل ذلك؟

فقد حشد ثقافته الأدبية والقانونية، فى دفاعه عن «ألف ليلة وليلة»، وقد تبنت المحكمة حيثيات صبرى العسكرى لتجعلها حيثياتها فى البراءة التاريخية، حتى أنه تم إيداع الحكم فى المتحف القضائى الذى يضم القضايا المهمة، تعريفا للأجيال القادمة، فضلا على أن ذلك الحكم قد أفاد فى غلق ملف قضية «ألف ليلة وليلة» حينما عاد المتشددون لإثارة الموضوع مرة أخرى منذ نحو عام، إضافة إلى أهمية هذا الحكم فى الدفاع عن حرية الإبداع والحفاظ على التراث فى ظل الهجمة الشرسة على الإبداع والمبدعين فى الفترة الأخيرة من بعض التيارات المتشددة المنتسبة إلى الدين وهو منها براء.

لقد خلص صبرى العسكرى إلى أنه لو عدنا إلى الدستور لوجدناه ينص فى المادة «١٢» منه على: «التزام المجتمع برعاية التراث التاريخى للشعب والحقائق العلمية».

كما تنص المادة «٤٩» على أن: «الدولة تكفل للمواطنين حرية البحث العلمى والإبداع الأدبى والفنى والثقافى».

كما أشار صبرى العسكرى إلى أن المجتمع المصرى بجميع مؤسساته - وعلى الرغم من الاختلاف فى الرأى - كان يحرص على عدم مصادرة الكتب، وضرب أكثر من مثل.

موقف النيابة العامة من طه حسين فى قضية كتابه «فى الشعر الجاهلى»، وموقف المحافل التربوية والسياسية من الشيخ على عبدالرازق وقضية كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، وفى التاريخ القريب عام ١٩٨٤ حفظت نيابة الآداب الكلية فى الإسكندرية التحقيق ومنعت مصادرة المجلات المصورة الواردة من الخارج، حماية لفن التصوير، كما أن «ألف ليلة وليلة» لم تكن حديثة النشر، فقد طبعتها المطبعة الأميرية عدة طبعات ومنذ مائة وخمسين عاما (حتى تاريخ مصادرتها ١٩٨٥) وتم تداولها على المستويين: الشعبى والخاص.

لذلك -كما يقول صبرى العسكرى فى مرافعته- من غير المتصور أن تأتى نيابة الآداب بعد مضى ما يقرب من ألف سنة على تأليفها لتطلب المصادرة - فضلا على أن ما تضمنه الكتاب من العبارات المعنية بالتحقيق سبق أن وردت، أورد مثلها فى كتاب «الوحشيات.. الحمامة الصغرى» لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى، المنشور بواسطة دار المعارف المصرية، وفى كتاب «شرح المعلقات السبع» المطبوع فى مصر متضمنة فى قصيدة «اللامية» لشاعر العرب امرىء القيس، وأيضا فى قصيدة الشاعر عمرو بن كلثوم فى الكتاب نفسه، بل ونشرت مجلة «الشعر» الصادرة عن اتحاد الإذاعة والتليفزيون، عدد يوليو ١٩٨٣، قصيدة الشاعر «دوقلة المنبجى» المسماة بالقصيدة «اليتيمة» وفيها تلك العبارات وأكثر منها، ولو أن شيئا من ذلك كان هابطا أو مستهجنا لما أقدم الشاعر النابغة الذبيانى على معارضته شعريا، ولما أقدمت دار المعارف

المصرية على تضمين هذه المعارضة ديوان الشاعر الذى نشرته فى مصر والعالم العربى - فضلا على أشعار بشار بن برد، وعمر بن أبى ربيعة، ولسنا بحاجة إلى الاستشهاد بأشعار أبى نواس، وغيره كثيرين، وقد أورد الأصفهانى جميع ذلك فى كتابه «الأغانى» الذى طبعته الدولة، وطبعت أيضا دواوين هؤلاء الشعراء فى مطابعها على نفقتها، كما أن «ألف ليلة» تتداولها أوروبا وتعيد طبعها، فرنسا وحدها طبعتها أكثر من عشرين طبعة، ولقد سبق للعرب القدامى أن أجازوا مثل تلك العبارات فى مؤلفاتهم، حتى أن «الثعالبى» منذ مئات السنين قال: إن الكلمة المكتوبة لا تخدش الحياء، إنما يخدش الحياء الجهر بها فى الأسواق، وقد نقل المشرع الفرنسى تلك القاعدة الأصولية إلى نصوصه، كسبب لعدم مصادرة الكتب منذ أكثر من مائة عام.

وهكذا انتصف صبرى العسكرى لألف ليلة وليلة وحصل لها على البراءة من مسرور سياف القرن العشرين، ولايزال يشرع سيفه فى القرن الواحد والعشرين.

وجاء حكم براءة «ألف ليلة وليلة» لينقذ شرف الثقافة المصرية والعربية، فى قضية تعتبر من أخطر المشكلات التى صادفت مسيرة الأدب العربى حتى لو قورنت بالتحقيقات والانتقادات الأدبية والتاريخية التى تعرض لها طه حسين، وعلى عبدالرازق.

مشاهد تليفزيونية

تعجبنى وتستفزنى التغطية التى لا تلتقط الأنفاس لثورة التحرير فى قلب القاهرة وسائر المدن المصرية، تتخللها معارك شارع "محمد محمود" الذى أكسبته ضراوتها شهرة بالغة.

أعصابى أحياناً لا تحتمل، فأحاول الهرب، أبحث عن فيلم من الزمن الجميل أو كوميديا لا تضحكنى، فبالى مشغول بأبنائى الساهرين فى العراء.

لم نعد فى حاجة للشكوى من تقصير إعلامنا والانتقال إلى محطات تليفزيونية أخرى.. الجزيرة، العربية، الحرة ، بى بى سى.. نبحث فيها عن أخبارنا ثم نلومها.

قنواتنا المصرية تقوم بالواجب وزيادة.. إلا التليفزيون المصرى مازال على حاله، فلا يتوقف الريموت عن الأولى أو الثانية أو المصرية أو النيل بفروعها المختلفة.. مازالت كاميراتها على لوحات حالمة لسماء صافية أبعد ما تكون عن واقع ميدان التحرير.. هناك إرهاصات وأمل أنه يتغير.. لابد أن يتغير.

صديقى، الذى ينام قبل التاسعة، يبقى ساهراً حتى منتصف الليل.

وأحفادنا جميعاً ذاهبون ذاهبون إلى الميدان، فلو أنهم تخلفوا أو استجابوا لإلحاح الجدات يحسون بالندم.. والواقع أننا نحن كبار السن نتمنى أن يعصى الأولاد كلامنا.

تختلف الفضائيات، وقد فقد بعض نجومها البريق، وتخلفوا لسبب أو آخر.. تتجاوزهم الأحداث أو تطارد بعضهم لعنة الماضى القريب فيتوارون أو يصرخون، يرفعون الصوت بحماس.. لعلنا ننسى!

نحس أحياناً بأن صباع الزمار ما زال يلعب بالكلمات والدس والتشكيك.. وأنك لا تهدى من أحببت.. وهم لا يصدقون "عفا الله عما سلف"، إذا تاب وعرف أن الشعب حق أو كل حاكم زائل فلا داعى للغزل والبحث عن سيد جديد!

فى كل الأحوال تنقلنا الفضائيات المصرية إلى قلب الأحداث، فتزعجنا وتقلقنا، وقد تزيد من حيرتنا.. ولكنها الحقيقة أمام الجميع.

وتبقى الثورة هى الكل والفصل.. تتطور فى لحظات، وتقدم أبطالاً مجهولين من يسقط شهيداً يشق لنا طريق الحياة والحرية.

وتخطىء أيضاً وتتعثر دون أن تتوقف.

ويتسلل مخبرون ولصوص وعملاء ومأجورون فينكشف أمرهم وتسير القافلة الثائرة.

على الشاشة يفسر المشهد الرائع، ذلك الرغى المتواصل والتحليل المطول من أساتذة لهم الاحترام وبعضهم شارك فى الميدان، ولكنه ليس وقت الكلام، فخيره ما دل والأفضل هو شهادات يقدمها وقوفاً وعلى عجل من يستضافون من قلب الثورة يتعجلون العودة إليها.. لا يرتدون الملابس الأنيقة أو يتبادلون التحيات مع المذيعين والمذيعات قبل تقديم النصائح وإصدار الأحكام التى تنتهى بتنبؤات العرافين، يحملونها معهم من قناة إلى قناة.. هم أيضاً مثلنا لا يستطيعون ملاحقة اندفاع الثورة والعزف على أوتارها.

زمن آل نجم

أثار عرض فيلم عن الشاعر "أحمد فؤاد نجم" الذكريات.. وقد كنت أنوى الكتابة فقط عن ابنته "نوارة" التى تملأ الدنيا "تهييس".. حاولت أن أعرف معناها فلم أفلح.. إذ هى ليست "تهييص" ولا "تهجيص"، وإنما كده.

رأيتها على شاشة قناة التحرير "بث تجريبى"، فلفت نظرى تلقائيتها وجرأتها وحسن تعبيرها عن جيل ثورة الشباب.. لها تجاوزات أغفر لها، فأين ذلك مما يفعله أبوها طول عمره، أو تكتبه أمها من طلقات حامية مباشرة على ما، ومن لا يعجبها مواقفه.

ذلك الجيل الجميل الذى يأخذ مكانه بين صفوفنا، حيث مقالات "مصطفى النجار" عن أحداث قنا بصدق وانفعال وأسلوب رشيق.. وحيث نجوم جدد على شاشة التليفزيون فى برامج مثل "نهاية الخط" لأحمد يونس، و"توك شوز" لدعاء سلطان وآخرين.

أحاول أن أتابع منهم "عمرو صلاح" و"ناصر عبدالحميد" و"عبدالله هنداوى" و"شادى غزالى" و"أحمد عيد" ولابد أن قائمة الموهوبين طويلة.

وبالمناسبة هل يمكن أن يقدم الفنان الساخر "أحمد عيد" بلدياتى من "المنزلة – دقهلية"، برنامجاً يليق بخبرته فى السينما وفى الحياة وفى ميدان التحرير بعد أن سمعناه محاوراً بصوته وموقفه فى برنامج قناة "المحور" الذى

كان قد قدم صورة "مشخبطة" لفتاة ظن أننا لن نعرفها، اتهمت الشباب بالعمالة لأمريكا وإسرائيل فكانت فضيحة وخيانة وفبركة.

ثلث موضوعنا اليوم عن صاحبة جبهة التهييس الشعبية التى ولدت بعد يومين من نصر أكتوبر، فكان اسمها بالكامل "نوارة الانتصار" أوله على اسم أخت السفير المتميز "شكرى فؤاد".

كانت "صافيناز كاظم" تتمناه حبيباً، فإذا بها بنت بمائة راجل، وكانت لا تتمنى أن يصبح شاعراً مثل أبيه أو مثل صديقها صلاح جاهين، الذى قال لها رحمه الله: "شاعر تانى؟ مش أما نخلص من أبوه الأول؟!".

مفيش سنتين على قول أحمد فؤاد نجم، وداهمت قوات أمن الدولة البيت، واعتقلت "نجم" وزوجته الناقدة المسرحية والمبدعة المصرية المرموقة "صافيناز"، تاركين الطفلة فى حراسة ورعاية الله وحده.

أفضل من يكتب عن "نوارة" بكل فخر واعتزاز، هو الأب المعجب الولهان الذى يذكر أنه فى غمرة فرحته بالثورة ككل المصريين، ضرب بعينه لقى "بنت الكلب" - هو الذى يقول - فى ميدان التحرير وبالصوت العالى: "مش حنمشى هوه يمشى".

والله وكبرتى يا بنتى، وليس غريباً أن تصرخى على الهواء: "نروح نجيبه من قفاه من شرم الشيخ"!! فمن شابه أباه ما ظلم.

وثلث الموضوع الثانى هو "صافيناز"، وقد كانت واحدة من ثلاث بنات غاية فى الرقة يدخلن البهجة علينا فى أخبار اليوم مع أول خطواتهن فى دنيا الصحافة.. معها "سناء فتح الله" التى أصبحت ناقدة جادة وكاتبة محترمة رحمها الله ورحم زوجها الكاتب الساخر "أحمد بهجت"، والثالثة "سناء البيسى" التى ظهرت كل مواهبها فى مجلة "نص الدنيا"، وأبدعت فى مقالات الصفحة الكاملة فى "الأهرام"، ولابد أنها تعلمت الكثير من فن وطباع زوجها الراحل الجميل كنعان، صاحب أحلى أغلفة آخر ساعة زمان.

أما صافيناز، فقد قادها طموحها إلى "نيويورك" لدراسة النقد المسرحى، ثم قامت بأجرأ مغامرة سبعون يوماً فى سبع دول عن طريق "الأوتوستوب"، ولم يكن معها سوى شقيقتها وعشرين جنيهاً.. ولمواقفها الوطنية اضطرت

للسفر إلى بغداد أيام السادات، تعطى دروساً فى الدراما بجامعة "المستنصرية" وفصلتها دار الهلال لأنها ضد "كامب ديفيد"، وحاربها يوسف السباعى لأنها من وجهة نظره شيوعية.. وطبعاً اعتقلت أكثر من مرة آخرها سبتمبر الشهير.

من أفكارها الحادة أن "اللمبى" من أفضل عشرة أفلام مصرية، يأتى ترتيبه الثالث، بعد الأرض والعزيمة!

وأن هيكل "الصحفى الكبير" رجل "يشخبط" تاريخ مصر.

وأخيراً كتبت فى مدونتها "لسانى حصانى"، عن فيلم "الفاجومى" قصة حياة أحمد فؤاد نجم، والذى بمناسبته أكتب هذا المقال أن الفيلم "حقير فاجر كاذب فظ بشع"!!

الكوم الكبير هو الثلث الأخير فى زمن آل نجم الشاعر، الذى وصفه الناقد الراحل الكبير الدكتور على الراعى" بأنه بندقية، ووصفه "أنور السادات" بالشاعر "البذىء"، وقال عنه عادل حمودة: "الجياد لا تباع فى السوبر ماركت"، نكاية فى صديقه على كبر نجيب ساويرس عندما احتفل بعيد ميلاد نجم فى سينما "رينيسانس".

وقد كان محل إقامته المختار مع صديق عمره ونصفه الثانى الشيخ إمام فى "حوش آدم" أو خوش قدم" يعنى «قدم الخير» ملتقى مثقفى مصر وأغنيائها والفاقدين، بل ورجال الأمن المعجبين به.. ولا بأس من اعتقاله آخر الليل.

أشعاره على كل لسان، من "يا محلى رجعة ظباطنا من خط النار" و"البقرة السمرا النطاحة" و"شرفت يانيكسون بابا" أيام الانكسار وحتى "مصر يا أمة يا بهية يا أم طرحة وجلابية" أيام الأمل.

يعجب الكل بقصيدة "كلب الست" الذى عقر مسكيناً كان يسير أمام فيلا أم كلثوم فى الزمالك، وهى فنانة عظيمة لم يجرؤ أحد على النيل منها مهما فعلت.

أنت فين والكلب فين؟.. أنت قده يا إسماعين.. طب ده كلب الست يا ابنى وأنت تطلع ابن مين؟!

وتخصص فى "حسنى مبارك" مثلما كان مع "السادات" الذى أقسم ألا يطلق سراحه طول ما هوه عايش.

"فى عيد ميلادك الكام والسبعين كل سنة وأنت طيب واحنا مش طيبين".

"ويا ترى يا حبيب الملايين فاكرنا واللا إحنا خلاص منسيين.. فاكر المعتقلين. المشردين.. اللى ماتوا محروقين.. فاكر الغرقانين.. الله يكون فى عونك ها تفتكر مين واللا مين"؟

"نستحلفك.. نسترحمك.. نستعطفك.. نستكرمك.. ترحمنا من طلعة جنابك حبتين.. عايزين نجرب خلقة تانية ولو يومين".

قائمة «درويش»

تحرص «نولة»، وهى باحثة ومترجمة وناشطة سياسية، على الأقل بمشاركتها فى حركة الطلاب عام ٧٢، على أن تقدم أباها «يوسف درويش» فى صورته التى تراها بعيون موضوعية ومحبة.

لعب الرجل دوراً حيوياً فى الكفاح المصرى اليسارى، وهو اليهودى الذى اعتنق الإسلام بإرادته، وقد عرف بأنه محامى العمال.

رفض أن يغادر مصر رغم المغريات والمحاولات، ومع كل ما عاناه من مطاردة واعتقال.

«نولة» يعنى اسمها «هدية» تركها لزوجته عندما اعتقل عام ٤٨.. وقد توالى القبض عليه فى كل مناسبة، وأحياناً بدون مناسبة.

أما الفنانة الموهوبة «بسمة» فتفخر بأن «يوسف درويش» جدها.. وقد حاول البعض النيل منها لجذورها اليهودية، فكانت فرصة لإعادة الحديث عنه وإنصافه.

نشرت «نولة» مذكرات أبيها على «الإنترنت» تمهيداً لطبعها فى كتاب.. وقدمت صوراً ووثائق ومستندات لحفظها وتحقيقها ضمن مشروع «ذاكرة مصر المعاصرة» الذى يتحمس له ويشرف عليه الدكتور «خالد عزب» وترعاه «مكتبة الإسكندرية» نتابع فصولاً منه على صفحات الجرائد، آخرها عن

حادث اغتيال رئيس وزراء مصر الأسبق «بطرس باشا غالى» بمختلف أبعاده وجوانبه، تشارك فيه الباحثة «صفاء خليفة».

ويلفت نظرى بعض الأسماء التى وردت فى مذكرات «يوسف درويش».

الدكتور «حامد سلطان» الذى أصبح أشهر أساتذة القانون الدولى، وكان صديقه وزميله فى مدرسة «الفرير» الثانوية بالخرنفش، وفى الدراسة الجامعية بفرنسا.. وقد حضر الاثنان بالمصادفة جلسة البرلمان التى قال فيها: «عباس العقاد» إذا وجب علينا، فسوف نقضى على أكبر رأس فى البلد (يقصد الملك)، فحوكم، ودخل السجن.

واستمعا إلى محاضرات الدكتور «محمود عزمى» الذى عمل لفترة سكرتيراً لخديوى مصر «عباس حلمى الثانى» ومندوباً فى المحافل الدولية وصحفياً رائداً.. وكان يؤمن بالاشتراكية.

وتتردد أسماء كانت شريكة فى النضال بصورة أو أخرى مثل الدكتور «عبدالرزاق السنهورى» أشهر رئيس لمجلس الدولة، و«بهاء الدين كامل» والدكتور «حسين كامل بهاء الدين» أستاذ طب الأطفال الذى أصبح وزيراً للتعليم، والدكتور «إبراهيم حلمى عبدالرحمن».. وزير التخطيط بعد ثورة يوليو، والدكتور إبراهيم سعد الدين، و«عبدالمنعم شتلة»، و«نبيل الهلالى» المحامى المشهور، و«سعيد خيال» القاضى الذى اتخذ مقال له فى جريدة «الجمهورية» بعد هزيمة يونيو ذريعة لفرض رقابة رسمية على الصحف.. و«شهدى عطية» أشهر من قتل بسبب التعذيب فى المعتقلات.

«أحمد بدرخان» و«جمال مدكور» و«كامل التلمسانى» من المخرجين السينمائيين.

و«عبدالرحمن الشرقاوى» صاحب رواية «الأرض»، و«نعمان عاشور» صاحب مسرحية «الناس اللى تحت»، و«اللى فوق» و«أحمد رشدى صالح» الأديب الذى تولى رئاسة «آخر ساعة» والنقاد: «على الراعى» و«محمود أمين العالم» والناشر لطف الله سليمان والأدباء: «يوسف الشارونى» و«أديب ديمترى»، و«رمسيس يونان»، و«جورج حنين» من الفنانين التشكيليين، و«عبدالعزيز فهمى» و«مصطفى طيبة» و«ميشيل كامل» من الصحفيين، و«محمود العسكرى» رئيس نقابة عمال نسيج شبرا الخيمة، وعدد من القيادات العمالية.

ويذكر «يوسف درويش» معركة اليسار حول ترشيح الدكتور «عبدالعظيم أنيس» أستاذ الرياضيات والمفكر اليسارى الذى أسهم فى تأسيس جريدة «المساء» مع «خالد محيى الدين»، لعضوية مجلس الأمة عن دائرة «الوايلى» إذ تخلى عن تأييده الرفاق، وفضلوا الدعوة لمنافسه «عبدالعزيز مصطفى» الذى كان رئيساً لنقابة عمال الترام.

ويروى قصة اتهامه بمحاولة اغتيال «جمال عبدالناصر» ببلاغ مدبر من «مصطفى أمين».. إذ كان الصحفى الكبير يكره الشيوعية بضراوة.

لم أعرف «يوسف درويش» شخصياً مع أنه عاش طويلاً حتى عام ٢٠٠٦، ولكننى التقيت برفيق له نفس ظروف حياته، ولد يهودياً وأسلم واعتقل، وتمسك بالإقامة فى مصر هو «صادق سعد» الذى كان يعمل فى آخر أيامه بشركة المحاريث والهندسة المجاور لمبنى الجمهورية القديم، وكنت أسعى لشراء ثلاجة بالتقسيط!!

حارة شهدى عطية

لم أقرأ الرواية بعد، فالأهم هو اسم مؤلفها «شهدى عطية»، وحياته والنهاية الدامية التى جعلته أشهر سجين سياسى قتله الزبانية بسبب التعذيب.

حكايته كانت فضيحة مصرية على أرض يوغسلافية، إذ تقدم صحفى أجنبى «طبعا» بسؤال لجمال عبدالناصر عن مقتل المعتقل السياسى «شهدى عطية»، وكان الرئيس المصرى فى زيارة لصديقه «تيتو» يحضر معه مؤتمرا يتحدث فيه عن الحرية وحقوق الإنسان، فكان السؤال المفاجأة، والإجابة النفى والاستنكار.

ولم يكن «عبدالناصر» صادقا، لأننى لا أتصور أنه لم يكن يعرف ما يدور فى سجونه بغير تحقيق.. ربما فاجأته جريمة القتل لرجل مات من شدة التعذيب وهو يهتف باسمه.. لذلك أرسل إلى القاهرة يسأل ويكون ذلك الحادث الرهيب بداية لوقف التعذيب.. الشديد طبعا!

روى شهود عيان من المعتقلين القصة فى كتب صدرت فيما بعد: «الأقدام العارية» لطاهر عبدالحكيم»، «شيوعيون وناصريون» لفتحى عبدالفتاح، و«فى معتقل أبى زعبل» لإلهامى سيف النصر، و«الأسوار العالية» لسعد زهران، و«يوميات الواحات» لصنع الله إبراهيم، و«الجريمة» لرفعت السعيد، وفى جميع المؤلفات التى صدرت عن فترة اعتقال الشيوعيين لخمس سنوات كتبها «فخرى لبيب» و«فوزى حبش» وآخرون.

بعيدا عن السياسة والسجون لفت نظرنا الشاعرالدءوب «عثمان يوسف» لعمل أدبى يدل على موهبة تاهت فى زحام الانشغال بالكفاح.

وهكذا صدرت رواية «حارة أم الحسينى»، تدور وقائعها فى الإسكندرية من تأليف «شهدى» عطية»، احتفى بها «خيرى شلبى» وإن أخذ عليها تحولها إلى بيان سياسى فج، يفسد جمالها الفنى، حيث تنتهى بـ «لا تقوللى بتاع مدارس ولا أفندية.. ولا باشوات، إحنا الصنايعية.. إحنا كل حاجة.. إحنا وبس».

وقد سبق ونشرت الرواية على حلقات فى جريدة «المساء» أيام كانت يسارية فى بداية صدورها، دون أن تذكر اسم المؤلف؛ بحجة أنه من سكان الحارة.. إما للايحاء بأنها رواية واقعية، أو من باب الإثارة، أو لأن التركيز على المعانى السياسية هو الأكثر أهمية.

بعد خمسين سنة من موت «شهدى عطية» نشرت روايته، وقصتان قصيرتان.. وعاد الحديث عن موته، وذكر أسماء الذين عذبوه وعذبوا الآخرين، فتلك جريمة لا تموت بالزمن، يمسك العار بتلابيب من ارتكبها على مر العصور.

ولعله من الأمور النادرة نشر نعى «شهدى عطية» فى الأهرام، وردت فيه أبيات من الشعر:

فتى مات بعد الطعن والضرب ميتة

تقوم مقام النصر إن فاته النصر

ولابد أنها فاتت على محرر الإعلانات وعلى الرقيب!

أما عثمان يوسف صاحب الفضل فى تقديم رواية «حارة أم الحسينى» فقد رأيته على شاشة التليفزيون فى البرنامج الجميل الذى يقدم فيه «بلال فضل» عصير الكتب وأسرار النشر، وقد أخذنى ترتيب أفكاره، ومعرفته بتفاصيل ما يقول، ودقة المعلومات التى يعرفها من واقع أرشيف، ذكى حى، واعٍ.. وقد كنت أتصور أن الشعراء يتبعهم الغاوون، ولا يدققون!

أنا بعد فاروق أتجوزك أنت؟!

لم أستطع أن أعرف ماذا كتب ملك مصر السابق «أحمد فؤاد» فى الرقم القومى الذى استخرجه عند زيارته الأخيرة لمصر؟

هل سمحوا له بلقب «ملك» الذى يتردد فى المحافل الخاصة، وعلى لسان بعض مريديه، ومن بينهم صحفيون؟

هل وصفوه بالأمير؟ وهل وضعوا بعد تلك الألقاب الفخمة اسم «السابق»؟

أم اكتفوا بكلمة «السيد» أو بدونها.. كما تعودوا مع باقى المصريين؟

وفى خانة الوظيفة.. هل تركوها بيضاء، فهو بلا عمل، أم استثنوه ووافقوا على تكريمه باعتبار الملوك والأمراء مهنة.

كيف استخرج بطاقته، وبدت صورته الجميلة بكامیرات وزارة الداخلية الكئيبة؟

بطاقة الملك حكاية صحفية لم نسمع إلا أنه استخرجها قبل أن يعود إلى محل إقامته فى مدينة «مونترو» بسويسرا.. مع أن تفاصيل الحكاية بالغة الإثارة.

هل جاء احتياجه للرقم القومى استكمالا لنية إقامته فى مصر؟ أم كانت نصيحة ممن يتشدقون بأنهم أصدقاء جلالته، ومنهم من يصر

على مناداته باسم «جلالتك» وتقديمه للآخرين بأنه ملك مصر، ولولا الملامة لأضافوا «السودان» إلى ملكه، كما كان الحال قبل عشرات السنين.

يقول «شريف الشوباشى» الذى عمل مراسلا للأهرام فى «باريس» لسنوات طويلة إنه عرف الأمير «أحمد فؤاد» جيدًا.. زاره فى بيته، والتقى به كثيرا، ولكنه لا يعتبره صديقا، على عكس الذين لم يروه سوى مرات قليلة، وربما فى لقاءات عابرة فخرجوا يتحدثون عن صديقهم الملك.

وأطلقوا على زوجته السابقة فضيلة «دومينيك- سابقا» لقب «جلالة الملكة» ينادونها به حتى فى الأحاديث التليفزيونية التى أجريت معها فى مصر.

كان «شريف الشوباشى» يناديه بسمو الأمير، فقال له «عمر الشريف» الذى كان حاضر: لماذا لا تناديه بجلالة الملك؟!

إنه حنين غامض لعودة الملكية، وتصفية حسابات مفهومة من الأمراء والأميرات الذين أضيروا بقيام ثورة يوليو، ولكن ماذا عن ملايين المواطنين الذين يتعرضون لما يشبه غسيل المخ بالحديث عن ديمقراطية زمان وسماحة الباشوات.

ربما كانت البداية المهمة مسلسل «الملك فاروق» للكاتبة «لميس جابر» والصورة الجميلة التى قدمها الممثل السورى تيم الحسن «للملك فاروق»، وفريق عمل أخرج مسلسلا ناجحا، يعاد عرضه على جميع الفضائيات.

ولفت النظر الحوارات واللقاءات التليفزيونية مع الملك السابق «أحمد فؤاد» بصورته المهيبة ووقاره الفطرى وأفكاره المرتبة وكلماته المنضبطة، مما يؤثر على المشاهدين، فيتعاطفون معه.

اعترف شاكرًا بفضل الرئيس «السادات» عليه وعلى الأسرة الملكية.. وتحدث عن الرئيس «مبارك» باحترام.. ولم يهاجم الرئيس «جمال عبدالناصر» رغم محاولات استدراجه.

● على عكس ما جاء فى كتاب «يوميات أميرة مصرية» وهى «نيفين» ابنة الأمير «عباس حلمى» الذى اشتهر بمشاكساته مع أسرته العلوية، وانحيازه لقضايا العمال، فتعرض لتجريده من اللقب أيام الملك فؤاد قبل أن يعيده إليه فاروق.. والأميرة ابنة الثمانين عاما التى أصدرت كتابها باللغة الإنجليزية تهاجم «عبدالناصر»، وتصفه بالحقود، وتحمله مسئولية جميع الخطايا، وتذكر لضباط الثورة سرقة مجوهرات الأسرة المالكة وبيعها فى أوروبا.. فيما عدا «السادات».

وفى كتاب عن «فريدة مصر، أسرار ملكة ومسيرة فنانة» تكتب صديقتها الدكتورة «لوتس عبدالكريم» حياة الملكة فريدة بعد أن صودرت أملاكها التى ورثتها عن أسرتها وليست لها علاقة بالأسرة الملكية، وسفرها إلى «جنيف» حيث تقيم بناتها فلم تجد منهن قبولا، إذ اعتبروها مسئولة عما أصاب أباهم، وبداية المظاهرات فى شوارع مصر تهاجم «فاروق» بعد طلاقه «فريدة».. واستقرارها فى باريس فى ظل ظروف قاسية تعيش على التبرعات، حتى سمح لها «السادات» بالعودة ومنحها شقة، تقول الدكتورة «لوتس» التى لازمتها فى سنوات إقامتها الأخيرة بمصر بأن السيدة «جيهان السادات» رفضت تسليمها الشقة!!

كانت فنانة تركت لوحات رسميا، بين باريس والقاهرة، كما باعت عددا منها تستعين بثمنها على الحياة.. ولم يكن مهمًا مستوى العمل الفنى وإنما أن يكون بريشة ملكة مصر.

ومع أن الظلم الذى نالها بعد قيام ثورة يوليو لم يكن على يد «عبدالناصر» الذى أمر بترك ممتلكات فريدة الخاصة حفيدة «محمد سعيد باشا» ورئيس وزراء أسبق لمصر وابنة أخت الفنان التشكيلى العالمى «محمود سعيد».. ولكن عندما ذهب «جمال سالم» أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة ومن أصحاب النفوذ فى بدايتها لإبلاغها بالخبر السعيد، وطلب منها الزواج، فغضبت ورفضت وردت عليه بقسوة: «أنا بعد فاروق أتجوزك أنت؟».. فأصابت فريدة اللعنة، وصودرت جميع ممتلكاتها.

على عكس الأميرة «فايزة» التى كانت أكثر لطفا مع «صلاح سالم»- شقيق جمال، وأيضًا عضو له نفوذ فى مجلس قيادة الثورة- فساعدها على أن تخرج بعض مجوهراتها وأموالها عند مغادرتها البلاد.

اهتمت الصحف المصرية بالملك السابق «أحمد فؤاد» وأفردت صفحات عن تفاصيل زيارته الأخيرة لمصر، وأعادت للأذهان حكايات بريئة عن الأمراء والأميرات والظلم الذى وقع عليهم، بما يشبه الاعتذار عن الماضى والحنين إلى الملكية.

على صفحات الإنترنت تطل مجموعة «الملكيون المصريون» تحت شعار العلم الأخضر بنجومه الثلاثة، وكأن الثورة لم تقم، أو كانت لعنة أسقطت واحدا وأقامت ملوكا كثيرين صغارا.

ابن رئيس وابن روائى

"طارق حجى" ابن بورسعيد، مفكر له مساهماته بكل اللغات، يتذكر أيام الدراسة وزملاءه أبناء "جمال عبدالناصر" الثلاثة.

خالد - رحمه الله - كان شديد التفوق.. وكان عبدالحكيم متوسطاً فى درجاته.. أما "عبدالحميد" فعلى الحميد المجيد.

لم يكن أحد يعرف وجوههم، مع أن والدهم كان رئيس مصر "وأى رئيس".. ولم تكن هناك امتيازات أو معاملة خاصة إلا أن المدرسة الملتحقين بها تضم أفضل المدرسين.

مضت سنوات والتقى "حجى" بعبدالحميد فى حفل زواج، تصادف أن دعى الاثنان لحضوره.. وكانت فرصة ليستشهد ابن الرئيس بزميله فى المدرسة عن خناقة قامت زمان أثناء لعب كرة القدم فى حوش المدرسة انتهت بكسر اليد اليمنى لعبدالحميد فلم تتدخل المدرسة بأى شكل ولم توجه ولا كلمة لوم للطالب الذى تشاجر.

وبالمناسبة كان زملاء أبناء عبدالناصر عندما يدعون لعيد ميلاد أحدهم ممنوعين من تقديم أى هدايا.. وكانوا يتعجبون و"طارق حجى" معهم من بساطة منزل الرئيس.

"جمال عبدالحكيم عامر" ابن المشير كان أيضاً طالباً فى المدرسة نفسها

وكان أكثر بساطة وتواضعاً يندر أن يكون له مثيل، وهو الآخر لم يكن متفوقاً فى دراسته، وكان يجلس إلى جوار "حجى" فى الفصل نفسه.

وقصة أخرى عن "حسين عبدالناصر" الشقيق الأصغر للرئيس الذى شغل منصب مدير مكتب مصر للطيران فى طوكيو، عندما زارها "طارق حجى" وعلم بوجوده من سفيرتنا وقتها "ميرفت التلاوى" التى أصبحت وزيرة بعد ذلك، ولها موقف دفاعاً عن أموال الفقراء، عندما حاول وزير المالية الأسبق "يوسف بطرس غالى" أن تضع الدولة يدها عليها بما يشكل خطراً على أصحاب المعاشات والتأمينات الاجتماعية.

دعا حسين الضيف العزيز لعشاء فى منزله، وكان متزوجاً من ابنة عبدالحكيم عامر وشقيقة زميل التختة "جمال عامر".

كان فى سنوات دراسته يعيش مع شقيقه الأكبر الرئيس، وكانت التعليمات الحازمة هى ألا يذكر صلته به أمام أى جهة رسمية.. ولكنه ذات ليلة اضطر لأن يخبر الشرطة بعنوان سكنه إذ كان فى سهرة مع أصدقائه ووقع للسيارة التى يستقلونها حادث استلزم التحقيق.

عندما عرف "جمال عبدالناصر" فى اليوم التالى بما حدث أصر على ألا يبقى أخاه "حسين" فى بيت الرئيس .

رحم الله "خالد" و"جمال" و"حسين عبدالناصر".

لست أذكر متى كتب "طارق حجى" حكاياته تحت عنوان "يوم انكسر ذراع ابن الرئيس".. ولكن يبدو أنه كان قبل سقوط "حسنى مبارك" إذ كان تعليقه على ما رواه: "كيف أن صور أعضاء أسرة رئيس مهازلستان، تظهر فى أكثر من أربعين موضعاً بعشر صحف مهازلستانية.

★★★

●● افتقدنا الروائى الجميل "خيرى شلبى"، وكتب عنه الأدباء الذين عرفوه إنساناً ومبدعاً، وبحث القراء عن رواياته، وكتبه ومقالاته التى كان قد فاتهم قراءتها، وترحم الجميع على "فاطمة تعلبة" بطلة مسلسل "الوتد"، المأخوذ عن أحد أعماله الأدبية، وكذلك "سارق الفرح" الذى أخرجه "داوود عبدالسيد"، ولكن ابنه "زين العابدين" كتب قصة مختلفة توقفت عندها.

على الرغم من أنه نشر عشرات القصص القصيرة فى ملحق يوم الجمعة بالأهرام عبر سنوات طويلة، إلا أنه كان يود لو يكتب على صفحاتها مقالاً أسبوعياً، وهو ما تحقق قبل وفاته بشهور قليلة بعد اتصالات مع الأستاذ "أسامة سرايا" رئيس التحرير وقتها.. ولكن بعد قيام الثورة فوجئ باسمه مستبعداً من الكتابة - مع آخرين - دون كلمة اعتذار.

رفض "أمير الحكائين" أن يظهر غصته لأحد،ولكن ابنه "زين العابدين" أفصح عنها وفى "الأهرام".

ماذا لو أننا تلفتنا حولنا، ونحن نتخذ قرارات تجرح النفس، فنتريث ونحنو ونتذكر عطاء الذين بذلوا جهداً وعرقاً، وننسى أن الفرسان يطلق عليهم الرصاص بعد سن الستين!!

●● يعجبنى الشاعر الفلسطينى "مريد البرغوثى" والد الشاعر الشاب الثائر "تميم"، وزوج الدكتورة "رضوى عاشور" أستاذة الأدب الإنجليزى بجامعة عين شمس صاحبة المواقف الوطنية.. أستمتع بكلماته، وقد أختلف معه فى الرأى.

ولد فى قرية صغيرة قرب مدينة "رام الله" وتعلم فى مدارسها، ثم جاء إلى القاهرة فقامت حرب يونيو والاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية.. لم يعد إلى وطنه إلا بعد ثلاثين عاماً قضاها فى أكثر من منفى، وعندما عارض اتفاقية "أوسلو" دخل السجن فى مصر أيام السادات، وتم ترحيله من البلاد.

أصدر أكثر من ديوان شعر وكتاب، نشرت منها دار الهلال "رأيت رام الله"، وفيه قال: "نجحت فى الحصول على شهادة تخرجى، وفشلت فى العثور على حائط أعلق عليه شهادتى".

آخر ما قرأته لمريد البرغوثى على "تويتر": متابعة الإعلام الفلسطينى هذه الأيام تذكر بإعلام مبارك، كما أن ميادين مدن الضفة الآن نسخة من ميدان "مصطفى محمود".. ولكن بدون "غادة عبدالرازق"!!

بلاش يتحرقوا فى قطر الصعيد

قضيت سهرة مثيرة ممتعة مع شاعر جميل بصدور أعماله الكاملة، التى لم تنته، فمازال عطاؤه مستمرا، ومازالت مشاعره متوقدة، بدليل أنه يعدنا بالمزيد، ويضم قصيدة جديدة إلى ما سوف يصدر من أشعاره.

ميزته الأولى أنه يعيش بين الناس، يعبر عن نفسه وعنهم من خلال تأثره بمواقفهم، فتخرج كلماته من اللسان إلى القلب، ولعل ذلك ما جعل محبيه يتطلعون إلى الاستماع إليه، وهو يغرد شعرا فى كل مناسبة.

آخر قصائده، ولو أنه بإنتاجه الغزير وانفعاله الدائم لا يتوقف عن الكتابة والكلام..

يقول ملتاعا عاشقا يائسا، متفائلا:

مش لاقى منى غير شوية لحم فى اكتافى

بلاش يتبعتروا فى البحر

بلاش يتحرقوا فى قطر الصعيد، فى العيد

ويغنى «جمال بخيت» فى حب مصر، وشعب مصر، ويعمل مسحراتى لنا وللعرب، ويقف عند شباك النبى، ويشرب حليبا قبطيا، ويضع كلماته على لسان المطربين والمنشدين.

فى بيانات بطاقته الشخصية جنسيته بغير حدود، يعيش بوجدانه فى

فلسطين، يحلق على أرواح المجاهدين والشهداء، ويقف إلى جانب الشعوب، وعندما سقط تمثال «صدام حسين» فى بغداد، قال «عقبال سقوط باقى التماثيل».

هل عرف الشاعر المعتقل، أم أحس به وانفعل؟

ف المعتقل من ألف جيل
باكسر جبال المستحيل
ولا يوم وصلت لتهمتى
ولا يوم لقيت سكة هروب
غير فى الغروب
الموت ييجى ف الميعاد
ويمد كفه ما ينتهى
غير لو أخد ما يشتهى
ويكون سكوتك فى الكفن
هو الثمن
علشان تسيب المعتقل!!

لم يبق إلا الجنيه، ينعيه «جمال بخيت» بعد أن كان «شديد ويشيل حديد.. وفى آخر العمر سموه حمام، لأنه كان يطير أوام»

مات الجنيه

وألف رحمة ونور عليه.

قصائد ممنوعة

الحمد لله أن أجيالا كثيرة لم تعرف معاناة الهزيمة والخديعة التى شهدناها وكسرتنا فيما سمَّوه «نكسة يونيو».

الأكثر إيلاما هو ضياع الحلم الجميل الذى بدأ مع قيام ثورة طلائعها جنود الجيش.

صدقنا وتحمسنا وملأ الإيمان قلوبنا، فإذا بعشرات الألوف من أبنائنا يستشهدون، وتنزف دماؤهم على رمال سيناء دون أن تتاح لهم فرصة واحدة للحرب أو حتى الدفاع عن النفس. خدعوهم حتى الموت!

عدت إلى كتاب «نزار قبانى، وقصائد ممنوعة» للكاتبة المهمومة بقضايا الوطن والإنسان والمرأة «نوال مصطفى»، فأولى القصائد المنوعة كانت «دفاتر على هوامش النكسة» صدرت الأوامر بمصادرتها، واتهموا الشاعر بأنه المسئول الأول عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ بما نشره خلال عشرين عاما من شعر عاطفى ساعد على الانحلال.

لم ينقذه سوى «جمال عبدالناصر»..!!

تقول القصيدة:

«إذا خسرنا الحرب، لا غرابة
لأننا ندخلها
بمنطق الطبلة والربابة

وتقول:

لو أحــــــد يمنحنى الأمــــــان
لو كنت أســتطيع أن أقــابل السلطان
فــــــــــلــــــــــت لـــــــــــه:
يــا ســـــــيــــــدى الـسـلـطـان
كــلابك المفــتــرسـات مــزقت ردائى
ومـــــخـــــبـــــروك دائمـــــا ورائى
لقـــد خــســـرت الحـــرب مـــرتين
لانك أنفـصلت عن قـضـيـة الإنسـان»

وقصيدة أخرى أثارت أزمة وجددت الهجوم على «نزار قبانى» ممن سمَّوه شاعر النهود وقمصان النوم وسماهم هو «شعراء الشنطة» مع أن عنوان القصيدة «متى يعلنون وفاة العرب» ويقول فيها:

أحــــــــــــــــاول رســم بـــلاد
تـســمـى - مـــجــازا - بلاد العـــرب
لهــــا بـرلمان من اليـــاســـمـــين
ولا يتـجول فيها العسـاكر فوق جبينى
أحـاول منذ كنت طفـلا، قـراءة كـتـاب
فلم أر إلا قصـائد تلحس رجل الخليفة
ولم أر إلا جرائد تخلع أثوابها الداخلية

كتاب جميل لنوال مصطفى، ولو أنه صدر من سنوات، ولكنه مازال يصلح لهذا الزمان!

بورنو ببلاش

استطاعت «فاطمة» أن تهرب رسالة استغاثة من داخل أسوار السجن الرهيب أبو غريب، تروى فيها ما تتعرض له وزميلاتها فى الأسر من اغتصاب وانتهاك للأعراض من جنود الاحتلال الأمريكى، وسط صمت عربى وإسلامى وعالمى مهين.. تسأل فاطمة: هل «أنتم حقا لا تعلمون»؟!

واختار الشاعر الشاب المبدع «أحمد عبدالحكم» أن يعبر عن مشاعر، يمتزج فيها الغضب باليأس فى قصيدة نشرها للناس، وتصدر فى ديوان شعر جديد، عنوانها **«بورنو ببلاش»**:

بنت عريانة بتصرخ وا .....
ولا معتصم يسمع نداها
يرد الآه
كان عمرها لسه
وردة بتتشق هوا الرحمن
كل الورود نزفت دمها العربى
كل الورود كتبت
نعيها على الجدران
مشهد حقيقى ولاّ نصه خيالى

ملاك على الأرض مسه شيطان
مشهد حقيقى ولا كله خيال
شوف المناظر والصور
بورنو ببلاش
والفرجه ليك - عليك
ياغبى
الليلادى
افرد غطاك واتدفى
واما البنات تتكسر
اغرس الصبار على قبر أوطانك
طول ما السكات غيتك
ورعشة الخوف نشوتك
وعيونك مشربية
غطى فى بناتك قد ما تغطى
أيام وحتعدى
سجن أبو غريب ح يبقى القناطر
وابقى لو شاطر
اتفرج ساعتها ببلاش..

●● وما بين رسالة «فاطمة» التى نشرت أجزاء منها صحيفة أمريكية، إلى قصيدة أحمد عبدالحكم التى تتزف دموعا ودما لا أجد ما أقول.

صباح يوم حزين

لم أشأ أن أكتب النعى مقدما، لم يطاوعنى قلبى وقلمى، ولكننى كنت أنتظر الخبر الحزين كل لحظة، وأدعو له ألا يشتد الألم، والشفاء بأمر الله، والرحمة من عنده.

تابعت آمال وآلام «رجاء النقاش» الكاتب المبدع، صاحب الأيادى على جيل بأكمله، لفت أنظارنا لمواهب أدبية أصبحت من كنوزنا العربية، مثل «محمود درويش» من فلسطين، و«الطيب صالح» من السودان و«أحمد عبدالمعطى حجازى» من مصر، وآخرين التفوا حوله، وبحث هو عنهم، ليساعدهم ويقدمهم للناس، ويثرى أيامنا بمختلف فنون الأدب والثقافة، ناقدا ودارسا ومكتشفا ليس له مثيل.

لم أقدر على سؤاله عن مرضه الذى يشتد وعلاجه الذى يستلزم الصبر، وتدهور أحواله وسط محاولات مستميتة لإيقاف الغول الذى يأكل الجسد.. ولم أقدر على سؤال أسرته وبينى وبينهم زمالة قديمة وود يقوم على الاحترام.. فكنت ألجأ لصديقه الأثير وصديقى «محمود سالم» الكاتب والصحفى النبيل فأعرف منه كثيرا، مما لا يسر، وقليلا مما يبعث على الأمل فى أن يبقى لنا «رجاء النقاش» قيمة لا تتكرر.. وكان «محمود» يتابع الحالة عن قرب ويشارك مع آخرين من محبى الإنسان والكاتب الكبير فى البحث عن سبل للنجاة أو حتى تخفيف الآلام.

رحمه الله

كذلك فاجأنى فارس القلم النبيل «مجدى مهنا» بمرضه الخبيث، وقد حاول جاهدا أن يخفى الأمر عنا، حتى لا يزعجنا، أو حتى يشغل بالنا، بل إنه ظل لفترة طويلة يحاول جاهدا ألا يشغله الوحش المتربص به عن رسالته التى وهب نفسه لها، وهى صدق الكلمة وشجاعة الموقف، وهموم الوطن.

كل من عرفه أحبه واحترمه، حتى الذين هاجمهم بضراوة.

حاول أصدقاؤه المخلصون نصحه بأن يخفف من قسوة كلماته، فكان يبتسم ويصر ويرى أنه فرض عليه أن يستخدم كل ما يسمح به من حرية.. وكأنه كان يعرف أن سنوات عمره محدودة.

لم يعد ممكنا إخفاء مرضه الشديد، الذى كان كامنا لم يكتشف إلا بالصدفة، بعد أن كان الحل الطبى هو تغيير الكبد.. ومع ذلك لم يعرف كثير من قرائه حقيقة ما يواجهه كاتبهم الأمين، أكثر من عبر عن وجدانهم فى الفترة الأخيرة، إلا بعد أن اضطر للتوقف عن الكتابة يوما ويعود، ثم أياما ولا تتحقق الوعود بعودة عموده «فى الممنوع».. كان طوالها فى غرفة الإنعاش تحت رعاية الأطباء، ودعاء الأصدقاء والقراء.. فقد جسده الوعى.. ولكن المؤكد أن روحه كانت تحس بالحب واللهفة ومشاعر الذين عرفوه نقيا قويا واعيا، والذين لم يعرفوا سوى كلماته على الورق وما كان أصدقها وأشجعها.

وفى صباح يوم حزين شيع جثمان «رجاء النقاش» و«مجدى مهنا» رحمهما الله.. ويرحمنا.

مَنْ الذى لا يحب أنيس؟!

لم يصعد "أنيس منصور" إلى السماء وحده، وقد كان غيره كثيرون لا نعرفهم.. غاب عن الدنيا أيضاً فنان الكاريكاتير المبدع "حجازى".

لم يكن قد مضى سوى أيام على مقتل "معمر القذافى" فى أبشع صورة، ولست أعتقد أن أحداً قرأ عليه الفاتحة.

كانت التعليقات الشخصية على وفاة "أنيس" تسأل له الرحمة، واللهم املأ قبره بالرضا والنور والفسحة والسرور، بينما لحقت اللعنات بالقذافى، ولم يذكر عنه سوى صفحات من كتاب وزيرة خارجية أمريكا السابقة "كونداليزا رايس" الذى صدر بعد أيام تحت عنوان "لا شرف أكبر" no higher honor، ذكرت فيه أنها كانت موضع "إعجاب غريب" من العقيد، سماها الأميرة الأفريقية، ودعاها لعشاء خاص على أنغام "وردة سوداء فى البيت الأبيض".

أثار موته موجة من التعليقات الساخرة، مثل "مبروك لبشار الأسد وعلى عبدالله صالح صعودهما للمباراة النهائية".

أما "أنيس منصور" فقد أحبه الملايين، واختلف معه كثيرون، ولكنه ظل يعطى ويسعد ويثير الجدل حتى آخر يوم فى حياته.

بحثت عما كتبه "سمير عطا الله" جاره فى الصفحة الأخيرة بجريدة "الشرق الأوسط" وأنهاه بوداع: كم من الضوء كان يأتينا من نافذتك كل يوم.

هل تكفيه مقالاته اليومية عبر السنوات الطويلة، أم كتبه التى بدأت بالرحلات حول العالم، فأخذنا نلهث وراءه أو رائعته "فى صالون العقاد، كانت لنا أيام" أو "ناصر المفترى عليه والمفترى علينا".. ودعنا من فصله أيام عبدالناصر؛ بسبب مقال عن سوء فهم أو سوء قصد، فمن منا لم يفصل ويعتقل؟.. ودعنا من دعوته للتطبيع مع إسرائيل فلم يبق منها سوى ذكريات وحواديت.. ومع ذلك فمن الذى لا يحب أنيس منصور.

وكأنه يرثى نفسه، ويرثينا كتب أنيس منصور فى آخر أعمدته:

ما الذى خرجت به من هذه الدنيا؟ لا أحد يخرج منها بشىء.

الدنيا أخذ وعطاء. الذين يأخذون يعيشون أحسن.

والذين يعطون ينامون بعمق.

كل الظلام فى هذه الدنيا لا يستطيع أن يطفىء شمعة مهما أنجزت فى هذه الدنيا فهناك دائماً من هو أفضل منك.

حب الناس فى دمى

مازلت أذكر لقاءنا الأخير رغم مرور الزمن.

أيام فى لندن التى لم تكن زيارتى لها هى الهدف، وإنما ذريعة للاطمئنان على صديق سبق إلى هناك، على أمل أن يعود إلينا كما وعدنا، بعد الشفاء.. ولكن بقاءه هناك طال.

وكأننا لم نفترق..

السؤال عن الأحوال والحنين إلى أحاديث الندوات الجادة والسهرات البريئة تجلجل فيها ضحكاته.. واللهفة على أخبار الأعزاء والزملاء بالتفصيل، حياتهم الخاصة وأعمالهم الأدبية.. وكأنه يستحضر مصر كلها فى غربته.

سرنا فى شوارع المدينة التى أصبح يعرفها جيدا، وجلسنا على دكة خشبية فى حديقة عامة بينما طفله «خالد» يلعب، ولم تغب عن مجلسنا حكايات باسمة عن ابنته الكبرى «صفاء» وكيف أصبحت فى بلاد الإنجليز.

طول الوقت، وليس فى بالى سوى موضوع واحد هو مرضه الذى فاجأه، وحاول مقاومته وهو يعيش بكل قوته معنا ومع إبداعاته.. حتى اشتد ووضحت صورته، ولم يكن للفشل الكلوى، وقتها علاجٌ شافٍ، فلم يصبح أمامه إلا أن يذهب إلى لندن بعد إلحاح الأصدقاء والأطباء، وهو لا يستجيب، لأنه لا يطيق الغربة.

اكتشفت فى ذلك النهار أننى أخطأت إذ نسيت أن «فاروق منيب» الأديب الجميل إنسان أجمل، رسالته فى الحياة هى التفاؤل، وأن غدا أفضل.. فما إن سألته حتى أفاض - كعادته - فى شرح طبيعة المرض ومراحل العلاج وفرص الشفاء ليعود من جديد، أكيد بإذن الله يحمل معه أوراقه الأدبية التى لم يتوقف عن كتابتها لحظة واحدة، حتى وهو فى غرفة مغلقة يقوم فيها بنفسه، بتغيير دمه وتنقيته مرتين كل أسبوع، بعد أن تم تدريبه على غسيل كليته المريضة، لم يفارقه الحلم، رغم الألم.

دعانى لسهرة من نوع خاص لمرافقته فى تلك الغرفة الزجاجية.. وربما كان هذا هو آخر ما أذكره، إذ عدت إلى القاهرة ينتابنى قلق شديد عليه وعلى «ثريا» الرقيقة زوجته وزميلتنا فى جريدة «المساء» التى تركت كل شىء، وتبعته إلى أى مكان، أحاول أن أتمسك بأهداب الأمل الذى يملأ قلبه والتفاؤل الذى يشعه دائما علي من حوله.

ومات «فاروق منيب» قبل سنوات طالت، ولكن أعماله مازالت بيننا تبقيه حيًا دائمًا، ولعله يغفر لأصدقاء عمله إن كانت قد شغلتهم الحياة الدنيا، فلم يذكره سوى الروائى المبدع «خيرى شلبى» فى مقال يعرِّف به الأجيال الشابة بقيمة راحل عظيم فى عالم الأدب والإنسانية.

عناوين بعض مجموعاته القصصية تعكس روحه من «زائر الصباح» إلى «عابر سبيل» وفيما بينهما «أحزان الربيع».. وقد صدر آخر كتبه «أيام الأمل» بعد وفاته، تاركا لنا تجربته الخاصة جدا مع المرض دون أن ينسى ما يجرى حولنا، فما يصيب المجتمع أكثر قسوة على الإنسان من أى مرض يصيبه فى جسده.

يروى معاناته الخاصة، مختلطة بأحزانه العامة، حيث من يتبارون فى النفاق، يهرولون فى سبيل مصالحهم الذاتية إلى حد الإذلال.. ويسأل: أمِن أجل حفنة من الفضة تخونون الشعب؟.. إنكم أبناء حرام، وأوغاد.

هوايته هى الحبر والورق والثرثرة.. البولينا فى دمه وحب الناس فى دمه.. رحمه الله.

خايفة على مصر

لا أذكر على وجه التحديد متى رأيتها أول مرة، ولكن وجهها لم يفارق خيالى حتى ماتت، فتحتْ باب الغرفة، وأطلت برأسها تسبقها ابتسامتها تستأذن فى الدخول ولو أنه بيتها.. عاشت دائماً فى "الجمهورية" جريدة الثورة، حتى عندما تركتها لسنوات بإرادتها لتنشىء وكالة أنباء خاصة.. أو بسبب رياح التغيير فى الصحف التى كان أول ما تفعله هو أن تفصل بعض الكتاب والمحررين، كانت "سعاد منسى" ثائرة بطبيعتها، شاركت فى حملة المطالبة بإلغاء معاهدة ٣٦ مع الإنجليز، وأضربت عن الطعام مع أنها كانت فى بداية عملها الصحفى محررة بجريدة "المصرى" الوفدية ورئيس الحكومة وقتها مصطفى النحاس باشا زعيم الوفد. وقفت إلى جانب البسطاء طول عمرها.. لم تتغير، أعود إلى أول لقاء معها، وكنت أعرف اسمها ونشاطها ومواقفها، ولا أتصور أنها تبدو بتلك الرقة والسماحة وهى تحمل دائماً حقيبة فيها كل أوراقها وكتبها التى كانت تصدرها عادة على حسابها الخاص عندما تعجز عن التعبير بالقلم عن أفكارها فى الصحف، فرقت بيننا السنوات، ونسينا بعضنا البعض، وأصاب كثيراً منا إحباط، وتغيرت الدنيا، ولكن سعاد بقيت كما هى نموذجاً مشرفاً للصحفيين الوطنيين الذين لم ينافقوا أو يحققوا ثروة، كان قد تقدم بها العمر عندما انتقدت حكومة "أحمد نظيف"، قالت إنه أصبح فى مصر أربع عواصم: القاهرة والقرية

الذكية وشرم الشيخ والإسكندرية التى أهملناها، ووجهت خطاباً للرئيس السابق "حسنى مبارك" تحذر فيه مما ينتظر البلاد، صارخة إنى خائفة على مصر الجائعة، ثم رأيتها أو على الأصح صورتها وهى تسير فى مظاهرة مع شباب الصحفيين؛ احتجاجاً على قوانين الحبس فى قضايا النشر.. كانت تزحف وقتها نحو التسعين ربيعاً من عمرها الذى كان نهاية أجلها.. رحمها الله، لم تنقطع صلتها يوما بالجمهورية رغم أن سنوات عملها فيها كانت محدودة، وكذلك لم تنقطع صلتها بنقابة الصحفيين يوماً، كثيراً ما اتخذتها مقرا لانطلاقها حباً للوطن وللمهنة التى نذرت نفسها لها، نسيناها جميعاً، كما ننسى من يضحون فى سبيل حريتنا، كتب عنها النقابى "يحيى قلاش".. وسألنى الزميل الجاد "أحمد المنزلاوى" عن فترة عملها فى "الجمهورية" لأنه لم يجد فى أرشيف الجريدة ووثائقها، ما يشير إلى سنوات ارتباطها بالجريدة سواء تعيينها أو إبعادها، كانت ثائرة لا تهادن بقدر ما كانت هادئة ودودة.

"سعاد منسى" ليست وحدها؛ فهناك كثيرون مثلها فى مجالات مختلفة، هم الذين يصنعون حياتنا لنتمسك بالتاريخ ليس من باب الوفاء، وإنما نورٌ يهدى فى زمن تحول كل شىء فيه إلى تجارة وصناعة.. حتى الصحافة! أحسب أنها سعدت بثورة التحرير وشاركت فيها.. تنظر إلى أولادها فى الميدان راضية، تقطع الطريق بين بيتها ومكتبها القريب فى شارع قصر العينى تتوكأ على عصا، تبتسم ابتسامتها الأخيرة.

وفاة سامية فهمى

عرفتها مصر بعد أن اقترب منها الموت بالاسم الذى اختاره لها الكاتب الراحل صالح مرسى فى آخر مسلسلاته التليفزيونية ،وقامت بدورها الفنانة منة شلبى، ولقد عرفتها بعض الوقت زميلة صحفية قدمها لى الصديق وحيد غازى، الذى لم أعد أسمع عنه، وأخشى أن يكون قد استبد به المرض.. فقد كانت ليلى عبدالسلام نائبة رئيس تحرير جريدة الأحرار.

عندها حكايات، ولديها اتصالات تجعلها صحفية إخبارية متميزة، ولكنها كانت محبطة وهذا هو حال أبناء وبنات جيلنا الذين لم يحققوا أحلامهم.

فلما عرض مسلسل "حرب الجواسيس" والتف حوله الجمهور بدأ القول إنه مأخوذ عن قصة حقيقية لصحفية مازالت تعيش بيننا، واختلفت التوقعات ما بين أنها دعاية للعمل الفنى، إلى ذكر أسماء من بينها زميلة لنا فى جريدة "المساء" حتى تأكد أنها ليلى عبدالسلام.

بعدها قرأت نعياً فى جريدة الأهرام للكاتبة الصحفية جازية عبدالسلام سالم الشهيرة بليلى رحمها الله.

ذهبت فى شبابها إلى إيطاليا لشراء سيارة فيات بسعر رخيص، كما كان معظم الشباب أيامها يفعل هناك، التقطها "ماريو" الذى قام بدوره فى المسلسل "باسم خورى" الممثل السورى العملاق، وعرض مساعدتها وقدمها لآخرين، بدا أنه لا يعرفها، وإنما هى مصادفة، لقاء وكلام فى مطعم صغير،

ثم تطور الأمر إلى إغرائها بالعمل مراسلة صحفية لوكالة أنباء أجنبية.. طلبت منها موضوعات تجيب عن أسئلة أثارت شكوكها، إلى جانب أنها اكتشفت أن ما حدث مصادفة فى لقاء مطعم أنيق كان مدبراً.. أبلغت السفارة المصرية، واتصلت بها المخابرات بعد عودتها إلى القاهرة، وانتظرت وصول ماريو لإكمال المشوار، وتم تسجيل اللقاء باتفاق مع أجهزة الأمن، وألقى القبض عليه، واتضح الاسم الحقيقى «صائد الجواسيس» هو مجدى فهمى حكم عليه بالسجن خمساً وعشرين سنة حيث مات.

لم تتزوج ليلى عبدالسلام وهذا اختيارها.

ولم تستقر فى صحيفة قومية، وتحصل على ما تستحقه من مكانة؛ ليس فقط لدورها الوطنى وإنما أساساً لكفاءتها المهنية، وهى ترى أن التعيينات والترقيات حتى فى الصحافة كانت بالواسطة.

وعندما اشتد بها المرض لم تجد من يقف إلى جوارها.. لم تكن تتوقع.. وربما لم تحس بالمرارة، فقد أدت واجبها دون أن تنتظر أو تطلب أجراً.. أحسب أنها لقيت ربها راضية عن نفسها.

أتوقف عند قولها فى حديث تليفزيونى: إنه لولا صديقتها الأميرة شامة بنت الشيخ زايد التى ساعدتها على مصروفات علاج السرطان، لم تكن لتقدر عليها مع أنها أصلاً بنت ناس ومستورة من الأول.

فى مثل حالتها يكون العلاج على نفقة الدولة تكريماً وعرفاناً.. أم أنه كتب علينا أن نترك أبناء الوطن المخلصين يصارعون وحدهم فى آخر حياتهم، بينما تتدفق الأموال على من لا يستحق؟!

إنها حقًا عيون وقحة!

ليته مشى فى جنازته ليعرف تقدير الأحياء له.. ولكننا للأسف لا ندرك قيمة الرجال إلا بعد أن يغيبوا.

ولولا أن الصحفى الأديب الراحل "صالح مرسى" قدمه لنا فى مسلسل جميل بعد أن غير اسمه من "أحمد الهوان" إلى "جمعة الشوان" لما استقرت بطولته فى وجداننا.

كان صالح أبرع من قدم روايات عن قصص المخابرات والتجسس، فكان يمشى على الشوك ما بين انطلاق الخيال الفنى، والالتزام بأسرار الأمن.. كتبها أيضاً فى "رأفت الهجان"، وأخيراً فى "حرب الجواسيس"، ولأن النص بديع فقد نجحت تلك المسلسلات وبقيت فى الذاكرة عبر السنين، كما انطلق محمود عبدالعزيز، "الجمال" الذى تغير اسمه إلى "الهجان".. وتابع المشاهدون بشغف شريف سلامة ومنة شلبى، "ليلى عبدالسلام" التى تغير اسمها إلى "سامية فهمى".. أما عادل إمام فكان دوره فى "دموع فى عيون وقحة" لا ينسى، لنعرف بعدها أن الريس زكريا ضابط المخابرات الذى تعامل معه، وقام بدوره صلاح قابيل هو محمد عبدالسلام المحجوب أشهر محافظ للإسكندرية.

أبطال يتحولون إلى مجهولين، يعانون مما يلقونه من نسيان، ولا نذكرهم إلا بعد فوات الأوان.

"أحمد الهوان" قضى سنواته الأخيرة مريضاً يبحث عن علاج، لم يعد قادراً على توفيره.. ومع كل ما قدم لمصر معرضاً حياته للخطر لأكثر من عشر سنوات، فى قلب عدو شرس، حتى انتصر عليه وحصل على جهاز حساس جديد سلمه للمخابرات المصرية ينهى بذلك مهمته الوطنية، وترسل إلى الموساد الإسرائيلى رسالة شهيرة: من المخابرات المصرية إلى تل أبيب: نشكركم على تعاونكم معنا طيلة السنوات الماضية عن طريق رجلنا "جمعة الشوان" وإمدادنا بجهازكم الإنذارى الخطير، وإلى اللقاء فى جولات أخرى.

لم يسأل أحد عن "أحمد الهوان" وغيره كثيرون يسافرون للعلاج فى الخارج على نفقة الدولة.. وبأضعف الإيمان يدخلون المستشفيات الاستثمارية فى مصر حتى يتم الشفاء.. ويتردد أن هناك من لم يكن فى حاجة للسفر، ولكنها فسحة على حساب الشعب تمولها الحكومة تعبيراً عن الرضاء وبالواسطة.

فلما مات تذكرناه، وتم تشييع جنازته ملفوفاً فى علم مصر، وتقدم صفوف المشيعين رئيس المخابرات العامة.. انتقل جثمانه بعدها إلى مسقط رأسه السويس، ليسير أهله وأحباؤه فى جنازة شعبية خرجت من مسجد الغريب يتقدمها أيضاً المحافظ.

ليته مشى فى جنازته ليعرف تقديرنا له.

تغريدة على "التويتر" تقول: جمعة الشوان مات بعد ما شحت العلاج سنين على الجرايد والتليفزيونات، بينما طلعت زكريا اتعالج على نفقة الدولة!

مع التمنيات بالشفاء للفنان رغم مواقفه!

ضياء الدين داوود

لم أكن أعرف "ضياء الدين داوود" شخصياً، ولكنى تابعت تاريخه السياسى من بعد، وتأثرت بصلابته وإيمانه بمبدأ لم يعد يحقق مغنماً.. لم يتغير أو يتحول أو يصبح بوقاً لكل عهد ورئيس، مثلما فعل غيره ممن كتبوا مؤلفات عن الاشتراكية، ثم انقضوا عليها وجعلوا من جمال عبدالناصر إلهاً، ثم هرولوا فى ركاب "أنور السادات" إلى أن انتهى بهم الحال خدماً فى بلاط "حسنى مبارك" بل و"أحمد عز"!

وصل إلى قمة النفوذ السياسى عضواً باللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى، وكان أيضاً تنظيماً ورقياً، انكشف بوفاة عبدالناصر المفاجئة، فاختاروا "السادات" رئيساً دون اقتناع أو حتى محبة.. يقول "ضياء الدين داوود": إنه "لم يكن أمامنا سواه".. فلما تنبه والآخرون إلى خطره عليهم قبل الوطن، تمرروا وتصوروا أنهم يحكمون؛ فمعهم قائد الجيش ووزير الإعلام ومسئول التنظيم السياسى الوحيد وكل من يملك زمام البلد.. لم يعرفوا أنهم أيضاً من ورق، إذ قبض عليهم بليل، وحوكموا على عجل، وسجنوا طويلاً فيما سمى مؤامرة مراكز القوى، وأحياناً ثورة مايو المجيدة.

قضى "ضياء الدين داوود" عشر سنوات فى السجن، وكان يمكنه أن يخرج بعفو خاص، لو أنه استرحم واستغفر، ولكنه رفض.. كذلك كان موقف "محمد فائق" و"سامى شرف" وآخرين.

وعندما خرج فى يومه وموعده، واصل الدفاع عن الناصرية، وظل رئيساً للحزب وأباً للجميع فى ظل خلافات وانشقاقات كالعادة.. وأصدر جريدة "العربى" ترفع راية

الكلمة الشجاعة النظيفة.. على صفحاتها ارتفع أول الأصوات، تنبه لمؤامرة التوريث، فاستحقت واستحق العقاب.

جرت محاولة لإغرائه بتعيينه عضواً بمجلس الشورى كرئيس لأحد الأحزاب السياسية فرفض دون تردد.. كذلك كان موقف "أسامة الغزالى حرب" الذى سبق واستقال بشجاعة من أمانة السياسات المدللة بالحزب الوطنى، وحاول تشكيل حزب معارض، فلم يمكنوه وأرى اليوم ابناءه ثائرين فى ميدان التحرير، وعندما أرادوا إعادة استقطابه بتعيينه عضواً بمجلس الشورى والتمتع بالحصانة رفض دون تردد.

وجاءت لحظة الانتقام عندما قرر "ضياء الدين داوود" دخول انتخابات مجلس الشعب عن دائرته التى ولد فيها، وافتتح مكتباً للمحاماة، ولم يغترب عنها أبداً «الروضة» بمحافظة دمياط، تربصوا به ولم يسمحوا لشعبيته أن تحمله إلى المجلس فأسقطوه بالتزوير.. ولم يكن هذا كافياً، وإنما تعرضوا له بالضرب والإهانة وهو رجل محترم وقور بلغ من العمر الثمانين.. لابد أنها كانت تعليمات عليا، واهتماماً خاصاً أن يعتدى عليه رجل أمن فيقع على الأرض، ثم استبد به المرض، رحمه الله.

رأيته مرات قليلة عابرة من زمن بعيد، عندما كنا نقضى الصيف فى "رأس البر"، وله هناك شقة متواضعة كان يزوره فيها صديقه وصديقى الصحفى الناصرى "عبدالله إمام" صاحب المؤلفات الباقية عن رجال ثورة يوليو، وأول من عمل على إصدار صحيفة "العربى".

وسمعت قصة مذيع صوت العرب الذى لم يكن له فى الناصرية الكثير، ولكنه ذهب لإجراء حديث مع "ضياء الدين داوود" فى مكتبه بالاتحاد الاشتراكى.. ولقد أعجب المسئول الكبير بالشاب الطموح، فسأله تحب تسافر ألمانيا؟.. طبعاً يا ريت.. هكذا انضم إلى البعثة الإعلامية الحزبية الشهيرة التى سافرت إلى "برلين" عاصمة ألمانيا الشرقية وقتها، والتى ما إن استقرت حتى تغير الحال فى القاهرة، وأصبح كل من هو ناصرى متهماً، ومن سافر فى البعثة خطيراً.. وكان لابد أن يعودوا قبل الأوان ليقبض على بعضهم فى المطار، ويفصل جميعهم من العمل، أو ينقلوا لأعمال أخرى بعيداً عن الإعلام، فكان "منير مصطفى" واحداً منهم حتى ولو كان اختيار ضياء داوود له مصادفة.. سافر للعمل فى الدوحة ثم واشنطن وعمل بصوت أمريكا وأحيل إلى المعاش.. وأصبح صديقى يذكر ضياء الدين داوود بكل خير واحترام!

محمد مصطفى

لم أكن أقرأ صفحة الوفيات فى شبابى، فقد كانت كل أحلامنا أفراحا..

عندما تقدم العمر، وبدأ رفاق الطريق يتركوننا إلى رحاب الله، حرصت على متابعة أخبارهم، فمنهم من غاب عنى وغبت عنه، لأكتشف عند فقده أن جزءا منى يقتطع.

أدمنت صفحة الوفيات، ولو أننى فى الفترة الأخيرة لم أعد أجد فيها أحدا من أبناء جيلى، وكثيرا ما كنت أطويها، أقول لنفسى - ساخرا - لم يعد سواى!

فقدت أعزاء أضافوا لقلبى الأحزان، ولم أستطع أن أمسك بالقلم أنعى واحدا منهم، عجزت لفرط تأثرى عن إعلان عواطفى، ثم عجزت بسبب الصحة والسن عن المشاركة كما أحب فى واجب العزاء.. كان القلب يبكى فى صمت، فكل صديق ذهب تركنى وحيدا عاريا، يزداد بفقده إحساسي بالبرد في هذه الدنيا.

الأصدقاء أعمدة تتكاتف مع بعضها البعض، تعطى إحساسا بالأمان.. وعندما يتساقطون أبدو معلقا فى الهواء بلا سند أو كيان.

قد لا تلقاه عاما كاملا أو بضعة أعوام يمكن أن تطول، ولكنه موجود، رصيدك فى الحياة.

عندما حدثنى شقيقه، أدركت أن أمر الله وقع، فانقبض قلبى.. إذن لم يفد

دعائى ودعاء الألوف من محبيه، ولم يستطع أمهر الأطباء أن يوقفوا الهجمة الشرسة على جسده فقد اختاره الله إلى جواره.

ما أقسى الدنيا على الذين يشيعون أحبابهم، وما أكثر الذين تركونا وحدنا.

الكاتب الصحفى الأديب عاشق التاريخ صاحب القلب الجميل «جلال السيد»، فوجئت به يتخلى عنى مبكرا، ومازلت أفتقده.

الشاعر الصحفى الإنسان قمة الاستقامة والعطاء «مصطفى بهجت بدوى»، أحبه واحترمه كل من عرفه.

الزميلة الرقيقة المشاغبة الشجاعة «سهير عبدالستار» لم يقهرها سوى المرض الخبيث ومع ذلك ظلت تقاومه بنفس الشجاعة.

ورجال عرفتهم عن قرب، اختلف البعض حولهم، ولكنهم نجوم ساطعة ونماذج رائعة إنسانيا ومهنيا، ظلمتهم الأيام أحيانا، كما ظلمهم الحكام.. «حلمى سلام»، «إبراهيم نوار»، «موسى صبرى»، «صلاح الدين حافظ»، «صلاح عزام»، «ابتسام الهوارى»، وغيرهم ممن لا تستطيع مساحة المقال استيعاب أسمائهم.. ذهب كل منهم ومعهم قطعة من القلب.. ترى كم بقى فى القلب؟!

لم أستطع أن أكتب عن واحد ممن أحببت، حتى جاءنى نبأ «محمد مصطفى» وكنت قد رأيته قبل ساعات على سرير مرضه فى مستشفى «وادى النيل»، متألما صابرا مجاملا، ولم أصدق أنها المرة الأخيرة التى نلتقى فيها.

لن أتحدث عن كتبه ومقالاته التى تسابقت على نشرها فى الفترة الأخيرة أكثر من صحيفة، أو عن برامجه التليفزيونية يقدم فيها نجوم الصحافة ورجال الأعمال، أو عن عصاميته وصعوده بشرف واحترام، وإنما أتوقف أمام سؤال كان يجيبنى عنه دائما بابتسامة وأحيانا يتمتم: من فضل الله.. كيف أحبه كل هؤلاء، وأحبهم؟.. لم يختلف أحد عليه، فحظى بتقدير ومحبة وأخوة وزراء ومحافظين ومسئولين وفنانين وصحفيين ومواطنين عاديين.

مثله يبقى ذكره فى الدنيا.. ويدخل الجنة!

وداعاً وإلى لقاء

الحياة قاسية وربما كان الموت رحمة.. أذكره كثيراً، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنساه فى الزحام كأننى أعيش أبداً.

فى أسبوع واحد طرق عزرائيل بابى أكثر من مرة.. كل مرة أفقد فيها عزيزاً تصيبنى الدهشة ولا تكون آخر الأحزان.

بالمصادفة أقرأ رحيل محمد حمزة فلا أصدق عيونى.. كان إلى وقت قريب يتحدث معى بعد أن انقطع الاتصال منذ فترة، ظللت طوالها أبحث عنه رغم علمى بأنه موجود على الساحة وأمين لجمعية محبى الفنون الجميلة التى تنظم محاضرات وتقيم ندوات.. أردت أن أطمئن عليه بسماع صوته، خصوصاً أن أبناءه هاجروا وبقى هو.. لم يشأ أن يترك الوطن.

مصادفة أن يولد حمزة فى اليوم والشهر والعام نفسه الذى ولدت فيه، وعلى الطرف الآخر من البحيرة بمدينة بورسعيد.. عملنا معاً فى جريدة "الإجبشيان جازيت"، حيث أضاف إليها، عندما كنت رئيساً لتحريرها لعامين اثنين فقط، باباً أسبوعياً عن الفنون التشكيلية.

لا أتحدث عن أدائه المهنى فقط، وإنما عن مواقفه واستقامته وبساطته.. كان طيفاً رقيقاً.

دهشت عندما سألنى صديق عن عبداللطيف خاطر؟.. أجبته منذ أيام قليلة تبادلت معه حديثاً تليفونياً طال بعض الوقت، رغم وهن صوته الذى مازال يحمل الأمل.. لم أتصور أن القدر وضع نهايته ولكل أجل كتاب.. حاولت أن

أثبت لصديقى أننى لم أقصر تجاه "الباشا" الراقد على سرير فى المستشفى.. الباشا الذى حصل على اللقب، ليس فقط بأناقته وسلوكه الراقى، وإنما بفيض عطائه واعتزازه بكرامته وما يقدمه راضياً لكل من يطلب منه خدمة.

كنت أسأل "عبداللطيف" عن آخر ما وصلت إليه محاولات سفره للعلاج فى باريس، وكيف يمكن إصلاح ما تفسده البيروقراطية.. أنا وهو متفائلان راضيان، ندرك مدى خطورة ما أصابه وهو فى عز صحته.

أشفق علىّ صديقى ولم يشأ أن يتركنى أسترسل ليفاجئنى: "البقية فى حياتك، اقرأ له الفاتحة".

هكذا الدنيا يا من تتصارعون.. وهذا قدرى أن أتلقى العزاء فى الأحباء، وأكاد أبقى وحيداً منتظراً.

فقدت أخى الأصغر فى يومين اثنين، وأقرب أصدقائى جلال السيد فى لحظة واحدة وجلال سرحان وسهير عبدالستار بعد صراع شجاع مع المرض، وعايدة ثابت فى ظروف غريبة أليمة ومحمد حامد فى شبابه والسيد عبدالرءوف ومحمد خليفة.. كلهم من الجمهورية وغيرهم من صحف أخرى، وقائمة لا تنتهى، جميعهم أذكر محاسنهم.

ولقد لفت نظرى مقالات كثيرة حزينة تودع زميلاً لم تتح لى فرصة لقائه إلا عابراً، فلابد أنه كان ضيفاً عزيزاً نادراً عاش فى هدوء ومات صامتاً.. لم يكن يعرف أنهم يحبونه إلى هذا الحد، ولقد أحببته وقرأت له الفاتحة مما قرأته عن فضائله.. رحم الله إبراهيم سعد زغلول.

آخر المفاجآت الحزينة، ولست أدرى ما يأتى به الغد، هو وفاة زميل النضال الوديع مصطفى نبيل.. كان واحداً ممن فصلتهم لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكى مع عشرات كنت واحدا منهم وكان هو وخمسة آخرون أعضاء منتخبين بمجلس نقابة الصحفيين.. اضطر للعمل فى الكويت بدعوة من أستاذه أحمد بهاء الدين الذى تعرض هو الآخر لمطاردة السلطة فذهب إلى بلد شقيق يؤسس مجلة "العربى" المتميزة شكلاً وقيمة.. فلما عاد مصطفى نبيل إلى داره الصحفية رأس تحرير مجلة "الهلال" فأعادها منبراً ثقافياً، وأصدر "كتاب الهلال" أدباً وسياسة قبل أن ينال جزاء سنمار ويموت.

كان مثالاً للأخلاق والثقافة والشجاعة وكانوا جميعاً ممن نفتخر بهم.. أضافوا لنا وتعلمنا منهم.. أمثالهم يضيئون لنا الطريق مهما يشتد الظلام.

إمام عادل مش عادل إمام

عدنا لنبوءة الشيخ عبدالحميد كشك عن مصير "معمر القذافى" وهو فى عزه ومنذ عشرين عاماً بأنه لن يجد قبراً يدفن فيه، عندما قتل دفن فى مكان مجهول بالصحراء.

كان القذافى قد طلب شراء قبر جمال عبدالناصر بخمسمائة مليون دولار ليجعله مزاراً للمسلمين فى مدينة بنغازى الليبية، مثلما يزورون قبر الرسول ﷺ !

للشيخ كلمات لا تنسى يحفظها مريدوه بعضها أصبح معروفاً للجميع، ولكنها مناسبة لتذكرها وقراءة الفاتحة للرجل.

عندما مات جمال عبدالناصر، صعد منبر الجامع الذى عرف باسمه فى شارع الملك، ولم يقل فى خطبته سوى آية واحدة من القرآن الكريم: "لمن الملك اليوم.. لله الواحد القهار".. أقم الصلاة.

وكان يقول: اللهم صل على الصف الثانى والثالث والرابع، فقيل له: والصف الأول يا شيخ.. قال: ده كله مباحث يا إخوانا.

سأله ضابط أمن دولة عند اعتقاله: بتشتغل إيه؟ أجابه بهدوء: مساعد طيار.. كان الشيخ ضريرا!

وكانت له معارك مع أنيس منصور - رحمهما الله - تبادلا فيها ألفاظاً

قاسية، مثل "كشك فون" و"أستاذ إبليس"، واحتارت البرية فيك تكتب في رمضان عن عمر بن الخطاب، وتكتب بعد رمضان عن صوفيا لورين، وأيضاً احتارت البرية فيك مش عارفينك لا حاج ولا معتمر ولا حوستك سودة!

ومن الحكم التى يحفظها الجميع: كنا نبحث عن إمام عادل طلع لنا عادل إمام.

وله فى الفن جولات وتجاوزات مثل قوله: امرأة فى السبعين من عمرها تقول خدنى لحنانك خدنى.. يا شيخة خدك ربنا.

والعندليب الأسود الذى ظهرت له معجزتان: الأولى يمسك الهوا بيديه، والثانية يتنفس تحت الماء.

وتعليقاً على أغنية شادية التى كتبها الشاعر مجدى نجيب: "غاب القمر يا ابن عمى ياللا روحنى، دا النسمة آخر الليل بتفوت تجرحنى".. قال: وإيه اللى خلاكى يا مضروبة تتأخرى معاه؟!

لم يترك أحداً إلا نال منه مهما تكن سطوته حتى ناصر والسادات ومبارك وهم رؤساء.. لذلك أحبه الناس، وازدحم المسجد عن آخره، وطبعاً دخل المعتقل سنوات وأكثر من مرة، ثم منع من الخطابة حتى مات.

وتوضأ فى بيته لصلاة الجمعة، وكعادته كان يصلى ركعات لله قبل ذهابه إلى المسجد.. صلى ركعة وفى الركعة الثانية سجد السجدة الأولى ثم الثانية، وفيها توفى!

عندما كنت فى السعودية، استأجرت تاكسياً ينقلنى من مكة إلى المدينة، وما إن عرف السائق أننى مصرى حتى أسمعنى شرائط الشيخ كشك طوال الطريق، ست ساعات، احتفالاً بالرجل وبى.. ولقد رأيته يبكى وهو يستمع إليه!!

..ومات مالك الحزين

أول ما فعلت عندما جاءنى خبر وفاة الأديب الفنان إبراهيم أصلان أن بحثت عن كتابه الأخير «حجرتان وصالة»، حيث الحياة والحوار بين اثنين يعيشان فى خريف العمر.

وتذكرت مقالاً له أدخل الرعب والحزن فى نفسى عن ليلة موت صديقنا الناقد الجاد فاروق عبدالقادر عندما رفض ابن شقيقه المتطرف دينياً أن يدفن عمه فى مقابر الأسرة؛ إذ يتهمه بأنه لم يكن ملتزماً.

وقد اختفى إبراهيم أصلان بموت الأديب توفيق عبدالرحمن وكيل وزارة الإعلام الأسبق فى حادث مرور أحمق، إذ كان يعبر الطريق على قدميه فى ميدان «سفنكس»، فقتله سائق سيارة متسرع.. ويقال إنه من شدة تأثره كتب رواية عما جرى لم تنشر بعد.

مقالات الأديب التى بدأت «الأهرام» نشرها منذ سنوات قليلة، لفتت أنظار عامة القراء الذين لم تتح لهم فرصة معرفة قيمته الروائية التى حصل عنها على جوائز رفيعة وترجمت إلى لغات أخرى.

ومع ذلك فإن الجميع يعرفونه دون أن يعرفوا أنه مؤلف الرواية التى أُخذ عنها فيلم «الكيت كات» أحد أهم الأفلام السينمائية فنياً وشعبياً لمخرجه «داوود عبدالسيد» والشيخ حسنى محمود عبدالعزيز فى دور لا ينسى.

يدور «الكيت كات» فى الحى الذى عاش فيه إبراهيم أصلان معظم حياته قبل أن ينتقل إلى المقطم، ولكن تاريخه وعواطفه وانتماءه ظل فى إمبابة ومع شعبها وأشهر أعماله «مالك الحزين» التى أخذ عنها الفيلم الجميل، استمدها من روح وناس المكان.

أفلام قليلة أخرى قامت على قصصه ورواياته، لعل آخرها هو «عصافير النيل» للمخرج مجدى أحمد على بطولة فتحى عبدالوهاب.

ارتحت إذ رأيت نبأ الوفاة على شريط التليفزيون، فالأديب الراحل لم يكن رجل علاقات عامة، والاحتفاء بالمبدعين فى حياتهم أو بعد مماتهم لا يكون عادة إلا من شلة أو أصدقاء أو متعاملين أو مستفيدين.. عزاء «إبراهيم أصلان» لفنه وإنسانيته وقيمته وانشغاله بهموم الوطن.

انتظرت حتى أرى ماذا ستفعل صحف الصباح والمساء أو على الأقل ما يصل منها إلى يدى، فقد تكاثرت الصحف علينا.

أول من اهتم كانت جريدة «الحياة» التى تصدر من لندن، وتطبع فى القاهرة وهى سعودية، ولكن القائمين عليها يحتفون كثيراً بالآداب والفنون.. نشرت خبر رحيل الروائى المصرى إبراهيم أصلان كاتب الكاميرا على خمسة أعمدة فى الصفحة الأولى بشاربه الكث المميز، كاتباً عصامياً لم يستند إلا إلى موهبته الاستثنائية، وكان يقول عن نفسه: أنا مثل طائر يغنى فى وحشته.. ويقول أيضاً إنه كاتب الكاميرا لقدرته الفنية على التقاط الصور الواقعية ونقلها بأسلوبه الخاص.

ولم أجد الخبر فى جريدة «المساء» إلا فى الصفحة الخامسة، مع أنها تضم عدداً مرموقاً من الأدباء والنقاد.. ليتهم نبهوا الذين لم يعرفوه إلى قيمته.. ومع أن مجموعته القصصية الأولى كان اسمها «بحيرة المساء».

أما سائر الصحف المصرية، فقد احتفت على صفحتها الأولى أو الثالثة المسماة أولى مكرر، بعد أن ازدحمت الأولى الأصلية بالصور والعناوين فيما يبدو أنها مدرسة جديدة تنتقل من صحيفة لأخرى.

جمعت الأخبار بين الحسنيين، فأشارت إلى موت أصلان على صفحتها الأولى، والتفاصيل على الثانية مع ذكريات عدد من أصدقائه ومن عرفوه.

ذكرت «المصرى اليوم» تفاصيلٍ مرضه الأخير، حيث أصيب بنزلة برد، أثرت على عضلة القلب، العليل أصلاً، مما أدى لنقله إلى مستشفى قصر العينى الفرنساوى لخمسة أيام خرج بعدها ليموت فى بيته..

وقالت «الشروق»: إنه كان قد أجرى عملية قلب مفتوح لتغيير شرايين قبل سنوات، كررها مرة أخرى مؤخراً.

صحيفة «التحرير» أكثر المهتمين بأديب وإنسان صاحب موقف مثله، نشرت الخبر على الصفحة الثالثة، وأشارت إلى موقفه ودفاعه عن رواية الكاتب السورى حيدر حيدر «وليمة لأعشاب البحر».. ولابد أنها ستعوض ما فاتها بما يستحقه إبراهيم أصلان.

ولست أعتقد أن «المسائية» قد فاتها النشر لعذر خارج عن إرادتها، لأن مانشيتاتها هذه الأيام مشغولة بإبراز بيان للجماعة الإسلامية الأهلية بأن قتلى التحرير ليسوا شهداء!! ومن قبلها كلمة «طز» بالخط الأحمر العريض.

من تجاربه الشعبية الأصيلة أنه عمل فى بداية حياته «بوسطجياً»، فاستوحى قصته «وردية الليل».

وطبعاً دخل «إبراهيم أصلان» المعتقل الرهيب سنوات!!

عصر «إن شاء الله»

لست من دراويش الصحفيين والكتاب، وحتى الدارسون الأجانب عندما يكتبون عن مصر، يفتقدون عادةً الروح والمعنى حتى لو دققوا فى البحث وتحليل الأرقام، ومهما تكن معرفتهم باللغة العربية.

زمان قالوا إن صحفية أمريكية وصلت القاهرة أيام عبدالناصر واشتراكيته، فلفت نظرها أن الشوارع ممتلئة بالأعلام الحمراء.. أسرعت من المطار إلى المكتب تبعث بأول رسالة لها تعلن قيام الثورة الشيوعية فى مصر.. لم تكن تعرف أنها كانت ليلة فوز النادى الأهلى بالكأس، وأن جماهيره الغفيرة خرجت تحتفل رافعة أعلام النادى الحمراء.

منذ أيام نشر «مايكل سلاكمان» مدير مكتب «النيويورك تايمز» فى القاهرة مقالا عن انتشار استخدام تعبير «إن شاء الله» والإفراط فى ذلك مع كل جواب.. حتى إذا سألت شخصا عن اسمه ذكره لك معقبا بـ «أن شاء الله».. ولقد اعتبر ذلك مكملا لارتداء الحجاب عند النساء و«الزبيبة» عند الرجال.

تحدث الصحفى الأمريكى للكاتب المسرحى «على سالم» ومخرجة الأفلام التسجيلية «عطيات الأبنودى» والناشطة السياسية «غادة شهبندر» وابنتها «نازلى» وآخرين، من بينهم سائق تاكسى وصاحب كشك سجائر، وبواب عمارة فى الزمالك، وصولا إلى أن ظاهرة الإسراف فى «إن شاء الله» سادت فى الثلاثين سنة الأخيرة، وبعد أن كانت مقصورة على الحديث عن خطط

مستقبلية ومشروعات تحت التنفيذ أصبحت تقال عند توصيل زبون بالتاكسى حتى ولو كان السائق قبطيا، وعندما تسأل راكب أسانسير إن كان نازلا وعندما تودع صديقا يقول لك «أشوفك بكرة».

ولقد أصبحت تحية إنهاء مكالمة تليفونية، أو حديث عابر فى الطريق هى «لا إله إلا الله».. والجواب «محمد رسول الله».

يروى «على سالم» قصة من أساطير «جحا» تحظى بإعجاب الصحفى الأمريكى فيختتم بها مقاله.. تقول إن «جحا» أخذ حماره ليبيعه فى السوق، فاستوقفه رجل يسأله: إلى أين؟ أجابه لأبيع الحمار.. نصحه الرجل بأن يقول إن شاء الله.. فى السوق ووسط الزحام سرقوا الحمار، فعاد «جحا» كسيفا حيث استقبله نفس الرجل فى الطريق يسأله عما فعل.. أجاب «جحا»: إن شاء الله الحمار اتسرق!

يقول «سلاكمان» إنه لا فرق بين مسلم وقبطى أو فتاة محجبة ومتحررة، فقد أصبحت تلك هى لغة العصر عند المصريين.. حتى «هامبورجر» ماكدونالدز لا يختلف فى مكوناته وديكورات المحلات التى تبيعه عنها فى مختلف مدن العالم إلا فى أنه يقدم فى مصر مصحوبا بكلمة إن شاء الله.

ويقول إن المصريين طول عمرهم متدينون من أيام الفراعنة يؤمنون بأن كل ما يحدث أو لا يحدث هو بإذن الله.

أصبحت إن شاء الله إجابة لأسئلة عن الماضى والحاضر والمستقبل وكل شىء ولم يعد كثيرون ممن ينطقون بها يدركون معناها العميق بعد أن أصبحت كلمة دارجة تستعمل فى كل الأحوال.

أما التفسير الذى ينتهى إليه الصحفى الأمريكى فهو أن الناس التى ضاقت بارتفاع الأسعار وعجز الأجور وزحام المواصلات ومختلف أنواع الفساد، ليس أمامها إلا الاعتماد على الله، خصوصا أن كل واحد أصبح فى حاله.

يشكر المصريون الله إذا تحقق ما يريدونه، ويشكرونه مقدما لكى يتحقق ما يتمنونه، طالما أنه لا أمل فى أن تساعدهم الحكومة!!

موت أم كاتب صحفى

لم يتوقف عن الكتابة السياسية، هوايته وحرفته.. أثار إعجاب القراء بمختلف اللغات، فما يكتبه يترجم وينشر فى أكثر الصحف انتشارا وتأثيرا.

بصرف النظر عن ميوله، وأحيانا سمومه، فإنه يلقى اهتماما واحتراما، منذ بدأ طريقه صحفيا أمريكيا، تخصص فى شئون الشرق الأوسط، مراسلا يتنقل بين عواصمه حتى أصبح كاتبا مشهورا، حتى بين العامة الذين تابعوا مقالات توماس فريدمان السياسية.

ولكننى لا أريد التعريف به أو مناقشة مواقفه وأفكاره، وإنما أتوقف أمام مقال كتبه عن أمه، أفضل ما أفعله.. أن أنقله إليكم.

ماتت بعد سنوات طويلة من المعاناة والعطاء، قبل أن يصيبها مرض عقلى فى آخر حياتها دون أن تفقد أفضل صفاتها حتى اللحظات الأخيرة.

بدأ «توماس» مقاله متذكرا «عيد الأم» عندما كان يتصفح بريده الإلكترونى فظهرت أمامه إعلانات عن هدايا للأم، تابعها باهتمام ناسيا أنه لم يعد يحتاج إليها هذا العام فقد ماتت «مرجريت فريدمان».

يعترف بأن الكثير من الآراء والأفكار التى تدفعه للكتابة كانت تأتى من أمه، ولذلك قرر بعد أن استقر الحزن فى قلبه أن يخصص مقاله للحديث عنها.

ولدت بعد الحرب العالمية الأولى، وعاشت فترة الكساد الكبير فى أمريكا، قبل أن تتطوع فى البحرية عقب الهجوم اليابانى على ميناء «بيرل هاربور» الذى جعل الولايات المتحدة تدخل رسميا الحرب العالمية الثانية.. ولقد اشترت أول بيت لأسرتها من قرض للمجندين فى الجيش.

خلال طفولته بدت أمه ربة بيت نموذجية، تحيك الثياب لأخته حتى فستان زفافها، وتحيك ملابسه، دون أن تتوقف عن لعب «البريدج» والفوز بعدد من بطولاته.

مات الأب فجأة والابن «توماس» لم يبلغ العشرين من عمره، عندما جاءته منحة دراسية من إحدى الكليات فى بريطانيا.. وكانت المفاجأة هى إصرار الأم على مصاحبته، وسط دهشة معظم الأصدقاء والجيران، إذ ارتضت أن تعيش كأرملة وحسب.. باعت المنزل، وغادرت ولاية «مينيسوتا» وانتقلت إلى «لندن».. وبقيت تشارك فى بطولات «البريدج».

ثم جاءت وراءه إلى «بيروت» حيث استقر به المقام سنوات مراسلا صحفيا يبدأ طريق الشهرة.

يقول إنه فى العاصمة اللبنانية تصور ما كان يمكن أن تفعله أمه لو كان لديها المال الكافى لإكمال دراستها الجامعية، وتحقق أحلامها بنفس الطريقة التى كانت تشجعه بها.. ويذكر تأثيرها على كل عمود صحفى كتبه، وكيف كانت تنهض، وتنفض الغبار عن نفسها، وتمضى فى طريقها كلما أصابتها مصيبة، لأنها ترى المتشائمين عادة على صواب، والمتفائلين عادة على خطأ، ولكن معظم التغييرات العظيمة يقوم بها المتفائلون!

يذكر أنه منذ ستة أعوام كان يتناول العشاء فى إسرائيل مع محرر جريدة «هآرتس» التى تنشر مقالاته بالعبرية فسأله: «لماذا تنشرون مقالاتى؟».. قال له وهو يضحك: لأنك يا توم الشخص الوحيد المتفائل الذى يكتب فى الجريدة.. وقال له جنرال إسرائيلى: أعرف لماذا أنت متفائل، لأنك قصير لا ترى إلا النصف الممتلىء من الكوب فقط.

يقول «فريد مان»: الحق أننى لست القصير، ولكن أمى كانت كذلك، وكانت هى التى ترى النصف الممتلىء فقط، فعندما تقرأ لى كأنك تقرأ لأمى!!

سيدة أحبت مصر

نودع باحترام عالمة آثار ماتت، وهى تقترب من المائة عام سوف تعيش دائماً فى قلوبنا بما أدته من خدمة غالية لتاريخ مصر.

اسمها «كريستيان نوبل كورت» استهواها كشف «كارتر» لمقبرة توت عنخ آمون فى العشرينيات من القرن الماضى، فتفرغت لدراسة الآثار الفرعونية على الطبيعة، وفى جامعة «السوربون».. واشتركت فى حفريات بصعيد مصر بعد أن التحقت بمتحف «اللوفر».

غير أن أهم ما قامت به هو حماسها لإنقاذ آثار النوبة التى كادت تغرق تماماً فى مياه النيل مع إقامة السد العالى.. وكان تعاونها مع الدكتور ثروت عكاشة منذ كان سفيراً فى فرنسا ووزيراً للثقافة، رحمه الله على قدر عطائه وإخلاصه، نموذجاً لخدمة الإنسانية.. مع ما قدمه العالم كله من مساعدات وأموال، ومن تفانوا بحماس من العلماء والفنيين، والعمال المصريين.

كانت النتيجة أن بقى لنا «معبد أبو سمبل»، «وفيلة»، وبيت «الوالى»، وعشرات من الآثار الخالدة كان مصيرها الغرق فى اليمِّ.

ما تحقق معجزة.

عندما تقدمت عالمة الآثار الفرنسية بندائها لإنقاذ آثار النوبة تحمس وزير ثقافة فرنسا الأديب المشهور «أندريه مالرو».. ولعلها كانت فرصة سياسية

كى تعود العلاقات الطيبة مع مصر بعد أن تأثرت باشتراك فرنسا بالعدوان الثلاثى على مصر وحربها ضد الشعب الجزائرى .

وأشرف «اليونيسكو» على تسجيل الآثار المهددة بالغرق.

وفك الأحجار لتجميعها مرة أخرى فى الأماكن الآمنة التى تنقل إليها، وهو ما استغرق عشرين عاماً كاملة لإنقاذ أربعة عشر معبداً بدعم من خمسين دولة أهدت مصر لعدد منها، عرفاناً بما قدموه، معابد فرعونية نقلتها إلى متاحفها، رأيت أحدها شامخاً فى «المتروبوليتان» بمدينة نيويورك.

لم تسلم كريستيان نوبل كورت من انتقاد شديد من جانب الأثريين المصريين يتهمها بأنها أفسدت مومياء رمسيس الثانى عندما نقلتها إلى باريس للكشف عنها وترميمها وتتدخل السياسة لتقول إنها اختارت رمسيس بالذات؛ لأنه الفرعون الذى حارب اليهود، وأخرجهم من مصر أيام النبى «موسى»، ولو أنه ليس مؤكداً أنه فرعون الخروج.

على مستوى الوطن اشتركت العالمة الأثرية فى أعمال المقاومة ضد النازى أيام الحرب العالمية الثانية، واحتلال الألمان باريس.. وكان دورها هو إخفاء الآثار المصرية الموجودة فى «اللوفر»، ونقلها إلى المناطق المحررة حتى لا تقع فى يد الألمان.

جرى ذلك قبل سنوات طويلة من حديث نهب وتخريب، والتجارة فى آثارنا يقوم بها أبناء الوطن، بل حكامه.. وسواء أكانت إشاعات أم مبالغات، أم تصفية حسابات، فإن الشكوك كثيرة حول سرقات تمت ومازالت، وأن قطعاً نادرة اختفت وتاهت.. بينما تبقى عظمة الفراعنة شامخة فى أرض النوبة، أنقذتها عالمة فرنسية ووزير مثقف مصرى، والعالم كله.

عندما ماتت قبل أيام وصفها ساركوزى رئيس جمهورية فرنسا بأنها «سيدة النيل العظيمة».

ويا أيها الأثريون المصريون الذين لم تذكروها ولو بكلمة رثاء، هل كانت عالمة أحبت مصر، أم استغلتها؟.. وهل كانت ملاكاً، أم شيطاناً فى ثوب امرأة؟!

النبى «لا» يقبل الهدية!

حديث الهدايا ما زال يثير الدهشة، مع أن حكاياته قديمة ومعروفة.. وتبريره يحمل دائماً "النبى قبل الهدية".. باسم تلك العبارة ترتكب كل الجرائم.

ماذا يعنى ما ينشر عن "ملعب إسكواش" هدية بخمسة وعشرين مليون جنيه من رئيس مجلس إدارة مؤسسة صحفية لابن الأكابر؟.. ليس هناك ما يدعو لإعادة ذكر الأسماء فهى على كل لسان.. تقول الأرقام: إن ميزانية هدايا رأس السنة فى "الأهرام" وحده سبعون مليونا!

لم تكن تلك هدية الصحف القومية الوحيدة وإنما أكثرها وقاحة.. وقد كانت الهدايا متكررة فى مطلع كل عام، وأحياناً بدون مناسبة.. كل مؤسسة على قدر ميزانيتها وطموح رئيسها.. ولا أحد يسأل لماذا تأتينى الثلاجات المستوردة والتليفزيونات العملاقة.. وصولاً إلى الجنيهات الذهبية؟

كان الأمر أشبه بتقديم القرابين وتحية السلاطين، مما يفخرون به ويتيهون. ويبقى السر مفضوحاً.

عن الذهب أرسل أحدهم عدة جنيهات فى صندوق أنيق لواحد من حاشية صاحب القصر على يد موظف يثق فيه.. مع أول اتصال للشكر عرف رئيس مجلس الإدارة بالصدفة أن عدد الجنيهات أقل مما أرسله.. ثار واعتبرها كبرى الجرائم، فتم اعتقال الموظف، وقضى أياماً فى ضيافة أمن الدولة، تعرض خلالها للتعذيب الشديد، ولم يفرج عنه مع اعتذار قصير إلا بعد أن عاد رجل الحاشية يتصل،

ويصحح بأن الخطأ جاء من أن ابنه الصغير أخذ الصندوق يلعب بجنيهاته الذهبية فاختفى عدد منها تحت فوتيل صالون البيت، وقد عثرت عليها الشغالة فيما بعد!!

وماذا يعنى ما ينشر عن إهداء سيارتين من "أخبار اليوم" لصاحب الصحافة القومية ومهندس قرارات تعيين رؤسائها وإبقاء من وصل إلى سن المعاش.. المتهم، إن كان هذا اتهاماً بالنسبة لهم، هو رئيس مجلس إدارة صحيفة قومية سابق.. والرد جاء من "صفوت الشريف" قال: إنها سيارة واحدة فقط، أما الأخرى فقد اشتراها المجلس الأعلى للصحافة ويستخدمها.. تبقى سيارة اشتراها بحر ماله من "أخبار اليوم" باسم ابنه.. وبصرف النظر فقد كان ضرورياً الابتعاد عن الشبهات، ولماذا الشراء عن طريق وسيط، وهل يغرى الخصم الذى يأتى عن طريق الإعلانات فى دور الصحف؟.. والسؤال من حقاً دفع ثمن السيارة إن لم تكن المؤسسة فهل هو من اشترى أم أن رئيس مجلس الإدارة دبر الأمر.. "هيه حبكت"!!

وماذا يعنى حديث القلادة الذهبية الأثرية التى كانت تمتلكها الأميرة سميحة وتم إهداؤها لسيدة مصر الأولى سابقاً عند إعادة افتتاح متحف المجوهرات الملكية بالإسكندرية.. وطبعاً الذى قدمها وزير الثقافة وقتها بحضور رئيس المجلس الأعلى للآثار، وهو ما نفاه "فاروق حسنى" ودليله ارجعوا للكاميرات المثبتة ليل نهار فى المتحف، وتقولون إنها صورت لحظة الإهداء.. رد أحد المعلقين: مفيش صورة تثبت.. طيب فين القلادة؟!.. وهل استطاعت الكاميرات تصوير لوحة "زهرة الخشخاش" عند سرقتها من متحف "محمد محمود خليل" فى القاهرة؟!

وليس أخيراً قصة إهداء "صدام حسين" سيارات مرسيدس بالجملة لرؤساء تحرير الصحف على أيامه، وعدد من موظفى رئاسة الجمهورية، لم يكشفها سوى الخلاف حول من يدفع الجمارك: أصحاب السيارات الجدد، أم الدولة؟!

ثم أصبحت الهدايا المشبوهة والمبالغ فيها أمراً مألوفاً من بلاد عربية تلعب بالفلوس، ثم تدهورت إلى "فكة" من وزراء ورؤساء شركات.. وبينهما أراض وشاليهات.. وللحق كان البعض يصر على دفع "حاجة كده" حتى تصبح الملكية "بيعاً وشراءً"!!

ومن حكايات جريدة "الفجر" نقلاً عن السفير القطرى "**بدر الدفع**" أن أحد أفراد أسرة الرئيس السابق رأى يخت أمير قطر فى مدينة "كان" بالريفييرا الفرنسية فطلب واحداً مثله هدية لجمال.. ثم طلب يختاً آخر لعلاء والاثنان بستين مليون يورو!!

هل تدخل هذه الهدايا وما خفى منها كان أعظم تحت قول "النبى قبل الهدية"؟!

إذا قبضت فلا تسأل؟!

كل شىء على حاله.. المرتبات تصل إلى باب البيت، ولا أحد يسأل نفسه لماذا يقبض، وقد دالت الدولة ودخل سادتها السجون بتهم تخل بالشرف؟

لا يمكن أن يكون المجلس الأعلى للصحافة وحده الذى يتقاضى أعضاؤه وعددهم كبير (ثمانون عضواً) من أهل الفكر وأصحاب القلم، أربعة آلاف جنيه شهرياً لم تتوقف مع انهيار المجلس، بل وحرقه.

لم نكن لنعرف لولا أن واحداً منهم بعد سبعة أشهر كاملة كشف للرأى العام عن المكافأة التى يتقاضاها كعضو فى «المرحوم» المجلس الأعلى للصحافة بعد أن أبلغ بقايا المجلس ورئيس الوزراء، ومازال محتفظاً بالشيكات التى وصلته منذ قيام الثورة وحتى اليوم يبحث عمن يستردها؟!

لم يسأل عن الدكتور شوقى السيد أحد، بل ناله اللوم الشديد من الأستاذ جلال دويدار، المتصرف فى شئون المجلس، مؤكدا أن صرف تلك المكافآت قانونى، مضيفا أن الدكتور يريد أن يصبح بطلا.

هل يحدث مثل ذلك فى المجالس «الورقية» الأخرى، الباب الخلفى لدعم النظام السابق ومكافأة أنصاره؟

وهل تم الاستغناء عن عشرات المستشارين هنا وهناك يتقاضون مرتبات مستفزة، ولا يعملون شيئاً، كما يقول من تعاملوا معهم أيام الوزير «غالى» وبعد هروبه بتوصية عالية فى مطار القاهرة؟

وإذا كان قد أصابنا القرف من فتح الملفات ذات الرائحة العفنة من سفريات مرفهة لخارج البلاد، وبدلات تحت مختلف المسميات، ومكاتب فاخرة ومصروفات «لزوم الشىء»، فليس أقل من إيقاف النزيف الذى يحمل من المعانى السيئة أكثر من حجم الجنيهات التى تتبدد.

وإذا كان الدكتور «شوقى السيد» قد ساند نظام «صفوت الشريف» أحياناً، وعارضه بالممكن أحياناً أخرى، فإن ذلك يجعل احترامنا لموقفه وشجاعته أكثر.. ولكننا للأسف نجد من يلومه ويكاد يشتمه.

هل نستبعد بذلك أن يكون الأستاذ صفوت رئيس المجلس الأعلى للصحافة مازال مرتبه، أو مرتباته، تصل إلى باب بيته.. أو أحد قصوره.. أم أنها تُحوَّل لسجن مزرعة طرة لزوم مصروف الكانتين؟

كيف لم يفكر واحد من الثمانين عضواً فى رفض مكافأة عن أعمال لم يقم بها ولا حتى مجرد الحضور أو عقد اجتماع أو أى «محلل».

يبدو أننا تعودنا على ألا نسأل: «لماذا» عندما نقبض؟

هل هى عادة مصرية أم صحفية؟.. فعند محاكمة رئيس مجلس إدارة أخبار اليوم السابق ومعه المشرف على قطاع الإعلانات اتضح أن تسعة رؤساء تحرير تقاضوا مكافآت باسم «تقدير جهودهم» فى زيادة موارد المؤسسة دون وجه حق.. والمطلوب إعادتها.. هل سأل أحد منهم لماذا حقاً نأخذ تلك الأموال؟

والأكثر غرابة، ولا أقول فساداً أو إفساداً أن مؤسسات تخسر كثيراً، ولكن العبقرية تفتقت عن تحصيل نسبة بسيطة تعمل ملايين لمختلف القيادات حتى «تطعم الأفواه»، ودائماً لا أحد يسأل.

أما أفضال المجلس الأعلى للصحافة فلا تعد ولا تحصى، ويكفى مراجعة أسماء آخر دفعة تولت شئون الصحف من اختيار لجنة السياسات، وأى من أصحاب النفوذ المتصاعد فى المجلس الأعلى للصحافة، ومن بينهم منافقون كبار وفاسدون لم تمهلهم الأيام.

يقول الأستاذ «محسن محمد»: إن صحيفة أجنبية تعطلت فى عهد الدكتاتورية، فلما سقط الحاكم وعصابته، عادت للصدور، واعتبرت أعدادها السابقة كأن لم تكن وبدأت إصدارها الجديد من العدد الأول.

ياقوت ومرجان من دم الصحفيين

على شاطىء البحر يملك الرجل وزوجته، ويظهر أحياناً اسم شقيقها، أكثر من فيلا فى "مارينا العلمين" وشاليه فى سيدى كرير بالساحل الشمالى وكابينة فى شاطىء عايدة بالإسكندرية وشقة بالمعمورة ووحدة سكنية بأبراج شيراتون المنتزه وشقة كانت مختفية فى سان ستيفانو.. كما أود أن أعرف أسماء مالكى شقق "الفورسيزون" فى الإسكندرية والجيزة، فقد كانت أوراقاً مغربة فى يد مالكها هشام طلعت مصطفى.

وعلى شاطىء البحر أيضاً قطعتا أرض فى الهضبة الشمالية بمدينة الغردقة، وشاليه بقرية "تيوليب" العين السخنة، وربما كانت البداية "لسان الوزراء" فى أبوسلطان بمحافظة الإسماعيلية، وبالمرة قطع أراض فى سرابيوم بمركز فايد، وكم أود أن يكتب لنا عبدالمنعم عمارة محافظ الإسماعيلية الأسبق قصة لسان الوزراء الذى ولد على يديه.

والبحر يلزمه أكثر من لنش.

أما الأرض فتمتد من صحراء أول طريق القاهرة - الفيوم إلى الخطاطبة فى محافظة البحيرة، وشقة العبور فى صلاح سالم وفيلا القطامية بالتجمع الخامس، وربما كانت الأولى شقة شارع فريد المشهورة بمصر الجديدة، وقصتها أن صاحب العقار رحمه الله كان متخصصاً فى إهداء أو بيع ببلاش

كده الأدوار الأخيرة "المخالفة" لعلية القوم وأصحاب النفوذ، فلا يجرؤ أحد على إزالتها أو الاقتراب منها.

ليس هذا حصرًا لممتلكات زكريا عزمى التى أحيل بسببها إلى المحاكمة أمام جنايات القاهرة بعد تحقيقات أجهزة الكسب غير المشروع التى أكدت أيضاً اشتراك المتهم مع رؤساء مجالس إدارات الصحف القومية؛ الأهرام والأخبار ودار التحرير فى الحصول على هدايا بملايين الجنيهات.

الغريب أن زكريا عزمى يقر بأنه أخذ مكافآت وهدايا من رؤساء الدول والملوك، ويعتبرها أحد مصادر ثروته المشروعة!!

يقول متهمون آخرون ومسئولون سابقون: إنهم أيضاً استثمروا الهدايا وهى مجوهرات وساعات ثمينة، وأحياناً دولارات.. ولا يخجلون.

وقد سبق لمحافظ الجيزة الراحل عبدالحميد حسن أن حصل على البراءة بعد إثبات أن مصدر تضخم ثروته هو بيعه الهدايا الذهبية والماسية التى حصل عليها وزيراً ومحافظاً ورئيساً للمجلس الأعلى للشباب والرياضة.

ولكن الدكتور حلمى مراد أصر على تسليم عقد من الماس قدمته له دولة الإمارات عند زيارته لها وكان وزيراً للتربية والتعليم، فاستحق اللوم وقيل له فيما قيل: يعنى عايز تثبت أنك أنت الشريف الوحيد؟!

لا يذكر أحد قول عمر بن الخطاب لأحد ولاته الذى تضخمت ثروته، فدافع عن نفسه بأنها من الهدايا التى تلقاها.. قال عمر رضى الله عنه: أو لو كنت فى بيت أمك كنت قد أهديتها؟!

يهمنى الهدايا بالملايين التى قدمتها الصحف القومية من دم الحى، فبعضها يخسر ويصعب عليه تدبير أموره، وكلها تدفع مرتبات هزيلة.. كم أود أن يذاع سر ما كان يجرى فى الخفاء، ويقدم قرباناً ليس فقط لزكريا عزمى، وإنما أيضاً للآخرين.

السفارة ومارينا وهدايا رأس السنة!

جاء وفد إسرائيلى للبحث عن مكان جديد آمن للسفارة الإسرائيلية، وقد وقع الاختيار مبدئياً على ثلاثة مواقع، أحدها الفيلا التى يملكها زكريا عزمى فى التجمع الخامس، وهى الفيلا التى وقعت فيها مؤخراً أحداث اعتداء أخيه على مندوبى الكسب غير المشروع باللكمات والشتائم وخلع البنطلون..

لو أنه وقع اختيار إسرائيل على فيلا «عزمى»، هل يكتبون على بابها اسم السفارة وتحته بخط أصغر: «فيلا عزمى» سابقاً؟!

المساحة أكثر من ألف وسبعمائة متر، إجمالى ثمن شرائها أكثر من خمسمائة وسبعين ألف جنيه، تكلف بناؤها نحو خمسة ملايين جنيه باسم السيدة «بهية حلاوة» زوجته، وزميلتنا فى «الأهرام».

وهى أصغر قطعة أرض فى مربع خصص أيضاً لآخرين، من بينهم حرم «صفوت الشريف»، وزوج ابنة «فتحى سرور»، و«ممدوح الزهيرى» محافظ جنوب سيناء الأسبق.. العنوان: «رقم خمسة شمال الشويفات» منطقة المشتل الجديد.. التجمع الخامس.

وفى المربع قطعتا أرض، وربما ثلاث للواء «هتلر طنطاوى» الرئيس الأسبق للرقابة الإدارية، و«أحمد شفيق» رئيس وزراء مصر الأسبق، و«سمير فرج» محافظ الأقصر السابق، والكاتب الصحفى «سمير رجب» ونصف وزراء مصر.

يقول «زكريا عزمى» إنه مجرد موظف بسيط لا يملك أى سلطات أو

صلاحيات، ليس له أى نفوذ فى أى شأن من شئون الدولة.. و«هو ما لا يصدقه عقل».

ويدلل على أنه رجل عادى بجيرانه فى «مارينا»: عن يساره تاجر رنجة، وبجواره صاحب مصنع بلاستيك فى شبرا الخيمة، وعن يمينه أستاذ بكلية الهندسة، وبجواره تاجر فاكهة، وبجواره أيضاً الكاتب الصحفى «فهمى هويدى».

أما مناسبة تجدد الاهتمام بزكريا عزمى فيعود إلى سماع شهادات مديرى شركات الإعلانات بالمؤسسات الصحفية، وقد ذكر أنه وطبعاً غيره كانوا يتلقون هدايا ثمينة بمناسبة أعياد رأس السنة.. وطبعاً كل الأعياد وبدون مناسبات.

قال «محمود إسماعيل» من «الأهرام» إنه لم يكن يعلم بهدايا كبار المسئولين، فذلك من اختصاص رئيس مجلس الإدارة، وهو عرف فى الأهرام منذ أكثر من ثلاثين عاماً «طوال حكم مبارك.. وهل توقف؟!».

وقال هانى كامل من «أخبار اليوم»: إنه لم تكن هناك ضوابط لعملية الهدايا، وإنه لا يعلم أن هدايا زكريا عزمى وصلت إلى نصف مليون جنيه فى سنتين، وأن رئيس مجلس الإدارة هو الذى يحدد هدايا الكبار بتفويض من مجلس الإدارة من ميزانية تصل إلى خمسة فى المائة من مجمل الإيرادات، وليس من الإعلانات وحدها.. ولنا أن نتصور قدرها، وهى النسبة نفسها والطريقة نفسها فى سائر المؤسسات الصحفية.. والكبار هم طبعاً رئيس الديوان، ورئيسا مجلسى الشعب والشورى، والحراسة الخاصة بالرئاسة، والرئيس وعائلته، وجميع الوزراء والمحافظين.

.. وقال إياد أبوالحجاج من «الجمهورية»: إن هدايا زكريا عزمى من دار التحرير بلغت أكثر من مائة وثلاثين ألف جنيه فى عامين اثنين، وفى مناسبة رأس السنة يحددها رئيس مجلس الإدارة، وتتراوح قيمتها ما بين خمسة وعشرين ألفاً وخمسين ألفاً.

جميعهم قبل الهدية، ولا بأس لو كانت رمزية.. وإلا سألنا: كم يبلغ مرتب الصحفى؟! وعلى رأى «عادل إمام» فى الشهر؟!.. فى اليوم؟!.. خليها فى ليلة رأس السنة وحدها..

عودة الرئيس إلى صباه

كشفت صحيفة إلكترونية كويتية عن الهدايا التى حملها المحامون الكويتيون لحسنى مبارك، وهم قادمون للدفاع عنه، الحريصون على صحته.. وهى أدوية مقوية غالية الثمن، كما قالوا قدموها إليه وهم يحملون الملايين كاش لفض الأمر على الطريقة البدوية، وهى دفع الدية لأسر الشهداء.. يحددون الميزانية بمائة مليون دولار، والله أعلم.. وفى الوقت نفسه تسلموا من السيدة سوزان مبارك قائمة بالشهود الذين تراهم يفيدون فى الحصول على براءة زوجها على يد المحامين الكويتيين!!

يسمونها أدوية الرؤساء، وطبعاً الأمراء، خصوصاً الذين تقدم بهم العمر، وتمكنت منهم الشيخوخة.

تجارة رابحة وقد سمعت أنها هدية مقبولة، قدمها حاكم عربى راحل مروءة وشفقة للرئيس المصرى وقتها، تبرع بتكلفة زيارة باهظة التكاليف لمستشفى سويسرى تخصص فى إطالة الأعمار.. سبحان الله.

لابد أن هناك أطباء عالميين ومستشفيات متخصصة فى أكثر من مكان، يعرفها الأثرياء والحكام الذين يودون لو عاشوا أعمارهم وأعمار شعوبهم.. فقد جاء طب الخلايا الجذعية أملاً وإغراء.

سمعت من سنوات عن مصحة خاصة فى أطراف مدينة زيوريخ يعيد صاحبها الطبيب وطاقمه الشيخ إلى صباه، وتسربت أنباء عن استخدام مادة

تستخرج من مخ الخروف الذى تتم تربيته بطريقة خاصة فى حدائق المصحة المقامة على خمسة وعشرين فداناً، ثبت سرها الباتع فى علاج الزهايمر، داء النسيان، الذى لا يحبه الطغاة لأنفسهم، وإن تمنوه لشعوبهم.

لماذا الخرفان؟ ربما لأن الزبائن العرب يحبون العلاج الحلال، فلو أنه كان مخ الخنزير لانفضوا عن المصحة.. كما أن الخرفان عندنا بركة!!

هذه المرة جاء المحامون الكويتيون بفيتامينات ومقويات عالية التركيز إلى جانب المسكنات والمهدئات التى تجعله فى القفص فى أحسن حال.

يسمونها "أدوية الرئيس"، أما نحن الحالمين أيضاً بطول العمر وتمام الصحة، فيتركون لنا نصائحهم بالجرجير والبقدونس والجنزبيل والقرفة وجوزة الطيب والجزر والبصل والعسل والحمص وحبة البركة مع لبان دكر فى زيت زيتون والتوت والعنب والجوز واللوز والبيض والكافيار والروبيان وحتى الجراد.. وكل ما يرد على البال من أعشاب وبهارات ومكسرات، وطبعاً لحوم وبروتينات.

وكله والله لا يفيد.

حتى المطعم الجديد فى لندن يتخصص فى تقديم أكلات ذات قيمة غذائية عالية وهى أساساً من الحشرات، وفى مقدمتها العقارب المشوية والجراد بالفلفل الحار والسبانخ والحلو نحل مغلف بالعسل!

هل يصلح العطار أو الأمير أو المحامى ما أفسده الدهر؟!

من ضرب الرصاص إلى سرير فى القفص

"كمال الجنزورى" رئيس وزراء مصر بعد ثورة ٢٥ يناير، كان رئيساً للوزراء قبل أكثر من عشر سنوات حتى سأل الرئيس السابق بعد الاستفتاء الرابع على استمراره، إن كان من التقاليد أن تتقدم الحكومة باستقالتها، أجابه حسنى مبارك بسرعة "أيوه، أنا هاعمل تغيير وأنت حاتمشى".

"منصور حسن" رئيس المجلس الاستشارى، كان وزيراً شاباً صاعداً نجمه أيام أنور السادات، فلما اعترض بأدب على اعتقالات سبتمبر (أكثر من ألف وخمسمائة شخصية عامة مصرية تمثل مختلف التيارات المعارضة لكامب ديفيد)، سأل الرئيس الراحل وهو يعرض عليه أوراقاً عن إشاعة تقول بتعديل وزارى، أجابه السادات، أيوه، وأنت حاتخرج.

"حسام بدراوى" تولى أمانة الحزب الوطنى لستة أيام وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، فى محاولة لمنحه قبلة الحياة على يد الطبيب بدراوى، ولكن الحزب احترق.. القصة تستحق أن تروى بأجوائها المتوترة، حتى وهو يقول لأقوى الرجال سابقاً "زكريا عزمى": قلة أدب لن أقبلها تانى يا دكتور.

سلفه "صفوت الشريف"، سألوه بعد الانتخابات إياها: ألم يكن ملائماً أن يعطى الحزب فرصة لنجاح بعض رجال الأحزاب الأخرى.. قال: هل تريدوننا أن نزوِّر إرادة الأمة؟!!

كلب الرئيس «برنس» الشرس، يخاف منه موت "مصطفى الفقى" وهو مدير مكتبه، ويفاجأ أسامة الباز بالكلب يلحس قفاه..

أما السيدة الأولى "سوزان" فكان لها ثلاث ببغاوات تناديها "سوزى.. سوزى".

"صلاح منتصر" يكتب القصة من أروقة القصر ودهاليزه.. أما الثورة فلها من يكتبها من ميدان التحرير.

"الصعود والسقوط من المنصة إلى المحكمة"، تاريخ حاكم صعد إلى قمة المجد، وسقط كما لم يحدث لحاكم آخر من قبل.. ففى يوم المنصة وقف السادات يواجه المعتدين فأصبح شهيداً، واختفى مبارك تحت الكراسى فأصبح رئيساً.

يقول مؤلف الكتاب "صلاح منتصر": إن ظهور الرئيس السابق على سرير في قفص أمام المحكمة، وهى أول مرة فى تاريخ مصر يحاكم فيها حاكم، تثير سؤالاً حول حالته الصحية، أم أنه يعفى نفسه من الوقوف عندما يدخل القضاة؟

كتاب جاء فى وقته حتى لا تضيع الحقيقة.. تاريخ موثق من أفواه صانعيه، يضفى عليه صاحبه مذاقاً خاصاً بخبرته الصحفية وتسجيل قصص قد لا تلفت نظر الآخرين، ولكنها تضيف رونقاً وبريقاً يجعلك تقرأ الكتاب فى ليلة واحدة ثم تحتفظ به للزمن.

يقدم "صلاح" نماذج من كُتَّاب سنوات المقاومة، وأولهم "إبراهيم عيسى"، الذى قال فى أبريل ٢٠٠٦ : إنها بلد السمع والطاعة والعبادة فى كل مكان يذهب إليه مبارك.

و"محمود الكردوسى" فى يناير ٢٠٠٧: مصر تآكلت يا سيادة الرئيس، حتى لم يعد فيها دولة ولا نظام، بل أنت ولا أحد غيرك.. أحزابها اهترأت ومعارضتها خصيت وقضاؤها انتهك وإعلامها متخلف وثقافتها شوهت، وبرلمانها يصفق لك وحدك، وأمنها يضرب شرفاءك ليحميك، ووزراؤها أشبه بأحجار على رقعة شطرنج.. لو كنت مكانك أترك الرقعة قبل أن تسمعها "كش ملك"!

و"جلال عامر" فى أغسطس ٢٠٠٩ يكتب عن نظام مبارك الخاص، الذى ينقسم إلى أربع مراحل: مرحلة الكفن مالوش جيوب، ومرحلة المصانع مالهاش صاحب، ومرحلة البنوك مالهاش حارس، ومرحلة البلد مالهاش كبير.

و"مجدى مهنا" وبلال فضل وعلاء الأسوانى وعبدالحليم قنديل وآخرون.. الأول أبعدوه عن رئاسة تحرير "الوفد" ومنعوا مقالاته "فى الممنوع".. والأخير اشتهر بالاعتداء عليه بوحشية مع تحذير بالتوقف عن الهجوم على أسياده!!

ومدونة "مصطفى النجار" الثائر الذى فاز بعضوية مجلس الشعب عن دائرة مدينة

نصر، يخاطب فيها الرئيس السابق قبل رحيله، يطلب منه التخلى طواعية عن حكم استمر ثلاثة عقود كاملة لم تحدث فيها أى انتخابات نزيهة.

والاجتماع الذى حضره شباب الثورة مع "أحمد شفيق" رئيس الوزراء، واللواء حسن عبدالرحمن مدير أمن الدولة وقتها، ودام ساعتين دون حضور المصورين أو الصحفيين، كان محاكمة عن أعمال العنف التى ارتكبت.. أخذ كل شاب يحكى ما جرى لغيره.. وبكى "وائل غنيم" وهو يروى قصة ضرب "مصطفى النجار" ونجاته من الموت بمعجزة يوم معركة "الجمل"، وقد كان فى وسط الميدان عندما شاهد زميلاً يقف إلى جواره يسقط برصاص قناص.

لم يكن "مصطفى" وحده الذى أصيب أحد ضلوعه، ولكنهم كثيرون، من بينهم الفنان الشاب عمرو سلامة.. كما يرويها "صلاح منتصر" فى كتابه "الصعود والسقوط، من المنصة إلى المحكمة" عن مدونة "عمرو": كان الشارع فاضى تماماً. وفى الأفق شفت بشر كتير لابسين أسود، معرفتش أنهم عساكر إلا لما لقيت نفسى فى وسطهم والضرب نازل بعصيانهم على دماغى ووشى وبطنى ورجليا، ودخل قائدهم الضابط المحترم المغوار اللى مش هنسى وشه ليوم الدين يضربنى بالبونيات على وشى بشكل لم أكن أتخيل أن جسم البنى آدم ممكن يتحمله.. وخد "الآى فون" العزيز بتاعى وداسه على الأرض، وقعد يتمطط عليه، ثم فاق لنفسه، وقال سيبوه بطلوا ضرب، قلت الحمد لله ضميره صحى، لكنه أكمل قائلاً: عشان الكاميرات ما تصورش، وأخذنى إلى شارع جانبى، ثم دخل مدخل عمارة ومعه العساكر اللطاف وقفل علينا باب العمارة، وبلغة الحوارى قصنى وجابنى أرض، وبدأ الضرب مع كورس شتيمة "يا ولاد كذا.. وعامل فيها مثقف يا ابن....."، وأنا أرد عليه: مش مثقف ولا نيلة، أنا هنا عشانكو أنا مصرى زيك.. وبعد ما زهق قال للعساكر عايزكو تموتوه زى الواد التانى، وإما هرجع أموتكو أنتو.. ولو جعانين كلوه!

عرفت صلاح منتصر مبكراً قبل أن تتفرق بنا السبل. يبقى الود عن بعد، أقرأ ما يكتبه كل يوم، وأتذكر مشاغباته مع توفيق الحكيم ودوره صحفياً وصديقاً فى إنقاذ فاروق الفيشاوى من الإدمان، ورحلاته العجيبة، ولعلنى أول من اشترى كتابه "رحلتى إلى آخر العالم".. وأول من قرأ كتابه الأخير "من الصعود إلى السقوط".

وسّع يا جدع الباشا وصل!

فرحت "منى الشاذلى"، وانفرجت أساريرها مندهشة لأن الوزير وصل بأقل حرس.. تقدر المذيعة اللامعة أفراده بمن كانوا فى صحبة الوزراء العاديين سابقاً.. نعرف قبل أن تعترف بأنه وزير الداخلية جاء إلى الاستوديو حتى قبل موعده.

فى البال هيلمان "حبيب العادلى".. ترى كيف كانت إجراءات لقائه وحراسته، بل ورؤيته.. ربما استطاع "مفيد فوزى" أن يحكى لنا حكايته بأسلوبه المتميز فهو الوحيد الذى اكتوى بنار إجراء أحاديث تليفزيونية معه حتى آخر أيام عنفوانه.

لعنة الله على السن والزهايمر، الذى أنسانى صحفية إيطالية التقيت بها مرة فى "روما"، ولعل اسمها "أوريانا فالاتشى"، اشتهرت بإجراء أحاديث صحفية مع زعماء العالم والمشاهير ياسر عرفات وجولدا مائير وأنديرا غاندى وكل من يثير الجدل".. أهم ما فيها أسئلتها الجريئة.

أصدرت كتاباً يضم تلك الأحاديث ولكن بأسلوب خاص، إذ لم تعد نشر ما سبق وقالوه من حقائق وأكاذيب، ولم يعد منهم كثيرون ماتوا أو عزلوا أو فقدوا البريق.. اختارت الصحفية الإيطالية أن تكتب عن الأجواء التى عاشتها عند لقاء امبراطور إيران، وزعيم، ألمانيا وملوك ورؤساء ونجوم فن.. حركاتهم لحظة دخولهم، المحيطون بهم، أثاث

القصر رذالة خارج سياق الحديث كل شىء، وكأن القارئ يصحبها إلى حيث تذهب.

ولعل "مفيد" يقدم لنا كتاباً عمن التقى بهم وعرفهم بالطريقة نفسها.

ولعل "منى" فعلت الشىء نفسه فى جملة واحدة - وما أجملها عندما تندهش - وتذكر رقة ودماثة حرس الوزير.

ولكن رئيس الوزراء، الذى لا هو جنرال ولا متغطرس، أصابته العين بفعل حراسه القبضايات، مثلما أصابته بتصريحات المتحدث باسمه مع أنه كاتب ومفكر وأستاذ "معتز بالله عبدالفتاح".

أثناء خروج الدكتور "عصام شرف" من قاعة المؤتمرات الكبرى، بعد أن ألقى كلمته أمام لجنة الحوار الوطنى - اسمها كذلك - تصرف حرسه بفظاظة، أو على طريقة ريما وعادتها القديمة، مما استفز الحاضرين، خصوصاً الشباب الذين تعالت هتافاتهم الغاضبة "داحنا إللى جايبينه، إحنا اللى نحميه".

زميلنا "مجاهد خلف" كان هناك، ولم أقرأ لغيره فى صحيفة أخرى قصة "حرس شرف"، أو صرخة "رئيس رابطة المعوقين" بالمحلة الكبرى، الذى أعلن أن الوصول للمسئولين مازال صعباً.

لم نسمع بما فعله الحرس عندما أفطر رئيس الوزراء وأسرته فولاً وفلافل فى "التابعى"، فكانت قصة مصورة.. قد تتكرر، رضاءً لسائر مطاعم الفول فى المهندسين، على الأقل جاره الذى شارك رجاله - مثل غيرهم - فى الثورة، فارتفع شعار "آخر ساعة".. "بتاع مظاهرات مش بتاع ساندويتشات".

سألت "لميس الحديدى" - ببعض البراءة -: هل يصحب الدكتور "عصام شرف" معه مصوراً فى كل همساته وتحركاته؟.. يعنى فى المجلس ماشى، لكن عندما يذهب إلى التابعى الدمياطى ليأكل الفول، أو حين يتوقف ركابه لإنقاذ مواطن فى حادث موتوسيكل.. كله بالصور موثق!! أو ربما هى أجهزة الموبايل الحديثة.. أو بعض الظن إثم!!

حكاية ثانية مختلفة تماماً فيها الحارس يشكو الوزير، والحق أنه لم يعرفه فهو جديد، ولو كان "فاروق حسنى" ما زال على عرش الثقافة ما أخطأه أحد، لأنه تربع أكثر من عشرين عاماً.. كما أنه كان أنيقاً وضرورى الوزير آخر

شياكة.. أما "عماد الدين أبوغازى" فيلبس "الجينز" الأزرق وقميصاً أصفر وهو يشارك فى احتفالية "مصر أمنا كلنا" فى القلعة.. طلب منه المقدم من شرطة السياحة والآثار بطاقته الشخصية فقدمها له.

يبدو أن الضابط بدت عليه دهشة "منى الشاذلى" فقال: "حضرتك.. يا أفندم".

ما الذى جعل "أبوغازى" يغضب ويرفع صوته: "كلمنى كويس.. انتو هنا ضيوف عندنا.. وأنت اسمك إيه ادينى اسمك" مع التهديد بإبلاغ زميله وزير الداخلية.

لولا ما أسمعه عن وزير الثقافة الجديد من سعة أفق وجميل خلق لصدقت.. ولولا أن التى تابعت الواقعة كتبت اسمها "سما صالح" على الخبر لقلت إنها إثارة صحفية.

أغلب الظن أن "أبوغازى" أحس بسخرية فى ترحيب الضابط به بعد أن تعرف على شخصه.. وربما كان الحق على الجينز!

أين حرس الوزير ووسع وسع يا جدع وضرب الأكتاف والشلاليت.

ومن يراقب محاكمة كبيرهم ومعلمهم "حبيب العادلى" والجدار الفولاذى يخفيه عن الأنظار، فلا نعرف إن كان وراء الأسوار أم جنرالاً يدير المعركة؟.. أليست تلك أعمال وخبرات الحراسة المشددة "المنظرة"، رجالها من غير طينة البشر؟!

لم يفوِّت "عادل إمام" موضوع الحراسة، بعد أن تحول من الميرى إلى القطاع الخاص، وأصبح تميزاً لرجال الأعمال، فكانت مسرحية "بودى جارد" آخر العنقود، بعد "الزعيم"، وكلتاهما فيها ما يضحك من الرؤساء والكبراء.. ولولا أن الفنان الكبير له رأى مختلف فيما حدث مؤخراً، وصداقة محترمة مع الرئيس السابق والأنجال، لكان المشهد فى "شرم الشيخ" وطرة موضوعاً مثيراً لمسرحية قادمة.

.. أما ألذ "بودى جارد" فى السيما فهو "أحمد السقا"، ليس فقط لأنه يحرس معالى الوزيرة "منى زكى" التى يحبها وتموت هى فيه، وإنما للقبول الذى يتمتع به بصرف النظر عن شوية الأكشن العنيف فى آخر فيلم "تيمور

وشفيقة"، وبالمقارنة بالحراسة الخاصة فى "كود ٣٦"، والتنافس بين "مصطفى شعبان" و"أحمد عبدالغنى" ابن زميلنا الصحفى الفنان الجميل سعيد عبدالغنى.

أبو دم خفيف وذكاء يحسد عليه "أحمد حلمى" قام بدور البودى جارد فى "زكى شان"، رغم جسمه النحيل وتربص أولاد الحارة به عند عودته كل ليلة يجردونه من ملابسه، ويتركون له ما يكفى لستر عورته.. ويبدو أن الفتونة أعجبته مدعياً وتعويضاً عما يبدو عليه من ضعف الجسد، فكان دوره فى "جعلتنى مجرماً".. كلكم شاهدتم تلك الأفلام أكثر من مرة، فهى مقررة علينا فى جميع المحطات التليفزيونية.

هذا وأرشح الفنان الموهوب محمد سعد المتمسك باللمبى، والذى لم يحالفه الحظ فى أفلامه الأخيرة ابتداءً من "كركر" وحتى "٨ جيجا" ليقوم بدور "البودى جارد" فى فيلم جديد يستعرض فيه كل الغلاسة مع ابتسامة!!

أيام الشعر الفجرى المنكوش!!

أيام جميلة وصعبة، لا ينفع فيها إلا دعاء الوالدين.. وأيام قادمة قد تكون أصعب، نواجهها بالصبر والسلوان.

حكومة وراء حكومة ووزراء يتشابهون.. لا فرق يذكر بين "كمال" و"عصام" مع حفظ المقامات.. أما "شفيق" فقد كان عصراً آخر.

وانتخابات تختلف تماماً.. يكفى أن الكل يحرص على صوته يقف فى الطابور مهما يطل ويختار من يراه دون إرهاب.. اختفى المزورون، وأخذ البلطجية إجازة، ولم يعد الباشوات عبد المأمور، لا شخط ولا نطر ولا تهديد.

فلما ظهرت النتيجة وبانت، ونحن الذين صنعناها بأيدينا بدأت مشكلة لم نكن نتوقعها سريعاً بالاندفاع فى إطلاق الأحكام والفتاوى التى تبدأ وتنتهى بالتحريم والتكفير، وويل لكم يا كل المصريين.

لم يمسكوا ألسنتهم فأصابنا الخوف.. ولكننا لا نندم، فتلك هى الممارسة الديمقراطية التى كانت على وشك أن تأتى بأحد قادة السلفيين الذى لا يخجل من وصفها بالكفر، ثم يفسر الأمر بما لا يقبله عقل.

إذا كان السؤال: ماذا سوف نفعل معهم؟ فالواجب أن نسأل: ماذا سيفعلون هم بأنفسهم.. إنه امتحانهم.. فلماذا نحمل عنهم همهم الذى عليهم أن يتحملوه، وهو ثقيل لو يعلمون.. قد يكون فخاً أكبر!!

نحن جميعاً فى امتحان واحد، لو أننا نخرج منه فائزين بترسيخ أسس الديمقراطية التى نبدؤها بعد طول حرمان.. نتحاور ونتفاهم ونتقبل الآخر ولا نقول، كما يتوقع البعض ساخرين: "لا تناقش ولا تجادل يا أخ حمزاوى".

وهناك صورة معبرة لاجتماع البرلمان الجديد يقف فيها النواب صفاً واحداً بذقونهم الطويلة، بينما يقف واحد فى وسطهم يتجه "شعره الغجرى المنكوش" لفوق، هو النائب الليبرالى الناجح من أول مرة عمرو حمزاوى.

لم يكن فوز الإسلاميين مفاجأة، ولكن كثيرين لم يتوقعوا حصولهم على تلك النسبة الغالبة من مقاعد مجلس الشعب، وكأنهم حققوا معجزة جعلت البعض يقول مخففاً عن نفسه: أحضرنا مصباح علاء الدين لنطلب من الجنى ألا نرى مرشحاً من الإخوان، فلما خرج من القمقم قال: وإحنا عملنا لك إيه بس؟!

أما ساويرس، مهندس المعارضة الليبرالية، فقد سمعه أولاد الحلال يقول: مش عايز أسمع كلمة صباح "النور" تانى، ويغيرون اسم الفيلم المشهور بـ "ساويرس يعظ"، ويكون أول قرار لمجلس الشعب الجديد إعلان "الكتلة المصرية" جماعة محظورة!!

فإذا ما جاء الصيف، أقيمت مسابقة ملكة جمال النقاب على شاطىء الخنساء "مارينا سابقاً".

ويسرى تحذير: يا قاعدين ع "البيسين" يكفيكوا شر الإخوان المسلمين.

بقدرة قادر تغيرت كلمات الأغانى، فأصبح عمرو دياب يشدو: مين كام سنة وأنا إخوان إخوان.. وعدوية: يا بنت الإخوان، حلمك ع البرلمان، ده المجلس فى إيديكى وساويرس عطشان.

وشعبان: هابطل أبقه ليبرالى، وأكون إخوان شديد، إيييه.

وتامر حسنى يستعد للجزء الثالث من فيلم "الأخ عمر والأخت سلمى".

وتتغير أسماء الأفلام القديمة لتصبح "أرجوك أعطنى هذا المسواك"، و"عمارة حسين يعقوب"، و"فتح أطاليا"، و"همام فى قندهار"، و"التجربة التركية"، و"صبحى صالح فى الأسطول "، و"شورت وعباية وحجاب"، و"سلفى فى الجامعة الأمريكية"، و"أبى فوق المئذنة"، و"الناصر حسن البنا"، رداً على

مسلسل الجماعة، ويتحول "طباخ الرئيس من "طباخ المشير" إلى "طباخ المرشد".

ومع كل يوم يزيد عدد أسماء الأفلام المتغيرة، ومع أنها تصبح قديمة إلا أنها تبعث دائماً على ابتسامة بريئة على الشفاه، فلا داعى لغضب الفائزين فى الانتخابات.

تختفى الابتسامة مع تشكيل الحكومة بعد التعثر وغرابة الأسماء التى رشحت للوزارة، فرئيسها يبدو متجهم الوجه، اشتهر بوقف رسوم مصطفى حسين الكاريكاتيرية عن رؤساء وزراء مصر، مع أن الذين يعرفونه يقولون إنه يحب النكتة ويتذوقها ويرويها.

وتختفى أيضاً مع انتخابات الإعادة، حيث لم يكن هناك إقبال على التصويت، وقد كان الحماس شديداً مفرحاً فى اليوم الأول.

ماذا جرى للمصريين؟، أين اختفوا؟، هل فقدوا الاهتمام بعد أسبوع واحد؟، لا يمكن أن يكون اليأس قد أصابهم من فوز الإخوان المسلمين فهم الذين اختاروهم.. لعلهم تصوروا أن النتيجة حسمت مبكراً أو ندموا على فوز السلفيين بعد أن كشفت تصريحاتهم عن ريح عاصفة قادمة.

تسرع من قال إن طوابير الانتخاب الطويلة هى استفتاء على حكم ميدان العباسية، وإذا كان المتخلفون فى يوم الإعادة سرعان ما أصابهم اليأس أو الخوف، فأين جماهير الأغلبية، لماذا لم يظهروا فى لجان الانتخابات؟

يبدو أن الابتسامات ليست سوى "حلاوة روح"!

انتخبوا الحمار!!

دعوة لا علاقة لها بالانتخابات القادمة، قائمة وفردى ولا انتخابات النقابات، فالحمير فيها ليسوا كثيرين.. وإنما هى إعادة حسابات.

حسناً أن فعلتها "فارنا"، تلك المدينة الجميلة على شاطئ البحر الأسود، اشتهرت بيننا أيام الاشتراكية مصيفاً متاحاً رخيصاً لفقراء البورجوازيين أيام الشدة، وقد مضى على ذلك خمسون عاماً، حيث كان السفر من مصر عذاباً، فلا صوت يعلو على صوت المعركة، والأمن العام، وشرط الحصول على إذن بالخروج مع السماح بخمسة جنيهات إسترلينية وقسيمة مشتريات.. ومازال الميناء والمصيف البلغارى على حاله بمنتجعاته الطبيعية ورماله الناعمة، وإن استبدلناه برحلات أخرى أشهرها وأرخصها إلى إسطنبول.

لماذا الحمار يا أهل "فارنا"؟

لأنه لا يسرق ولا يكذب، ويعمل بجد، وهناك فرق كبير بينه وبين العمدة الحالى.. ثم إنه ثانى أهم حيوان أليف بعد الكلاب.

عن الكلاب أذكر فيلماً بطولة "باتريشيا نيل"، مذيعة تكتشف المواهب، كان آخرها صوتاً جميلاً لسجين فى بلد صغير.. نجح واشتهر وأصبح له نفوذ.. اختلف مع العمدة فطلب فى نهاية برنامجه على الراديو أن يأخذ كل واحد من عشاق صوته كلبه ويذهب إلى ساحة البلد، حيث مكتب العمدة وهناك «تهوهو» الكلاب.

تقدم حزب مجتمع بلغارياً الجديد بمرشحه الحمار "ماركو"، وقبلت أوراقه رسمياً، لتجرى الانتخابات لاختيار العمدة يوم ٢٣ أكتوبر (٢٠١٠).

قبل أن يخاف بشار الأسد على نفسه، أسرع رجاله بإطلاق النار فى موقعة كتب عنها الدكتور إبراهيم الحمامى تحت عنوان "بين موقعة الجمل ومعركة الحمير"، وقد شاهدها على شريط فيديو.. لم تكن الحمير مسلحة، ولا بينها مندسون من خيول أو أغنام، ولم تهتف بسقوط الطاغية.. كانت ترعى فى أمان الله.. لماذا أطلق الجنود عليها الرصاص؟.. هل لأنها حمير الآخرين؟ أم أنها الآخرون؟

وفى كتاب "عصر مبارك" لـ "روبرت سبرنيجبورج" الخبير بالشئون المصرية فى كلية الدراسات العليا البحرية الأمريكية، كشف عن صفقة الحمير المصرية، وهى عشرة آلاف حمار هدية من منير ثابت للمخابرات الأمريكية، تم نقلها إلى أفغانستان عبر شركة الأجنحة البيضاء التى أسسها حسنى مبارك وحسين سالم وعبدالحليم أبوغزالة، لتكون الناقل والمورد الرئيسى لتجارة السلاح فى مصر.. كانت الحمير هى وسيلة الانتقال الوحيدة للمجاهدين الأفغان فى المناطق الجبلية أثناء مقاومتهم للغزو الروسى لبلادهم تساعدهم أمريكا قبل أن تتغير الأحوال وينقلب التحالف إلى عداء وحرب مع الأمريكان.

نشر القصة الزميل حمادة إمام فى كتاب "انقلاب الأصدقاء"، الذى يكشف فيه عن خبايا الفساد وتجارة السلاح وعلاقة السياسة والسلطة بالمال والبيزنس.

وكتب محمد عبدالمنعم الصاوى صاحب الساقية عما يقولونه عن شعب يرونه لا يعرف مصلحته فيتبارون فى صياغة نصوص تقترب من الهزلية لما تحمله من مصادرة لحقه فى تقرير المصير ليكون اختيار الشعب بالانتحار، أو الحمار، أو القفز من فوق أعلى جدار!

ودخل أديبنا الكبير توفيق الحكيم التاريخ بحماره، ومن قبله جحا بنوادره، كما يستغله لينين الرملى فى حواراته الساخنة مع الحصاوى.

وأعلن المخرج المسرحى زكى طليمات عن تشكيل جمعية الحمير المصرية، لم يبق منهم سوى الفنانة نادية لطفى.

وغنى المطرب الشعبى سعد الصغير "بحبك يا حمار"، وأقامت تركيا عرضاً لأزياء الحمير فى عاصمتها "أنقرة".

وأجر الحمار الكومبارس فى السينما أكبر من البنى آدم.. وشكله وهو يجر عربة الزبالة يصعب على الكافر.. والحمد لله أن ثبت بالدليل القاطع أنه من الأذكياء بعد عمر طويل اتهم فيه بالغباء.

ولا تصدقوا المثل الذى أعاده على مسامعنا الإعلامى المخضرم طارق حبيب، "بأن المرأة تحب الثعلب لفرائه، والثعبان لجلده، والنعام لريشه.. والحمار لأنه يشترى لها كل ذلك".

ولكن "فارنا" سبقتنا وسبقت العالم بترشيح الحمار.

ماذا لو أنه فاز؟!

السياسة..سيما!!

احتجاز الدكتور "عمرو الشوبكى" فى مطار القاهرة عند عودته من "بيروت" كانت "عسل أسود" على طريقة فيلم "أحمد حلمى" الأخير.. قبل برنامجه اللذيذ "شوية عيال"!

هل كان "عمرو" يحمل جواز سفر آخر مثل أحمد فينقذه؟.. لا أعرف ولو أن الكثير من الدارسين فى الخارج، وهو واحد منهم، حصلوا على جنسية أمريكية أو أوروبية مع احتفاظهم واعتزازهم بمصريتهم، وقد تصدر بعضهم وهو واحد منهم مشهد الدعوة للتغيير بالثورة أو بالمحاضرات.

عادت حجة "تشابه الأسماء" إلى المطار، وكنت أتصور أنها قد انتهت فهى من يومها ليست إجراءً أمنياً جاداً وإنما ذريعة.. ولم يكن مستحيلاً تنقية الكشوف، وإنما بقيت مع تقديم الاعتذار سلاحاً يشهر فى الوجوه حتى لا يظن القادمون، أنهم حقاً يدخلونها آمنين.

أما حكاية السياسة سيما، فقد راودتنى عندما عرضت أمام محكمة الرئيس وآخرين متهمين بقتل المواطنين، سيديهات ميدان التحرير شاهداً ودليلاً على ما جرى فوجىء الجميع بالمتهم كريم عبدالعزيز ومشاهد من فيلم "الباشا تلميذ".. غريبة!!

ويتوقع البعض مشاهد سينمائية من فيلم آخر، لو أن قضية تصدير الغاز لإسرائيل استلزمت عرض سيديهات.. و"السفارة فى العمارة" لعادل إمام

يصلح هذه الأيام.. وفيلم "زهايمر" يشبه حالة الرئيس السابق نائماً على سرير فى قفص الاتهام ينكر أو لعله ينسى.

والانتخابات النيابية (قائمة وفردى)، هل تأثرت بطريقة "بخيت وعديلة"، وقد شاهدناها فى أكثر من فيلم وتحت اسم "الجردل والكنكة" والأبطال أنفسهم، حتى أخذهم المؤلف "لينين الرملى" إلى أمريكا فى فيلم ثالث هو "هاللو أمريكا" ليضحكنى كثيراً على مشهد زواج عادل إمام من الأمريكية السوداء ليحصل على الإقامة فى بلاد العم سام.

من هو الوزير أو الوزراء الذين اختيروا بالمصادفة والغلط على طريقة أحمد زكى فى فيلم "معالى الوزير"؟

ومن هو الوزير الذى يقول لسان حاله "ادبح يا زكى قدرة، يدبح زكى قدرة" الحكمة التى رددها المبدع الراحل عادل أدهم فى فيلم "حكمتك يا رب".

كثير من السياسة أصبح سيما، ولا تكاد تخلو مقالات الكتاب من مقارنات بين الحكام ونجوم الأفلام، وصولاً إلى تشبيه تصريحات وزير العدل عن أموال بالملايين بعث بها أشقاء وأمراء عرب، كاد يسميهم ولم يفعل؛ للتآمر على ثورة مصر بأنها اتهامات من نوع الحوار المشهور بين فؤاد المهندس وشويكار فى مسرحية "أنا وهو وسموه"، كل منهما يوجه اتهامه للآخر عن طريق الهجوم على صادق أفندى «سلامة إلياس»!

والحق كله على الإعلام لا يكفى على الأخبار ماجور ولا يطلق قلمه الرصاص لسانه الطويل على ما يجرى وراء الكواليس، ويخلط بين السياسة والسيما إذا حبكت!

قال إن الدبلوماسى القدير محمد بسيونى سفيرنا الأشهر فى إسرائيل مات وهو يقرأ الصحف كعادته كل صباح.. يبدو أن الحق فعلاً على الإعلام!! رحمه الله.

ع اللى جرى

لا أذكر متى رأيت الفنانة "أصالة" أول مرة
هل كان حفلاً أقامته مجلة "كاريكاتير" دعا إليه رئيس مجلس إدارتها "يحيى زيدان"، وكانت المجلة حلماً راود صديق عمره "أحمد طوغان" الذى رأس تحريرها هو و"مصطفى حسين" وكتب ورسم فيها معظم نجوم الكتابة الساخرة.. يوسف عوف، محمود السعدنى، فايز حلاوة، فرفور، مجدى صابر.
تطوعت الفنانة السورية الصاعدة بالغناء لجمهور نخبة من المثقفين.. وكانت مفاجأة.
ربما استمعت إلى صوتها القوى الجميل مرة أخرى مجاملة للصديق "عباس الطرابيلى" يوم فرح ابنته.
ولكن الذى أذكره جيداً هو الوجه الآخر لأصالة، ولم تكن قد أصبحت مشهورة وقادرة عندما جاءت غاضبة فور نشر "أنيس منصور" مقالا تناول فيه - على طريقته - نظام حكم "الأسد" فى سوريا، والحق أن المقال كان حاداً، ولم تكن له مناسبة.. وكان "أنيس" قد أصبح لفترة محدودة رئيساً لتحرير "كاريكاتير".
كان غضب «أصالة» حقيقياً وعارماً وانطلاقاً من اعتزاز بقوميتها، ودليل اشتغال بالسياسة لا يخفى.
مرت سنوات طويلة دون أن أنسى ذلك المشهد بين الفتاة الصغيرة الناحلة والكاتب الأديب العملاق.

أتذكرها دائماً عندما تغنى لجمهورها العريض فى كل أنحاء العالم العربى "ع اللى جرى".

حتى جاء وقت الاختيار، يوم ثار شعب سوريا مطالباً بالحرية التى اغتصبها رئيسه وأسرته والشلة المحيطة به فعم الفساد.. وكان الرد على المظاهرات السلمية إطلاق الرصاص فى المليان، وسقوط قتلى بالمئات، ومطاردة الجميع وتهديدهم بشبيحة للنظام.

خاف معظم الفنانين السوريين، ونافقوا ومن بينهم أسماء كنت أظنها أول الأحرار "دريد لحام"، وجميلات أحبها جمهورنا "سلاف فواخرجى".. وكم كانت مخزية تصريحات "رغدة" وتفاخرها بأنها مع "بشار"، و"القذافى" قبل سقوطه، ونالت من أصالة وغمزت.

كتاب وفنانون يقفون ضد طغيان "الأسد" وسوريات، إما فى السجن مثل "طل الملوحى" أو ملاحقة مثل "سهير الأتاسى"، ولكننا للأسف لا نعرف الكثير عنهم.. ربما لأننا أيضاً مشغولون بثورتنا؛ ولأن أعمالهم لم تنتشر بيننا، وهذا تقصير منا ومنهم.

حتى كان الاعتداء الوحشى على رسام الكاريكاتير الشهير "على فرزات" حتى يكون عبرة لغيره.. ولم يعتبر الفنان، بل تحدى.

ارتفع صوت أصالة: أنا مع الثوار، لكننى أقل منهم شجاعة.

وإذا كانت قد غنت يوماً لحافظ الأسد وغضبت من أجله، وخاصمت أنيس منصور، كما غنت لبشار، وتفاءلت به، فإنها اليوم تغنى:

"آه ها الكراسى لو تحكى".

ها الكرسى بيعمل عمايل، بيعمل للأصلع جدايل

عا الكرسى صاحب معالى، سيفه على شعبه بيلالى

واللى بيقعد ما بيتزحزح، ما بيتحرك، ما بيتلحلح

كل الكراسى اتكسرت، والشعب بطل يسمعك، وكل القتل ما بينفعك..

سكتنا كتير عالظلم، لا تقول ما عندك علم.

لم تعبأ بالحملة القذرة ضدها: صور للقبلة الشهيرة أمام الجمهور مع زوجها "طارق العريان"، وبنطلون محزق فى حفلات "ستار أكاديمى"، وشتائم واتهامات ومطالبة بسحب جنسيتها السورية.

على باب الإيموبيليا

ليس صحيحاً أن للروائى المتميز «علاء الأسوانى» دراويش يدافعون عن أعماله بمطاردة من يقتربون من إبداعه؛ حتى يبقى وحده كاتب النميمة السياسية والجنسية فى مصر.

ولو أخذنا بهذا المنطق لوجدنا أعمالاً أدبية كثيرة تأخذ الاتجاه نفسه مثل «بيت العائلة» لسامية سراج الدين، الذى صدر باللغة الإنجليزية قبل ترجمته مؤخراً للعربية، وهو يدور فى «جاردن سيتى»، حى الأرستقراطية سابقاً.

ورواية «زهرة البستان» لخالد إسماعيل التى تتخذ من القهوة المشهورة فى وسط البلد مسرحاً يتحرك عليه ويتأثر به أشخاصها.

و«شقة جامعة الدول» لمحمد عبدالغفار، والتى تتخذ من شارع جامعة الدول العربية مسرحاً لحكايات الفساد السياسى والأخلاقى.. ثم «عمارة الإيموبيليا» التى لا يراها «محمود معروف» قراءة متجددة لتاريخ سياسى واجتماعى واقتصادى وفنى عاشته مصر فى القرن الماضى فحسب، وليس مجرد قصص أو أحداث وقعت لسكان أشهر العمارات السكنية فى مصر.

كان محظوراً على من يرتدى جلباباً أن يقترب من شوارع وسط البلد حيث «الإيموبيليا».

سكنها أشهر الفنانين، وتردد عليها الملك فاروق لزيارة ممثلة الإغراء اليهودية «كاميليا».

ولقد تم تأميم العمارة بعد الثورة، وسقط عرش فاروق، وماتت كاميليا قبل ذلك فى حادث طائرة.

وعشرات من الفنانين المشهورين، وعيادات طبية لأساتذة كبار ونجوم كرة القدم زمان يترددون على أحد مكاتب المليونير «أحمد عبود باشا» مالكها ورئيس النادى الأهلى.

ارتبطت بالكاتب السياسى والمحامى والصحفى «فكرى أباظة» حيث عاش فيها طوال عمره وحيداً.

وعندما تأسست نقابة الصحفيين اتخذت من «الإيموبيليا» مقراً لها.

حكايات وأسرار سجلها التاريخ، ورواها «البوابون» الذين مازالوا على قيد الحياة، وجعل «محمود معروف» من تفاصيلها كتاباً.

على مدخل البرج «ألف» لوحة تذكر أن «نجيب الريحانى» كان يعيش فى الشقة ٣٠١ بالدور الثالث، وضعتها سيدة فرنسية إسبانية تدعى أنها ابنة الفنان الكبير من راقصة إسبانية كانت ترقص بملاهى الإسكندرية تزوجها سراً.

«ليلى مراد» التى أسلمت هناك، وفيلم «غزل البنات» الذى بدأت فكرته فى مصعد «الإيموبيليا»، و«أنور وجدى» قبل أن ينتقل إلى عمارة يملكها، وتحمل اسمه.

وعندما تقدم «أنور السادات» للزواج من «جيهان» اشترطت أن يحيى الحفل «عبدالعزيز محمود»، فذهب السادات بنفسه إلى عمارة الإيموبيليا للقائه، ولكنه اعتذر لارتباطه بحفل زفاف آخر فى الوقت نفسه، وتأجل فرح جيهان والسادات أسبوعاً حتى يحييه «عبدالعزيز محمود».

وإذا كانت «الإيموبيليا» تزخر بنجوم المجتمع فى جميع المجالات، فإنها لم تخل من الجنس والدعارة وتجارة المخدرات والتجسس.

حكاية وراء حكاية ومجموعة من صور الماضى بالغة التعبير، تعليقاتها أكثر تعبيراً.

مصرى اسمه «خان»

ندين جميعاً بالاعتذار لمحمد خان المخرج «المصرى» الذى أسعدنا، وأمتعنا سنوات دون أن يحمل جواز سفره المصرى.

مازلنا رغم كل ما قدمه من أعمال سينمائية راقية، قال فيها كلمته وكلمتنا.. نطالب بمنحه الجنسية المصرية، ولا نجد من المسئولين من يستمع إلى أصواتنا.

عندما التقى الرئيس السابق بمناسبة فيلمه «أيام السادات»، وعده بـ «المنحة»، وربما اندهش لأن المخرج ليس مصرياً.. ولكن حسنى مبارك لم يكن مبالياً، ينسى مثل تلك الأمور، أو يتسلى، أما رجاله فلم يهتموا إلا بما جعلهم يقفون أمام تحقيقات الكسب غير المشروع.

قال عماد الدين أبوغازى، المثقف الواعى قبل أن يكون وزيراً فى مداخلة مع جابر القرموطى، زميلنا الشاب الغاضب أحياناً، المندهش كثيراً، صاحب برنامج «مانشيت»: إنها مسألة وقت.

ونحن فى انتظار رئيس الوزراء ووزير الداخلية.. لعلهم يبادرون ويعتذرون.. فوقت منح الجنسية لمحمد خان قد فات من زمان، ولست أعتقد أن قانوناً يمنع أو يتلكأ.

الرجل ليس فى حاجة لأوراق ومستندات، لأن أفلامه تدل على مدى عمق مصريته.. وإذا كان أبوه باكستانياً، أو يحمل جوازاً بريطانياً، فإنه اختار أن

يكون مصرياً ليس فقط مثل أمه التى أنجبته، وإنما لانتمائه الذى لم يفقد الحماس.

هل أذكركم ببعض أعماله إن كنتم أيضاً قد نسيتم «ضربة شمس».. «أحلام هند وكاميليا».. «سوبر ماركت» واحد من أحسن ١٠٠ فيلم فى تاريخ السينما المصرية.. ختام فيلم «خرج ولم يعد» الذى يصرخ فيه «يحيى الفخرانى» وهو عائد إلى القاهرة من رحلة عجيبة للقرية المصرية: «جايلك يا أحمد يا عدوية».. روعة «زوجة رجل مهم» وفيها كل انفعالات وتجاوزات ضابط شرطة «أحمد زكى» الذى عاش الدور حتى بعد خروجه من الخدمة لإصراره على تزييف ثورة الجماهير (يومى ١٧ و١٨) ليؤكد أنها انتفاضة حرامية.. وأخيراً «فى شقة مصر الجديدة» و«بنات وسط البلد»، حيث تحولت الشوارع إلى قلوب تنبض بالأحلام.

هذا ويستعد للمسطول والقنبلة، مستوحاة من قصة قصيرة ساخرة لنجيب محفوظ، يدين فيها على طريقته عصر المعتقلات.

لماذا بعد كل هذا لم يمنحوا «محمد خان» جنسيته المصرية.. أو على الأصح يعيدونها إليه، فأحسب أنه لم يحس بأنه غريب عن وطنه يوماً واحداً، وإلا ما كان قدم هذا الإبداع بتلك الروح؟

تجاهلته الحكومة ولكن الشعب أحاط به.

لن أسأل من الذى حصل على الجنسية المصرية بكلمة واحدة عابرة دون دراسة أو قانون، بفرمان جمهورى شفاهة.. مع أن من بينهم من يستحق التقدير؟

ولكننى أسأل عن الذين نالوها بالرضا السامى، وواسطة تخترق كل الصعوبات وتختصر الزمن.. وهم لا يستحقون!

وأتذكر من كانوا على رأس السلطة والنهب والسلب الذين وجدوا خلاصهم بعد هروبهم فى التنازل ببساطة عن جنسيتهم المصرية لعلهم يفلتون من العقاب.

لقد جاء الوقت الذى تقدم فيه مصر لمحمد خان جنسيتها بكل عزة وكرامة.. تأخرت، ولكن لها اليوم طعماً آخر.

أعرف أن كثيرين كتبوا وطالبوا وعابوا علينا، وأعرف أن حكام اليوم لن يتأخروا، وأنها فعلاً مسألة وقت.

وإذا كان البعض يلوم «محمد خان» لاعتراضه على تمثيل عدد من الفنانين، شاركوا فى حملات الترويج لنظام مبارك فى احتفال مهرجان «كان» الأخير بالثورة المصرية الشابة، فقد فعل ذلك لإحساسه العميق بأنه مصرى حتى النخاع.

وإذا كان «خان» يبتعد فى الماضى عن إثارة موضوع جنسيته، فقد أصبح بعد الثورة سعيداً بالحملة المكثفة التى تنادى بعودته - رسمياً - إلى مصر التى لم يغب عنها بشخصه أو فنه يوماً!!

فى وداع الفنان العجوز

لم يمت لأن أعماله باقية.. لم يكن مشهورا باسمه وإنما بأدواره الفنية الرائعة.. لم يفسده المال فلست أتصور أن أجره كان عاليا.. هكذا ترك الدنيا فى صمت، وبعض أفلامه كان صمته فيها أبلغ من أى كلام.

لم يعرف الأضواء إلا فى سن الخمسين، فلم يعد يصلح لنجومية الشباب والحب والغرام، إنما كان الناصح الأمين الفيلسوف الحكيم فى «عم مجاهد» بائع الفول فى فيلم «الكيت كات» ووالد «عادل إمام» المسكين فى «المولد» وأمام «هدى سلطان» فى «الوتد» وصاحب مكتبة فى مسلسل «عباس الأبيض فى اليوم الأسود»، ومعه مدرس التاريخ «يحيى الفخرانى»، والرجل العجوز.. كان فعلا مدرسا للتاريخ درسه فى الجامعة، ولكنه عمل معداً لبرامج الأطفال للمشهورة «سميحة عبدالرحمن» ليظهر بصوته فقط فى «بوجى وطمطم» قبل أن يكتشفه المخرج «أحمد النحاس»، ويبدأ رحلة الإبداع، يمتعنا ويتسلل بفنه إلى قلوبنا دون أن نعرف اسمه.. وإذا أبدينا اهتماما لمعرفته سرعان ما ننساه.

يبتسم الفنان في حكمة وهو يقول: أعمل إيه مفيش عواجيز غيرى.

ثم مات فى هدوء، ودفن دون أن يودعه فنان، ولا حتى أعضاء نقابة الممثلين، ولا النقيب «أشرف عبدالغفور» الذى قال إن الحق على ابنته التى لم تبلغه إلا بعد الوفاة بيومين.. ولم ينشر نعياً فى صحيفة، مبررا التخلف عن واجب العزاء والوفاء.

لا يحتاج الفنان الراحل أحمد سامى عبدالله إلا أن نذكره بالخير ونقرأ له الفاتحة.

ولولا وسائل الاتصال الحديثة بالإنترنت والفيسبوك لما عرف كثيرون أنه قد ترك الحياة إلى الأبد، ولما عرفنا أشياء كثيرة.. كان علينا أن ننتظر بعض الوقت حتى نسأل «أين هو، لم نعد نراه، هل أصابه مرض، هل نسيه المنتجون»؟

قلبى مع الذين عرفوا طعم الشهرة، وعشقوا أضواء الليل فإذا بالقدر لا يمهلهم وهم بيننا أحياء.

يغيبون فلا يسأل عنهم أحد، يخفى بعضهم مرضه، حتى لا ينفض عنهم صناع الأفلام.. لا يزورهم أقرب الناس بينما تبقى فى أذهان الجمهور ذكريات من أعمال «جورج سيدهم» و«المنتصر بالله» و«فؤاد خليل» و«سيد زيان» و«محمد أبوالحسن» و«عبدالعزيز مكيوى»، وآخرين لا يشكون ويتحاملون علي أنفسهم لتوفير الدواء، لانكتشف غيابهم إلا مؤخراً فنحن أيضا ننسى.

وعندما رأيت صورة «سمير خفاجى» صانع النجوم الذى قدم أنجح الأعمال المسرحية ونخبة من الممثلين الكبار الذين كانت بداياتهم معه، وهو على كرسى متحرك ذاهبا للإدلاء بصوته الانتخابى انتابنى حزن شديد مع أننى لا أعرفه شخصيا، ليس لمرضه فذلك أمر الله وإنما لما سمعته عن جحود من كانوا حوله ليل نهار - أو على رأيهم انشغالهم - كانوا يقيمون بمناسبة وبدون مناسبة احتفالا صاخبا ضاحكا يتوافد عليه النجوم حتى مطلع الفجر.. وفى هذا العام نسوه.. واحتفل بعيد الميلاد وحده.

ارتاح «أحمد سامى» بعد أن حقق النجاح الذى أرضى به نفسه وأسعدنا.. لا يهم أن سار فى جنازته مائة أو ألف، مشهورون أو أهله فقط، من يبكى أمام الكاميرات ويلبس السواد أو من يودعه فى قرارة نفسه بالحب والاحترام.

موال الشجن

رغم المرض الشرس الطويل لم يسقط القلم يوما من يده.. وأجمل ما فيه هو الوفاء الذى يملأ قلبه ووجدانه ويحس بأنه دين، عليه أن يوفيه فيرتاح ضميره.. ومع الألم تتميز كتاباته بالرقة واللطف وخفة الدم، ولا ينضب معينه من حكايات الماضى الجميل، نتمتع بها ولو رواها أكثر من مرة.. هكذا يصدر كتابه الأخير عن دار «الشروق» مختصا به «زكريا الحجاوى» فنانا من نوع خاص، خاصمته الدنيا، وظلمه الأصدقاء.. ويلوم نفسه لأن الكتاب جاء بعد «آخر ظرفاء ذلك الزمان» كامل الشناوى و«القديس الصعلوك» عبدالرحمن الخميسى و«مما جرى فى بر مصر» الذى انتهى من كتابته، وينتظر دوره فى الصدور.. ويبدو أن كاتبنا «يوسف الشريف» ود لو بدأ سلسلة كتبه بزكريا الحجاوى الذى سماه «موال الشجن فى عشق الوطن» فقد كانت علاقته به مختلفة عن أقرانه من الظرفاء والصعاليك المبدعين عبر المعايشة اليومية، ليل نهار فى المقاهى، والمنتديات فى الكثير من جولاته الميدانية باحثا ومنقبا فى البوادى والفيافى والبرارى عن منابع ومفردات الفن الشعبى.

تاريخ طويل عريض ارتبط بأرض مصر منذ ولادته فى مدينة «المطرية» على ضفاف بحيرة المنزلة وحتى موته غريبا بعيدا فى إمارة «قطر».

مع كل همومه وفى صعوده وهبوطه وصفاء نفسه ومرارتها، لم يبتعد لحظة

عن الفنون الشعبية، الكنز الذى لا ينضب، يكشف عنه وعن المداحين والمطربات، ويعيش حياة يسعد بها، ويفيد ولكن بطريقة عشوائية وغالبا لا يستفيد.

وكم كنت أود أن أعرف أسرار علاقته بالرئيس السادات، ولكننى لم أتوصل لتفاصيل الوقيعة التى تمت بينهما بعد سنوات الصداقة المتينة، وإقامة الضابط الهارب من الشرطة فى بيت «الحجاوى»، وعلاقة لا يمكن أن تنسى.. ثم فجأة حدث الغضب الشديد، وفصل «الحجاوى» من جريدة «الجمهورية» قبل أن تصدر بأمر من صديقه مديرها العام «أنور السادات» عضو مجلس قيادة الثورة.. ومن يومها حدثت القطيعة العنيفة حتى سمعه «الحجاوى» بأذنيه بعد أن ضاقت به الدنيا وهو يرفض مقابلته والاستماع إليه، بل ويقول بصوت مرتفع لسكرتيره، وقد أصبح وقتها -السادات- رئيسا لمجلس الأمة: «الجدع ده عايز منى إيه؟!»

بعدها سافر إلى قطر ومات هناك.. ولكنه كان فى كل الأحوال عاشقا منقبا عن فنون الشعب، وكانت قطر مجاله لسنوات، حظى فيها بمساندة من مدير إعلامها، وكان الأديب السودانى الجميل «الطيب صالح»، فلم يكن يخلو الأمر من مضايقات كتبت عليه فى كل مكان ولتأكيد معنى الوفاء أهدى يوسف الشريف كتابه الأخير للمفكر والكاتب الكبير صديق العمر الأستاذ «محمد عودة» رحمه الله، وسوف يبقى «عودة» كما بقى «زكريا الحجاوى» فى قلوب كثيرين وفى أسبوع صدر عنه كتاب يوسف الشريف، كما عرض أحد أعماله المسرحية «كيد النسا».

تقول أغنية نرددها كثيرا:

لا كل من لف العمـــامة يزينها
ولا كل من ركب الحصان خيال
جبال الكحل تفنيهـــا المـراود
وكنز المال تفنيـــه الســـنين.

زمن «هنومة» الجميل

احترمتها يوم روى لى محمد سالم زميلى فى مجلة «التحرير» وقد كان كاتب قصة قصيرة لها مذاق، وكان رقيق الحال، أنه يتردد على نقابة الممثلين عندما يضيق به الحال حيث السمر عند فقراء الفنانين، لعب الكوتشينة تشارك فيه أحيانا النجمة الصاعدة هند رستم، تتعمد أن يهزمها منافسها فتخسر أمامه بضعة قروش تسالى وليس قمارا .. وكان محمد سالم كلما تأزمت حالته المالية أكثر ذهب إلى النقابة ودائما يجدها هناك.

من يومها وأنا أنظر إلي قلبها وليس إلى جسدها كما كان يفعل معظم المشاهدين.. ولم يفتنى فيلم واحد من أفلامها غير أننى لم ألحظ أنها كانت واحدة من راكبات الأحصنة اللاتى يسرن فى ركاب ليلى مراد وهى تغنى «اتمخطرى يا خيل» فى فيلم «غزل البنات» مع أننى شاهدت الفيلم أكثر من مرة.

اشتهرت بأدوار الإغراء حتى وهى «هنومة» بائعة «الكازوزة» فى فيلم «باب الحديد» ليوسف شاهين وظلت معبودة الجماهير لسنوات طويلة.. ثم اعتزلت وتزوجت الدكتور محمد فياض أستاذ أمراض النساء والولادة المشهور.

من يومها لم تغرها العودة إلى الأضواء رغم أن أحد الذين ألحوا عليها كان المخرج حسن الإمام الذى تعتبره أستاذها وصاحب فضل عليها.

ولكنها لم تكن بعيدة عن الوسط الفنى، بنفس اهتمامها وهى فى سنواتها

الأولى، تسأل عن الذين تقدمت بهم السن من النجوم، ولا يجدون ما يكفى حياة كريمة.. لم يعملوا حسابا للزمن.

احترمت سنها ومكانتها وابتعدت عن إغراء الصحافة والتليفزيون، ولعل ذلك كان سببا فى عدم تكريمها بالشكل اللائق، فالجوائز فيها أيضا علاقات عامة وتواجد فى الحفلات.

مع طول الغياب ظلت فى وجدان الشعب المصرى.. ومع ظهور أشكال وألوان من الممثلات المبدعات و«الملعبات» بقيت هند رستم هى نجمة الإغراء لكل العصور.

المرة الوحيدة التى وافقت فيها على الظهور أمام الجمهور كان منذ نحو عامين عندما استضافها محمود سعد فى التليفزيون المصرى، ولابد أن له خاطرا عندها، أخفت وجهها تقريبا، وابتعدت عن الكاميرا على قدر ما يسمح العمل الفنى، حرصا منها علي أن تبقى صورتها أمام المشاهدين كما كانت فى شبابها.. مع أنها ظلت جميلة وجها وروحا حتى آخر عمرها، وبعد أن وصلت إلى ما فوق الثمانين عاما وقامت ببطولة ثمانين فيلما.

لعلها أحبت السيدة نفيسة وترددت على مقامها فكانت الصلاة على جثمانها فى مسجدها.

سار فى جنازتها مئات المشيعين الذين حافظوا على حبهم لها، ومن بينهم شبان لم يعرفوها إلا فى الأفلام القديمة التى يذيعها التليفزيون أحيانا، ولم يكن من بين المشيعين سوى عدد محدود من الفنانين، لفت النظر دموع إلهام شاهين ووفاء سمير صبرى والماكير المنتج محمد عشوب، ومسئولية نقيب الممثلين أشرف عبدالغفور وتقدير المخرج داوود عبدالسيد، وكان هناك ايضا الممثل الجاد محمد أبو داوود وطارق النهرى.. لم يذهب نجوم اليوم ولو للتصوير والدعاية.. وأغلب الظن أنها أيضا مسألة علاقات عامة ومصالح متشابكة.. والأكيد أن كثيرين وكثيرات لم يعرفوا قدرها.. نحن أمة بلا تاريخ!!

كاريكاتير "حجازى" فى "طنطا"

عندما رأى أنه أدى دوره غادرالمدينة، عاد من حيث جاء إلى بيته الصغير على شريط السكة الحديد فى قرية "كفر العجيزى" القريبة من طنطا.

لا أحد ينسى "حجازى" رسام الكاريكاتير المنحاز للشعب بفنه الجميل، ولكن الزمن يمضى وأجيال جديدة تتصدر المشهد.

يقولون إن "عمرو سليم" امتداد لروح "حجازى"، ولو أن الفن ليس فيه استنساخ.

ذلك الفتى "عمرو" ابن زميلنا العزيز "جمال سليم" -رحمه لله - يواصل المسيرة رافعاً الراية مع كتيبة رسامى الكاريكاتير الشبان.

من سنوات صدرت مجلة "اليسار" لرئيس تحريرها الذى لا يغير مبادئه "حسين عبدالرازق" وغلافها أبيض، لأعرف أنه كان رسماً كاريكاتيريًا استفز الأمن فكاد العدد يصادر لولا فكرة "الغلاف الأبيض".. ويقال إن عمال المطبعة هم الذين تولوا المصادرة لأن فكرة "عمرو سليم" لم تعجبهم.. تلك كانت أول معرفتى بالفنان الواعد، الذى انطلق بعد ذلك فى سماء الصحف المصرية، ومازال يغرد.

أما الشاب حجازى فقد تملكه حلم السفر كلما "صفر" القطار، وتمنى لو استيقظ يوماً ليجد نفسه فى زحام القاهرة، يحاول أولاً أن يجد عملاً يأكل منه عيشاً ويدخن سجائره، حتى يسير على درب الفنان الذى تستفزه أفكاره وخطوطه "عبدالسميع" على غلاف "روزاليوسف" التى كانت تثير السلطة،

وتعبر عن غضب الناس.. وهو والد الزميل الدكتور عمرو عبدالسميع الذى اختار الرسم بالكلمات.

تحقق حلمه وأبدع وتدفقت أفكاره ولم تتغير مواقفه.. كلما أحس أنه لن يستطيع التعبير عن رأيه بالريشة انسحب إلى القضايا الاجتماعية.. ولما أحس أنه لم يعد لديه جديد يقدمه، توقف عن الرسم سنوات.. ثم اتجه إلى رسوم الأطفال، ورفض كل محاولات لاستعادة اشتغاله بالصحف.. قال: لقد أديت دورى.. وبقى فى قريته بطنطا.

إذا كان "حجازى" لن يأتى، فسوف نذهب إليه.

هكذا قررت الجمعية المصرية للكاريكاتير أن تقيم معرضاً لرسومه فى طنطا، وربما فى قرية "كفر العجيزى".. وأتصور أنها أول مرة.. وذلك استمرارًا لجهود الجمعية التى تفخر بشيوخها، وتشجع شبابها، وتقف إلى جانب الفقراء الشرفاء ضد كل فساد.

معرض "أحمد طوغان" وتعريف بأعماله وكفاحه ضد الاستعمار فى مصر واليمن والجزائر ولوحات فنية جميلة لبيوت صنعاء وجبال تعز، وندوة يشارك فيها المهتمون بالفن الهادف الجميل.

"ثورة الكاريكاتير" معرض يحكى، ويصور أحداث يناير المجيدة بلوحات لمختلف الأجيال وصفحات من كتاب "صورة × كاريكاتير"، للزميل "عبدالحليم طه" يصدر أيضاً مترجماً إلى ثلاث لغات.

تكريم رائد الرسم المصرى "رخا" بمناسبة مرور مائة عام على مولده.

.. ثم إقامة معرض "حجازى" فى قريته.

بعد تحرير سيناء قدم الفنان الواعى "حجازى" صورة كاريكاتيرية لمسئول منفوخ بنظارة سوداء، وسيجار يذهب إلى هناك وسط زفة وغناء على العود: "حانزرعك غناوى، حانزرعك مواويل".. يقابله فلاح حقيقى يحمل فأسه، يقول: "بعد الإذن، سيبونا نزرعها بطريقتنا، ما تتعبوش نفسكم"!!

الفقير: زوج بملابسه الداخلية، فانلة ممزقة، زوجته حامل.

والموظف: بيجامة كستور مخططة يتفرج على التليفزيون، وزوجته تصب الشاى فى كوب زجاج رخيص.

تتابلة السلطان، قصة أطفال، ضابط وطبيب ووكيل نيابة، والهش كده، وأولاد العز كده، أما أولاد الفلاحين: سود ومش قد كده.

سأل "أحمد فؤاد نجم" يوما، وكانا رفيقين زمنا، فالطيور على أشكالها تقع، مدحاً وليس ذماً: "أنت قريت بيرم التونسى؟".. رد "نجم" على طريقته: "ماعجبنيش".. فقال حجازى: "أنت ابن... كداب"!!

عندما قرر العودة ذهب إلى صاحب الشقة التى يستأجرها فى "المنيل" يعطيه المفتاح.. أجاب المالك: "أمهلنى بعض الوقت حتى أدبر لك خلو الرِّجل".. قال حجازى: "هو أنا لما أجرتها دفعت حاجة"..وانصرف.

فرح به أهل قريته، ولأن الموت عادة مصرية من مقدسات الفراعنة، قالوا له: الحمد لله يا خالى إنك رجعت تموت بيننا".. لم يقل أحد: "تعيش معانا".

ولكن "حجازى" لا يموت.. خرج من بين صفوفنا.. فقيراً مثلنا.. ابن لسائق قطار له عشرة أبناء غيره.. يملك موهبة ووعياً، جاءت به إلى القاهرة وانطلق فى سمائها لم يستطع العيش بعيداً عنها مهماً كانت المغريات، وتجربة العمل فى صحف ليبيا كانت خير شاهد، كما لم يبق طويلاً فى أخبار اليوم رغم إلحاح "رخا"، ومرتب يغرى لأنه لم يجد حريته!

كم يستحق الاحترام، وما معرض رسومه الذى يقام فى طنطا سوى وردة حب من شعب مصر.

كثيرون يستحقون التكريم لا أستطيع أن أذكرهم جميعاً: الذين ودعوا الحياة بعد أن تركوا بصماتهم.. بهجت وحاكم والليثى.. وآخرون منحهم الله الصحة يواصلون العطاء.. تاج وسمير وفرماوى ومصطفى كامل وشباب الشيوخ مثل صديقى "جمعة" الذى يواصل عطاءه، ويترك أيضاً ابنه "محمد" وإخراجه الفنى الجميل لمجلة "الأدب".. وجيل جديد أكثر جمالا.. عكاشة وطاهر، وغزو موفق لبناتنا رسامات كاريكاتير.

هل دخل الكاريكاتير مصر على يد الفنان التركى "على رفقى" أم الأرمنى "صاروخان".. أم أنهم الفراعنة، حيث توجد بردية فى متحف "تورينو" بإيطاليا لفأر يجلس على كرسى الحكم، وقط "يهوى" على وجهه.. يقولون الفأر هو الحاكم الظالم، والقط هو الشعب.. إلى أن تقوم الثورة!!

كسر يد رسام

رأيته مرة واحدة وكانت تكفى لاحترامه.. وتابعته فناناً وطنياً مبدعاً فى كثير من الصحف العربية والعالمية، وتبادلت معه رسائل تدعوه للعمل من بلده سوريا فى مجلة كاريكاتير المصرية، ولم يلتزم إلا ببضعة رسوم يراها مناسبة، ولا يتقاضى عنها أجراً.

هكذا كان ومازال على فرزات واحداً من أشهر رسامى الكاريكاتير الذين نذروا موهبتهم للدفاع عن الشعوب وكشف الطغاة.. لم يبحث يوماً عن كفيل فى بلد خليجى أو عن عمل خارج وطنه.

اختطفه شبيحة بشار الأسد عند ساحة الأمويين فى قلب دمشق، وانهالوا عليه ضرباً وسباباً مع رسالة تقول: كيف تتطاول على أسيادك، والأهم أنهم كسروا يده التى ترسم مثلما انتزعوا حنجرة مغنى الثورة الشاب إبراهيم الفاشوشى.

ألقوا به على طريق المطار فقام المارة بنقله إلى المستشفى.. السيناريو نفسه الذى يفعله البلطجيون السياسيون فى مصر مع الكتاب المعارضين.. وما حدث للصحفى اللبنانى سليم اللوزى صاحب مجلة الحوادث عندما قتلوه بعد أن أذابوا أصابعه التى يكتب بها فى الحامض، ومثلما قتلوا غيره ممن انتقدوهم بشراسة.. وتركوا المذيعة اللبنانية مى شدياق بقدم واحدة!

سرقوا أوراقه ورسومه من الحقيبة التى كان يحملها، لا يهم فسوف يرسم من جديد بالحماس نفسه، وببعض أصابعه الملفوفة فى الشاش.

قالوا: إن بشار عاتب عليه بالذات، فقد عرفه مبكراً فى سنوات حكمه الأولى، ويبدو أنه بدا أملاً شاباً عند فرزات.

سمح له بتأسيس أول صحيفة قطاع خاص اسمها جريدة "الدومرى"، وهو اسم يطلق على الرجل الذى يضىء المصابيح فى الظلام فتنير الشوارع.

أغلقت "الدومرى" بعد عامين، بينما ظلت ريشة صاحبها تضىء الطريق.

من رسومه صورة تمساح، يفتح فمه على الآخر بأسنانه الشرسة يجلس على رأسه حاكم يخاطب الناس "أيها الشعب الحبيب".

ويد تمسك بالقلم يدوس عليها بضراوة حذاء حاكم ثقيل.

والرسم الأخير الذى أغضب الشبيحة كان لمعمر القذافى هارباً بسيارة جيب، محملة بحقائبه، وبشار الأسد حاملاً أيضاً حقيبته، ويشير إليه "خدنى معاك".

أما الكاريكاتير الذى يذكره الجميع فلأربعة كراسى حكم؛ الأول يجلس عليه طفل ببزازة، والثانى بعد أن أصبح شاباً فتياً، والثالث عجوز محطم، أما الرابع فنعش يحمل جثمان الرئيس مازال متربعاً على العرش.

ورسم آخر مشهور من صورتين؛ الأولى فى رداء الحكام المهيب، وقد غطى وجهه بقناع على صورة حمار.. وفى الثانية ينزع القناع فيظهر وجهه الحقيقى، وهو أيضاً وجه حمار!!

كان يمكن لرجل موهوب مثل على فرزات، حظى يوماً بإعجاب الرئيس أن يصبح له شأن ومال.. ولكنه اختار أن يكسب نفسه وبمثله تتقدم الشعوب.. إن أصابعه المهشمة ويده المكسورة أقوى وأبقى من فخامة الرئيس!

الرسوم الممنوعة

أول سطرفى كتاب «جورج البهجورى» هو: «يبدأ تاريخ الكاريكاتير مع بداية الإنسان، رسم على جدران الكهف، صنع من الحجر شكلا، وشكل من الأعشاب الجافة قناعا».. والكاريكاتير تعبير بالريشة، والقلم واللسان.. وقد رسم الفراعنة الغزال يلعب الشطرنج مع الأسد، وهناك غراب يرتدى لباس السلطان ويعلو رأسه تاج من الذهب.. وهو يعتبر فن المبالغة، وأحيانا نوع من أنواع المداعبة.. وعندما خاف «ابن المقفع» من بطش الخليفة العباسى تحدث بلسان الحيوان.. وعندما اتجه البهجورى للرسم بالكاريكاتير كاد يبطش به صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة عصبى المزاج؛ لأنه رسم «جمال عبدالناصر» عملاقا، بجواره «صلاح سالم»، قزما يقوم بتلميع قبة البرلمان.. وطالما أغضب الكاريكاتير الحكام، ولكنه لم يصل إلى حد الإعدام مثلما حدث للفنان الفلسطينى الرائع «ناجى العلى».. ولقد سعدت بصدور كتاب «الرسوم الممنوعة» لأن مؤلفه «جورج البهجورى» لم يكتف برسوماته، وإنما أضاف مقدمة طويلة عن تاريخ فن الكاريكاتير وعن رحلته الشخصية مع الحياة.. وفى لوحته بمناسبة مائة عام على تحرير المرأة يقدم صورا متكررة تبدأ مع عام ألف وتسعمائة، وفيه الحجاب واللباس يغطى المرأة تماما ثم يتدرج التحرر من وجهة نظره كل عشرة أعوام، ليعود مرة أخرى فى عام ألفين وخمسة إلى نفس الحجاب واللباس.. ويرسم الجائزة الأولى لبينالى

الإسكندرية ثمرة كوسة.. وصورة «عبدالناصر» وهو يضع قبة البرلمان على رأس ابن البلد الذى يقول: أنت بتضحك على وبتلبسنى طاقية.. ومجلسى الشعب: قيام، جلوس!!.. واثنان من أبرز المثقفين «لويس عوض» و«محمود أمين العالم» يقومان بالأشغال الشاقة فى معتقل الواحات، والشاويش لا يحلو له إلا أن ينادى كل منهما بـ «يا جاهل»!!.. والسادات لأحمد زكى: أنت مثلت كويس وأنا كمان!!.. وخالد محيى الدين كتب مذكراته «والآن أتكلم»، «بعد إيه»!.. وشالوا عاطف جابوا نظيف.. وقبضايات فى افتتاح وزير الثقافة لمعرض تشكيلى «احنا بتوع الأمن، الوزير زمانه جاى».. ويبدى «جورج» رأيه فى زملائه، ويسلم وجهه ليصبح «بورتريه» بريشة أكثر من رسام، ويختتم الكلام بمقال لمحيى الدين اللباد يشبه فيه البهجورى بصانع الكنافة، يلملم خطوط رسومه من على سطح الورق ليرسل البعض منها لينشر فى الصحف أو الكتب، وليستخدم البعض الآخر فى تشكيل لوحات ملونة تتضح بالخبرة والخصوصية.. و«الرسوم الممنوعة» ليس أول كتب «جورج البهجورى» فقد سبقه «بهجر فى المهجر» وكتب أخرى فيها رسوم وكتابة.. يبدو أن الفنانين يحبون الكتابة أيضا، ويبدو أيضا أنها سهلة لأننا نحن الكتاب نحب الرسم، ولكننا لا نستطيع الرسم!!

لا تضحك طويلاً

وكأنها لم تكن نكتة التى سمعناها من زمان عن استئذان وزير الإسكان من الرئيس، فابنه يريد شقة فى مصر الجديدة.. اندهش الرئيس وقال: أليس ذلك من حقه مثل الباقين؟ استطرد الوزير: ويريد شقة أخرى فى الهرم؟ وماله مادام فيه.. لزم الوزير الصمت بعض الوقت، قبل أن يقول: ولكنه ياريس يريد أن يفتح الشقتين على بعض.

قديمة.. ولكن المهندس حسب الله الكفراوى وزير الإسكان، قبل محمد إبراهيم سليمان، يقول إن شيئاً من هذا القبيل حدث، إذ طلب منه ابن الرئيس ألف فدان فى مدينة أكتوبر يا أونكل.

وعندما اشتكى الكفراوى يوماً من ارتباط اسم ابن الرئيس الثانى ببيع ديون مصر أثناء عمله فى أحد البنوك البريطانية، كانت إجابة الرئيس مستنكراً: يعنى عايز الأولاد ما تشتغلش!

شجع هذا على إطلاق نكت عالمية مريرة، يستبدل فيها اسم البلد بمصر واسم الرئيس بمبارك.

مثل الذى عثر على مصباح علاء الدين فدعكه وتمنى فإذا بالجنى يخطف ساعته.. جرب مرة ثانية فنشل الجنى المحفظة، فلما جرب المرة الثالثة سرق ملابسه، فاندهش وسأل: مش أنت مصباح علاء الدين؟ أجابه: لا، أنا مصباح علاء مبارك!

ورواية أخرى للحكاية نفسها، تقول: إنه عندما دعك الرجل المصباح خرج منه ماردان وليس واحداً، فقال أحدهما: إننى لا أستطيع القيام بعمل إلا ومعى شريك من الحكومة يأخذ عمولته!

ومع انتشار البلطجة أوقف أحدهم سيارة وقال لسائقها: هات فلوسك.. نهره قائلاً: «تعرف أنا مين، أنا الرئيس» أجاب: طيب هات فلوسى!

الحقيقة أكثر إيلاماً من النكتة بعد أن سمعنا وعرفنا ما لا يصدقه عقل.

كل هذا النهب وبمنتهى الاستهتار.. ولا فى الخيال.

زوجة الابن تطلب فى جلسة عائلية قطعة أرض تقيم عليها منتجعاً سياحياً فيجرى التنفيذ على الفور وبملايين الأمتار.

محافظ كان مقرباً وقائداً للحرس الجمهورى جاءته التعليمات فى كلمة واحدة: حسين سالم فى سينا يعمل اللى هوه عايزه.

لم يكن هناك سر فى مصر ولكننا لم نصدق.

سمعنا أسماء وصفقات وحكايات لم نتوقف أمامها طويلاً من فرط غرابتها حولناها إلى نكت وبصدق الإعلام!! تحولت إلى مديح ونفاق، واكتفت الحناجر بالغناء، وزاد عدد المشتركين فى فريق الإسكواش.

شىء ما حدث ذات صباح لم يكن يبدو أنها ثورة تقتلع من الجذور وتغيرت لغة الابتسامات.

لم نعد ننطق بحكمة السنوات الماضية: طنش، تعش، تنتعش!!

وكأنها فعلاً لم تكن نكتة أن الرئيس أعجبته سيارة مرسيدس فى المعرض، فسأل: بكام؟ قالوا: ببلاش علشان خاطر سيادتك.. ادعى الغضب، وأقسم أن يدفع، فأجابه البائع: بعشرين جنيه يا أفندم، بعد أن تمت الصفقة والرئيس ينصرف التفت وقال: كمان اتنين علشان الأولاد ودفع ستين جنيهاً.

الأسعار والمنح والصفقات والهبات التى انكشف أمرها برخص التراب تقول إنها إذن لم تكن نكتة!

ليالى السهر والسفر والسمر

أجمل الأماكن لم أذهب إليها بعد

لما الصحفى يفلس يبحث فى دفاتره القديمة.. ويرضى بقليله.

لم يعد السفر ممكناً لأسباب متعددة، أهمها قلة الحيلة والهمة والصحة.

لذلك ما صدقت أن وجدت دراسة ـ ليست جديدة ـ عن أهم وأجمل خمسين مكاناً سياحياً فى العالم، وهى لن تتغير مع الزمن، وسوف تبقى قبلة عشاق السفر.. حتى أخذت أراجع نفسى وأحسب كم منها فاتنى.

أحسست بالرضا لأن أكثر من نصف أجمل بلاد الدنيا زرتها، ولأكثر من مرة.. وأن البعض مما لم أذهب إليه لا يستهوينى.. والباقى كنت على وشك السفر إليه، لولا!!

هل أبدأ بما أحببته وحلمت به وسعيت إليه، ثم يحدث فى الوقت الأخير ما يمنعنى؟

● جزيرة «بالى» فى إندونيسيا وأحلام الاسترخاء على أصوله والطبيعة الجميلة والاحتفالات والرقص فى الشوارع والتدليك على شاطئ البحر.

ولقد ذهبت إلى إندونيسيا أكثر من مرة، وفى بالى زيارة «بالى».. ولكن فى المرة الأولى داهمتنى ظروف سياسية جعلتنى شبه محاصر فى العاصمة «جاكرتا»، حتى المطار أغلق أبوابه، إذ وقع انقلاب عسكرى أطاح بالرئيس «أحمد سوكارنو»، فلم تعد هناك فرصة لمجرد التفكير فى شىء آخر أو مكان

آخر.. كل ما يشغلنى هو متابعة الموقف ومحاولة التواصل مع «الجمهورية»، ثم محاولة الخروج من البلاد.

وفى المرة الثانية كانت الزيارة سريعة ليس فيها وقت للذهاب إلى «بالى» والإقامة فيها أكثر من ليلة حتى أحس بمزاياها.

فى المرة الثالثة ـ تصورتها ثابتة ـ صممت على وضع الجزيرة الجميلة على رأس برنامجى، خصوصاً وأنها كانت رحلة سياحية هذا هو مجالها.. من يوم إلى يوم طافوا بى من مدينة إلى مدينة وأخذونى إلى حيث بركان حى يتوافد عليه الجميع، وينابيع ماء دافئة يروون حول فوائدها الأساطير، وللمرة الثانية إلى «باندونج» الشهيرة بأول مؤتمر للتضامن الآسيوى الإفريقى حضره «عبدالناصر» وزعماء عصره «نهرو» ونجوم الاستقلال وقيادات الشعوب للتحرر من الاستعمار.. هكذا ضاع الوقت وبصراحة أسأت الظن بمرافقى، فهناك أحياناً من يستخسر فى ضيفه أن يستمتع.. لذلك عندما ذهبت للقاء وزير السياحة الإندونيسى، وكان جنرالاً مرحاً شكوت إليه، فاستقبل الأمر بدهشة وحسم؛ إذ وجه تعليماته بأن يحجزوا تذاكر طائرة فى اليوم التالى، وإقامة مفتوحة فى «بالى».. قلت له: «جئتك مودعاً فطائرتى إلى القاهرة غداً».. وعدنى بأن تبدأ زيارتى الرابعة لإندونيسيا بجزيرة «بالى»، وشدد أوامره بذلك.. ثم التفت نحوى ـ وكانت معى زوجتى ـ وقال ضاحكاً: فى المرة القادمة لا تحضرها معك حتى تضمن الذهاب إلى «بالى»؛ وحتى تستمتع على راحتك هناك!!

لم أعد إلى إندونيسيا.. وتغير وزير السياحة.

● أما الهند التى ذهبت إليها مرات أكثر فإننى أحس بأن أشياء كثيرة مازالت تستحق العودة، ولقد حاولت زيارة «كشمير» فكان الرد المهذب: إجراءات الأمن تمنع، فهناك خطر متربص.. ولو أن كشمير ليست فى قائمة أجمل خمسين مكاناً فى العالم، فإن قمة «إيفرست» الشهيرة فى جبال الهيمالايا جاءت ضمن القائمة، وراودنى مرة أن أسعى لزيارتها أو الاقتراب منها، وطبعاً ليس الصعود إليها، ولكن ذلك لم يتحقق والحماس لم يستمر!

الهند عجائبها لا تنتهى، و«تاج محل» أحد عجائب الدنيا السبع، أحرص على زيارتها كل مرة فى موقعها بمدينة «أجرا» القريبة من العاصمة «نيودلهى»، وأحيانا أبقى حتى يأتى المساء عندما يكون القمر بدراً كل مرة،

يعكس صورة رمز الحب والوفاء الجميل على سطح البحيرة أمامه، فتاج محل مقبرة بناها الامبراطور المغولى «شاه جيهان» لزوجته الحبيبة التى ماتت وهى تضع مولودها، وقد رصَّعه ـ أرضه وجدرانه وأبوابه ـ بالماس والأحجار الكريمة التى سرقها اللصوص، ومع ذلك بقى البناء من المرمر شاهدا على مر السنين.. وقد كان الامبراطور حريصاً على أن يرى القبر طول الوقت من قصره بعد أن عزله ابنه عن العرش.. نوع آخر من الوفاء!!

كانت زياراتى للهند فى البداية حباً وسياسة، لم أغادر العاصمة إلا إلى «أجرا» فى زيارة خاطفة، عدت بعدها للمقابلات السياسية والصحفية التى لا تنتهى من «أنديرا غاندى» إلى رئيس تحرير جريدة «انديان تايمز» رحمهما الله.

وزيارة أخرى لثلاثة أيام لم أجد فيها من ينتظرنى فى المطار الذى وصلته فجراً، وقد كنت أمثل نقابة الصحفيين لحضور مؤتمر لمنظمة الصحافة العالمية، كان هو الأخير، إذ حلت المنظمة نفسها بعد أن حل الاتحاد السوفيتى نفسه.

وزيارة بدأت من «بومباى» كانت مزيجاً من السياسة والسياحة.. ليكون ذلك تمهيداً للتركيز على السياحة بعد أن أصبحت السياسة مملة، فكانت رحلتى الهندية جداً بقطار «المهراجات» سبعة أيام، زرت خلالها أجمل المواقع وزرت أفخم القصور.. وقد جاءت الفكرة بعد تأميمات الهند، واضطرار المهراجات لقبول استخدام ممتلكاتهم السابقة فى السياحة مثل تحويل القصور إلى فنادق وعربات السكة الحديد الخاصة بهم فى رحلة متميزة.

وربما كانت أجمل مرة عندما نصحنى سفير الهند فى القاهرة، وكان صديقاً مقرباً، بأن أدخل الهند من الجنوب فأرى عالماً مختلفاً وحياة طبيعية ومعابد تدل على أن قدماء المصريين والهنود تعلموا معاً، ومارسوا معتقدات متشابهة.

● ولقد أتيحت فرصة لزيارة جزر «المالديف» التى أصبحت موضة سياحية لسنوات، ومازالت.. وتحدث عنها المصريون العاملون فى البلاد العربية، يذهبون إليها فى إجازة بعد أن فتح الله عليهم، وبعد أن شبعوا من لندن وباريس.

حدثنى زميل على علاقة طيبة بسفيرة لنا تمثل مصر فى «المالديف»، ويبدو

أنها إلى جانب كرمها تتمنى أن يزورها مصريون فى «المالديف».. قالت: «بس توصلوا ومالكوش دعوة».. ولم يذهب أحد حتى عادت بسلامة الله بعد أربع سنوات.

ثم أثارنى احتمال غرق الجزر الجميلة فى مياه المحيط لتغيرات بيئية، واجتماع عقده مجلس وزرائها تحت سطح الماء للفت أنظار العالم، مما أعاد حماسى للسفر إلى «المالديف»، لولا أنه لم يعد فى الصحة بقية!!

● وكذلك جزر «هاواى» فى أمريكا، التى ألهبت خيالى من أيام الصبا، وأفلام هوليود والرقصات الجميلة.

● وأيضاً مدينة «لاس فيجاس»، مع أنه ليس لى فى القمار الذى أقيمت المدينة الأمريكية من أجله، فتميزت بأفخر الفنادق وأشهى الأكلات وأرخص الأسعار، فالمطلوب فقط هو أن تلعب.. وقد تكسب!!

ذهبت إلى أمريكا عدة مرات، متطلعا لإقامة خاطفة فى «لاس فيجاس»، دون أن أتمكن، ولو لليلة واحدة.

أغرانى المهندس «يحيى زيدان» الذى استهوته الصحافة فأصدر مجلة «كاريكاتير»، حشد لها نخبة من الرسامين والكتاب الساخرين، بلقائه فى أمريكا حيث كانت أسرته تقيم فى مدينة «شيكاغو» لنذهب معاً فى سياحة إلى «لاس فيجاس».. ولم يحدث!

وعندما عرف الدكتور «زاهى حواس» برغبتى فى التعرف على مدينة القمار، وكان فندق ضخم قد أقيم هناك يحمل اسما فرعونياً، ويضع على بابه نسخة من «طريق الكباش»، وكان لابد أن يستعينوا بالعالم المصرى مستشاراً فرعونياً.. قال لى: «اذهب إلى هناك، ولا تخف، كلهم أصدقائى!!».. ولم أذهب.

● لم يبق سوى «هرم المكسيك» و«مدينة السحاب» فى بيرو، و«شلالات البرازيل» على حدودها مع الأرجنتين، و«شلالات فيكتوريا» على الحدود بين زيمبابوى وزامبيا فى إفريقيا، بعد أن استمتعت بثلاثة أيام أمام أشهر الشلالات «نياجرا» من جانبها الكندى.. كلها بلاد أصبحت صعبة المنال بالنسبة لى، فأقصى ما أحتمله رحلة بالسيارة إلى «العين السخنة»، أو بالطائرة إلى شرم الشيخ.

وحدى فى جزيرة!

الفندق: كوخ.. والطعام: فواكه البحر.. والأسطورة: السباحة عاريات

أول مرة فى حياتى أقيم وحدى فى جزيرة، وكنت أسمع أن قليلاً من الملياردیرات هم الذين يمتلكون الجزر، ولا أحسدهم، فهو حلم بعيد المنال.

الرحلة إلى «الفلبين» والبرنامج يتضمن ليلة أو اثنتين فى جزيرة ليست بعيدة، ولكنها تختلف تماماً عن الصخب والزحام والحر فى العاصمة «مانيلا».

ركبنا طائرة صغيرة متأرجحة هبطت بنا بعد ساعة واحدة، لنستقل «ميكروباص» يسير على طريق ضيق غير مرصوف بسرعة متواضعة تتناسب مع الظروف، فيأخذنا فى ساعتين أو أكثر لآخر الخط على شط المحيط، حيث قوارب نحيلة تعمل بالموتور؛ هى وسيلة الانتقال الوحيدة للفندق الذى اختارته لنا هيئة تنشيط السياحة الفلبينية.

مغامرة وانبهار وصلنا بعدها إلى الجزيرة المنشودة بفندقها الموعود، وهو أكواخ من الخوص، وطعام فاخر من فواكه البحر.. وعش حياتك.

كنا مجموعة من الصحفيين ورئيسة تحرير واحدة وخبير فندقى مصرى ومدير مكتب مصر للطيران فى «مانيلا» ولا زبائن غيرنا.. ولكن هناك آخرين من جنسيات مختلفة اختاروا جزراً أخرى.

هدوء وأساطير كادت تتسبب فى إصابة أكثرنا حباً للحياة ـ رحمه الله ـ بنزلة برد شديدة؛ لأنه صدق ما يقال بأن جميلات الجزيرة من مواطنيها الذين لا نراهم لندرتهم يستحمون أمام فندقنا عند الفجر، وقبل ظهور الشمس عرايا تماماً لمعتقدات خاصة بهن!

أما السهرة فكانت فى جزيرة أخرى أكبر، الطريق إليها أيضاً بالقوارب التقليدية، وصولاً إلى صخب وحياة ليل وخواجات ورائحة شواء وبنات وغناء.. عالم مختلف، لم يفسد حلاوته إلا جهلنا بقوانين المد والجزر فى تلك البحار البعيدة، وتأخرنا فى السهر جعل قاربنا يبتعد عن الشاطئ؛ بسبب الجزر الشديد وليس علينا إلا أن نسير بملابسنا كاملة فى قلب المياه حتى نصل إلى قاربنا ولم نكن لنعرفه إلا بإرشاد مرافقنا السياحى فقد تشابهت القوارب التى تنتظر أصحابها.. زاد الطين بلة كما يقولون أن السماء تمطر بغير انقطاع.

فى الصباح الباكر بدأت رحلة أخرى لجزيرة أخرى نقضى فيها يوماً كاملاً نسبح عند رمال ناعمة لم أشهد مثلها، ونعبر مغارات وسط الصخور تبدو عليها تجاعيد الزمن، وطيور غريبة اختارت الحياة بين الظلام والنور.. لا أحد غيرنا فى المكان، نحن نملكه كاملاً.

لم أجد سبباً لتذكر أسماء تلك الجزر فهى بالعشرات والمئات والألوف ليس فى الفلبين وحدها، وإنما فى إندونيسيا وماليزيا وتايلاند بدرجات وأعداد مختلفة، بعضها مزدحم بالسكان، وكثير منها لم يفسده الإنسان.

فى الغرب أيضاً جزر، ولكنها أقل، من بينها ما يملكه ملياردير يأتى إليه بيخوته وضيوفه فى رحلة عابرة، إذا كان لديه وقت، أو كانت الرحلة تمهيداً لصفقة.. ومن تلك الجزر الصغيرة ما هو معروض للبيع، وبأثمان ليست خرافية، قد تقل عن المليون دولار، أرخص من شقة فى لندن، والآن فى القاهرة!.. ولابد أن سوق العقارات وعالم الإنترنت ملىء بالمعلومات والإعلانات عن جزيرة للبيع أو للإيجار أو للاستثمار.. ولكن بشروط، حتى لا تزحف عليها الشاليهات والعمارات، فهناك دول لا تسمح بغير قصر واحد أو اثنين، والتزام متشدد بالمحافظة على البيئة وطبيعة المكان.

من زمان وعشاق الجزر يعرفون قيمتها ونحن لا ندرى.. أشهرهم كان الممثل

العالمى «مارلون براندو» الذى اشترى جزيرة فى «تاهيتى» منذ أكثر من أربعين عاماً، وتبعه نجوم آخرون، غير رجال أعمال لهم اهتمامات أو جذور بحرية مثل «أوناسيس اليونانى».. ولا داعى للبحث عن باقى أصحاب الجزر بعد أن أصبحت فى متناول يد كثيرين.

أشهرها جزر «هاواى» التى تشهد هذه الأيام حملة للاستقلال عن أمريكا فلا تصبح الولاية الأمريكية رقم خمسين، حتى ولو فقدت اهتمام هوليود بها وبمناظرها الطبيعية الخلابة ورقصاتها المتميزة التى أسهمت بمجموعة من الأفلام السينمائية فى جعلها حلم ملايين المشاهدين فى كل مكان.

تذكر مواطنو «هاواى» الأصليون أن بلادهم محتلة منذ جاءها فى القرن التاسع عشر مجموعة من التجار البيض، اغتصبوا الأرض، وأقاموا مزارع القصب تحت حماية مدمرة حربية وفرقة من الجنود المسلحين أرغموا شعبها على العمل عبيداً، وملكتهم على التنازل عن العرش، الأمر الذى جعل الرئيس الأمريكى الأسبق «بيل كلينتون» يقدم اعتذاراً لسكان جزر «هاواى» وعددها مائة واثنتان وثلاثون جزيرة نيابة عن الشعب الأمريكى.

جزيرة أخرى حكايتها مختلفة ساكنها الوحيد «ستيوارت هيل»، وبالتبعية مالكها منذ رسا عليها بقاربه قبل سبعة أعوام عندما تعطل به عند شواطئها القريبة من «سكوتلندا».. اسمها «فورفيك» لم يسمع بها أحد، ومساحتها المحدودة قيراطان ونصف القيراط أعلن الرجل استقلالها على الإنترنت بعد أن أكد عدم اعترافه بسلطة الحكومة البريطانية وإلغاء جميع الضرائب على من يختارها وطناً له، خصوصاً وأن تبعيتها لبريطانيا تعود إلى اتفاق عقد فى القرن الخامس عشر بين ملك النرويج وجيمس الثانى ملك بريطانيا برهن الجزيرة مقابل مبلغ من المال.

يدعو «ستيوارت هيل» مالك جزيرة «فورفيك» للانضمام إليه كل من يرغب فى البعد عن الحكام المتسلطين وعن عالم الكذب والنفاق!!

فندق تركبه عفاريت الليل

لم أصدق أن الفندق مازال يعمل مع أنه لم يستقبل زبوناً واحداً منذ إقامته قبل أكثر من أربعين عاماً.. يومها حضر الافتتاح الملك حسين رحمه الله، وبعدها بأيام قامت حرب «حزيران» التى انتهت فى أيام.

كانت ليلة ملكية، هى الأولى والأخيرة، قدم فيها ثمانية عشر طباخاً ثلاثمائة كيلو جرام من اللحم وما يكفى من الأرز لثلاثمائة ضيف.

وكانت آخر الموائد.. ومع ذلك بقى الفندق الفلسطينى ينتظر.. كل شىء نظيف وجميل والمطبخ على أتم استعداد، ورجال الاستعلامات يقفون حتى اليوم لاستقبال من قد يظهر فى الأفق.

عاد إليه مراسل وكالة الأنباء الألمانية فى القدس الشرقية، وتجول فى أرجائه، ووصفه بأنه فندق فلسطينى بلا اسم ولا نزلاء، يضم ستين غرفة تنقصها الحياة.

أصبحت القدس الشرقية حيث الفندق تحت الاحتلال الإسرائيلى.. وموقعه الفريد فوق تل عالٍ جعل له أهمية عسكرية، إذ من فوقه تستطيع أن تراقب المنطقة كلها، وهو ما حدث ـ وربما يحدث ـ أثناء الحرب والاشتباكات.

تفاصيل أخرى تتحدث عن أمل لا يتحقق فى أن يتحول الفندق إلى مدرسة

تدريب كوادر فلسطينية للعمل الفندقى، وتخفيض أسعاره ورتبته؛ لعل الزبائن يتشجعون للإقامة فيه.. أو أن يغلق أبوابه!

وفندق فى مكان مختف، كان إلى وقت قريب الوحيد فى مدينة «أسمرة» عاصمة الصومال، تروى الكاتبة والفنانة التشكيلية الكويتية «ثريا البقصمى» كيف باتت فيه ليالى مرعبة، تسمع عند الفجر أصواتا مزعجة، لسيدة تنشد الهدوء، وقد تصورته يناسبها، ولم يكن لديها خيار، إذ كان وقتها الفندق الوحيد فى المدينة، من مخلفات الاستعمار الإيطالى، وشبه مهجور، زبائنه يعدون على الأصابع.

طلبت تغيير غرفتها مع كل صباح، فيجيبونها إلى طلبها، ولكن الأصوات الغريبة لا تختفى، فظنت أنها «عفاريت»، أدخلت مزيداً من الرعب إلى قلبها، حتى واجهت الموقف وخرجت تكتشف المجهول، فإذا به فتاة سمراء طويلة نحيلة عاملة نظافة نشيطة.

يحدث مثل هذا فى أحسن الفنادق.

أذكر يوم كنت فى مدينة «الأقصر» مع ضيف ألمانى يزورها بدعوة من جريدة «الجمهورية»، وعندما هطلت أمطار غزيرة غرقت بسببها مصر «فى شبر ميه»، وتعطل الطيران، ولم يكن أمامنا سوى الانتظار أو العودة بالقطار، فبتنا ليلتنا فى أفضل فنادق الأقصر.

عند الفجر استيقظت على أصوات غير عادية، وهرولة فى الطرقات مما يثير القلق، ولست أدرى لماذا تملكنى إحساس بأنهم مطاريد الجبل يهاجمون الفندق، ولعلنى كنت أتابع قبل النوم مسلسلاً تليفزيونياً من نفس النوع.. تقوقعت فى سريرى أنتظر.

لما هدأ الحال، خرجت أستكشف، وأبحث عن ضيفى الألمانى، فوجدته هادئاً، مستعداً لتناول الإفطار.. ولما سألته ورويت له أوهامى، أجابنى: «وماذا عنى؟.. لقد تركت باب غرفتى دون ترياس، فإذا بى أفتح عيونى على رجال أشداء يحتلون الحجرة ويطلبون منى الاستعداد؛ فالطائرة الكويتية التى هبطت فى مطار الأقصر بدلاً من القاهرة بسبب سوء الأحوال الجوية تستعد للإقلاع، وعمال الفندق يستحثون الجميع دون استثناء على الإسراع»!!

وأول رحلة قمت بها للهند، واهتمام زائد جعلهم يختارون لإقامتى فى العاصمة «دلهى» قصراً لمهراجا تم تأميمه.. كنت فيه وحيداً، أعانى من الليل وكوابيسه، وأخشى تمثالاً برونزيًا يطاردنى، وأحلم بحجرة متواضعة فى فندق مزدحم.. خاصة وأننى لا أعرف كيف يختفى الخدم والحشم عندما يأتى المساء.

شكوت حالى لمسئول توسمت فيه تفهم مخاوفى، فإذا به يضحك عالياً ويروى قصة من نوع ألف ليلة وليلة عن الفارس الذى يجسده التمثال، وكيف قتل غدراً، وكيف يعود للبحث حائراً عن قاتله حتى إذا ما لاح الفجر أسرع يستقر فوق حصانه فى بهو القصر.

وزيارة تاريخية قديمة لفيتنام الشمالية أيام حربها الباسلة ضد العدوان الأمريكى، وأسبوع كامل فى عاصمتها «هانوى» تحت قصف الغارات الليلية، قضيته فى توتر دائم، حتى صعب حالى على الثوار فقرروا أن يرسلونى إلى مكان مختلف على الشاطئ حيث هدوء غريب وفندق جميل من أشجار «البامبو»، حتى أثاثه من السرير إلى التسريحة مصنوع من «البامبو» أيضاً.. قالوا لى إنه كان يتردد عليه السياح اليابانيون، فلما قامت الحرب واشتدت وطالت أصبح الشاطئ مهجوراً والفندق خاوياً.. هكذا كنت فيه وحيداً، أحس بالوحشة رغم ضوء القمر، فأطلب العودة إلى خنادق «هانوى» مهما يكن الخطر!

وليلة ترانزيت قضيتها فى «المنصورة»، اخترت فيها فندقاً سمعت عن اسمه، وضعت فيه حقيبتى الصغيرة، وخرجت أقضى مصالحى، وأتسكع فى المدينة الجميلة، حتى جاء موعد النوم، وعدت إلى الفندق يستقبلنى أصحابه بحفاوة ودودة، ويتمنون لى نوماً هادئاً.. وقد كان، لأننى متعب للغاية.. ساعات قليلة وسمعت أصواتاً عالية، تبينت أنها «قباقيب الفجر» يستخدمها النزلاء عندما يسمعون الأذان ويتوجهون للوضوء!

غير أننى لم أشهد عيد الصمت، ولكننى سمعت عنه، إذ يحتفل الملايين - ومعهم بعض السياح - برأس السنة القمرية، وفقاً للطقوس الهندوسية التى يتبعها عدد كبير من الإندونيسيين، على الرغم من أغلبية المسلمين فى البلاد.

جزيرة «بالى» درة السياحة ومدن أخرى مثل «جاوة» و«جاكرتا» تتوقف فيها الحياة وكأنها أصيبت بالشلل.. يبقى الناس فى بيوتهم وتطفأ الأنوار، وتظلم الدنيا احتفالاً بعيد الصمت.

كذلك تغلق المطارات والموانئ والمحلات التجارية، وتخلو الشواطئ، من منتصف الليل ولمدة أربع وعشرين ساعة.

يصف «توماس هوج» الصحفى الأمريكى المقيم فى «بالى» ما يشهده كل عام فى ليلة رأس السنة القمرية، حيث يشهد اليوم السابق ضجيجاً واحتفالات تتركز عندما يقترب المساء فتسمع قرعاً عالياً على الأكواب والحلل النحاسية، يعود بعدها الجميع إلى بيوتهم يطفئون أنوارها والأجهزة الكهربائية، ويقيمون الصلوات، ليأتى الصباح صامتاً، لا تسمع صوت سيارة فى الطريق إلا عربات الإسعاف، ولا يشعل أحد ناراً حتى ولو لعمل كوب من القهوة.. اليوم كله صمت وعبادة وصيام.. يغلق المطار أبوابه فى «دينباسار» عاصمة جزيرة «بالى».. وطبعاً لا توجد تليفزيونات.

فى القرى لا يسمع سوى صوت نباح الكلاب أو الريح أو جريان الماء فى الأنهار.

يتساءل الصحفى الأمريكى كيف يكون حال العالم لو احتفل سكانه - أكثر من ستة مليارات مواطن - بليلة واحدة من الصمت؟!

غرائب المشويات من الصين إلى كرداسة

تنتشر الإشاعات بسرعة فى الغربة، ولقد كانت ليلة ليلاء كما يقولون، عندما شاركت من سنوات فى مؤتمر حضره العشرات من جنسيات مختلفة حيث تبادل رؤساء الوفود الخطب العصماء، لينطلق الجميع فى رحلة «سفارى» وسط الغابات الأفريقية، فالاجتماع الرسمى كان بمدينة «أروشا» الجميلة بمناخها المعتدل، فهى ترتفع عن سطح البحر مقتربة من أعتاب جبل «كلمنجارو» بدولة «تنزانيا»، وهى الجبال التى زادتها شهرة رواية للكاتب الأمريكى العالمى «أرنست همنجواى» تحولت إلى فيلم سينمائى أنتجته هوليود، وحقق نجاحا وانتشارا كبيرا.

الرحلة لم تكن منظمة بالقدر الكافى، والطريق كان مثيرا لمن لم يسلكه من قبل، ورجال طوال بملابس بدائية وسهام ورماح على أكتافهم يسيرون على أقدامهم، لفتوا أنظارنا، ولم يلتفتوا هم إلينا، عرفنا فيما بعد أنهم أصحاب الأرض من قبائل «الماساى»، ونحن بالنسبة لهم متطفلون، شاهدوا أمثالنا من قبل فى رحلات سياحية.

توقفت السيارات على بعد خطوات من فندق صغير لا يتسع لكل هذا العدد من القادمين غير زبائنه الأصليين، فبدأ المشرفون على الرحلة مفاوضاتهم لتسكين الضيوف، وكان طبيعيا أن يبدأوا بأنفسهم وبرؤساء الوفود وبذوى الحيثية وبكبار السن وبالسيدات، حاولوا أن يجدوا لهم مكانا فى حجرات

الفندق. أما الباقون، وأنا منهم،فإلى خيام نصبت فى الحدائق المفتوحة المحيطة بالفندق.

بدأ السمر والنميمة والتسكع ليلا ومشاهدة فيلم ومرشد يشرح لمجموعة خواجات يرافقهم أسرار الغابة، مركزا على الحياة والأفاعى؛ مما شد الانتباه، وأدخل الخوف قلوبنا مما ينتظرنا فى ليلتنا الحالكة.

أخيرا وصلنا خيامنا، وخلعنا ملابسنا، وتهيأنا للنوم، عندما سمعنا أصوات وحوش ضارية تمثلناها أسودا تزأر وتحوم حول الخيام، ولقد قيل لنا إن النار تبعد الخطر، فأشعلنا قبسا منها لم يلبث أن انطفأ بفعل الرياح التى تهب علينا فنخشى أن ننام فتتقلب الشعلة وتحترق الخيمة،كما نخشى من حيوانات الغابة المتربصة بنا لقمة سائغة، ونتذكر فى ظل مخاوفنا أحاديث الإشاعات حول الآدميين آكلى لحوم البشر، فماذا لو أنهم شموا رائحتنا، وجعلوا منا وليمة لهم؟!.

لم يخرجنا من أوهامنا إلا ما قيل لنا إن قبائل آكلى البشر قصار القامة عادة، وكل من رأيناهم من أفارقة فى المنطقة طوال للغاية مما يطمئن قليلا.

بقيت عقدة آكلى اللحوم مجهولة الهوية فى رحلاتى التالية لأفريقيا، فقد تخيلتها آدمية، خاصة وأن الأيام أثبتت أنها أمر محتمل؛ بدليل ضبط كميات من أجساد بشرية وأطفال فى ثلاجات قصر «عيدى أمين»، بل وقيل إن حاكم أوغندا ورئيسها كان يستمتع بأكل لحم خصومه وتقديمه لضيوفه.. والله أعلم، فربما كانت تلك الحكايات دعايات ما بعد السقوط ومحاولة لتشويه سمعته بعد عزله من منصبه العالى.

والمصريون الذين سافروا فى رحلات سفارى إلى كينيا أكلوا طبق المشويات المتميز الذى يجمع ما بين التمساح والفيل والخرتيت والثعبان وما خفى كان ألعن.. يقولون إنها جميعا لذيذة، أو أنهم لم يحسوا بأى فرق، فكلٌ عند العرب لحم!

وعندما ذهبت إلى «أستراليا» لم أستطع تذوق شواء «الكانجرو» وهو الحيوان الفريد الذى يتخذونه هناك رمزا للبلاد، ويكرمونك بتذوق طعمه، فإذا امتنعت كأنك أهنت العلم!

كله كوم وأكل الكلاب كوم آخر، وهو طعام مفضل لدى شعوب جنوب شرقى آسيا، وأيضا علاج ودواء.

لن أنسى يوما أثناء زيارة مدينة صغيرة بجنوب الصين دعوة رسمية على الغداء والناس سعداء أكثر من المعتاد.. مرافقى، وهو صحفى صينى يجيد اللغة العربية، وقد عمل فى مصر عدة سنوات، أراد أن يدخل الطمأنينة إلى قلبى، وكنت أتشكك دائما فى وجود لحم الخنزير على موائد الطعام.. قال لى: اليوم تأكل كما تشاء فاللحم طيب وحلال، نسيت اسمه باللغة العربية، ولكنه فى كل الأحوال ليس خنزيرا.. رفعوا الغطاء عن سلطانية شوربة ساخنة، ينطلق منها البخار، وبها قطع لحم وعظم يتطلع إليه الحاضرون بإعجاب.. قبل أن تبدأ الوليمة بلحظات، ابتسم مرافقى وتذكر اسم اللحم مؤكدا أنه كلب!!.. ولكم أن تتصوروا حالى!

ولماذا نذهب بعيدا وفى أرياف مصر كانوا أحيانا يأكلون فيران الغيط، ويرونها ألذ من الأرانب!

وفى البلاد الصحراوية يأكلون حيوان «الضب» ويشوون «الجراد».

هذا ونحن نستعد لأكل الفسيخ فى شم النسيم!!

وفى فرنسا يتخصص عدد من الجزارين فى لحم الحصان.

وبناءً عليه لا بأس من أكل الحمار المصرى، خصوصا أن القانون لا يجرم ذبحه وبيعه، والفتاوى تحلل لحمه، ومسئول بيطرى يتغزل فى فوائده وطعمه!

يقولون إن جزارة من «كرداسة» وقبل ذلك ضبطوه فى «الوراق»، ولكننى أشك أنه فى كل مكان!

اخلعوا ملابسكم إلا قطعة واحدة!

لم أسافر إلى أمريكا الجنوبية، ويقال اللاتينية.. ولم أتحمس لزيارتها، فاكتفيت بما يرويه الزملاء الذين ذهبوا لحضور مؤتمرات سياحية، وعاد معظمهم دون أن يكتشف جمال تلك البلاد البعيدة.

مرة واحدة كدت أقترب من شواطئها على ظهر باخرة أنيقة من نوع «سفينة الحب» التى كانت تغرينا على شاشة التليفزيون فى صورة مسلسلات أمريكية.

كنت أتفقد سوق البحر الأبيض المتوسط السياحى الذى كان يعقد فى القاهرة، عندما توقفت أمام رجل يرتدى قبعة تلفت النظر، ويروج لرحلات كروز بعيدة، تبدأ من ميناء «نيويورك» وتتسكع فى البحر الكاريبى، الذى تطل عليه مجموعة جزر ودول تصل ما بين الأمريكتين، وتحظى بسمعة سياحية عالمية، غير أنها الأقرب والمفضلة لإجازات الأمريكيين.

أبديت اهتماما، وتبادلنا الحديث، فدعانى للسفر، وليس مطلوبا منى إلا أن أصل إلى نيويورك، والباقى عليه، ومازالت الدعوة فى جيبى.

السفر البعيد، والقريب متعة، وقد يكون عذابا، وكثيرا ما يكون هربا.

تحلم «ليلى أحمد» تحت عنوان «قلم أحمر» فى جريدة «الرأى العام» الكويتية:

تجتاحنى الرغبة الآن فى السفر لبلد لا أعرف به أحداً.

أريد أن أذهب إلى بلد لا أعرف لغته..

أريد الركوب على دراجة هوائية فى الأزقة الضيقة فى ذلك البلد، وسط زحمة ناسها، وأصوات باعتها ومناديها.. وأن أقف لأتحدث مع رجل مسن يضحك لتعليقاتى وشغبى، فيبرز عن فم بلا أسنان.. يا ألطاف الله.. ما أحلاك!!.

سأغادر إلى بلاد بعيدة، لأرمم نفسيتى الهشة.. لست قادرة على تحمل الأكاذيب الكثيرة والتواءات الفضاء العربى بكل برامجه الحوارية التى يمثلون بها علينا.

وتكتب الكاتبة السعودية «نادين البدير»:

«ليس أجمل من دخول مكان لا تعرف به أحدا، ولا أحد يعرفك، لا تربطك به أى علاقة».

ومع أنها تتحدث عن جزيرة «سريلانكا»، فإن كلماتها تنطبق على كل مكان.. تبدأ بقولها: «للغابة مطار وسط بستان، تخرج منه فتصادفك عبارة «أهلا بكم فى الجنة».

ولقد زرت «سريلانكا» أكثر من مرة، واستمتعت بجمالها الفطرى والطبيعة بغير تدخل من البشر، والابتسامة على الوجوه، رغم أن الحال لا يسر، والحرب الأهلية تشم رائحتها فى كل مكان من العاصمة «كولومبو» والحر الشديد إلى «كاندى» فى الشمال والجو اللطيف مع زيارةٍ للبيت الذى أقام فيه الزعيم المصرى «أحمد عرابى» ورفاقه المنفيون، مروراً بفندق عتيق يطل على المحيط الهادر، والأكل كله كارى، وصولا إلى قرية سياحية.

فى قلب الغابة، عرفت قبل الوصول إليها أنها أصبحت تقريبا مهجورة بعد أن تعرضت لهجمات المتمردين التاميل المتمركزين بالقرب منها، يذهبون فى الليل عندما يحتاجون إلى الدواء يأخذونه من السياح وبعض الأموال يأخذونها من خزينة القرية.

لم يكن كثيرون خارج شمال سريلانكا يعرفون ما يجرى، والأهم أن تذاع على العالم الخارجى مطالبهم الثورية، وكيف أن ما يقومون به من غزو خاطف لا يهدف للسرقة، وإنما للتعريف بقضيتهم.

تفتق الذهن عن فكرة تضمن اهتمام وكالات الأنباء العالمية بهم، وكان هجوماً ليلياً كالعادة، يجمعون فيه النزلاء الأجانب والموظفين المحليين ليسمعوا خطبة قائد مجموعة «التاميل»، وفى الوقت نفسه أمروهم بخلع ملابسهم فيما عدا قطعة واحدة يحتفظون بها، يختارونها على كيفهم!

هكذا تناقلت عواصم العالم تلك الأخبار المثيرة، وذكرت اسم «التاميل».

قضيت ليلة قلقة فى القرية الجميلة،ولم يهاجمنى أحد.

أما «نادين البدير» فقد ذهبت إلى «كاندا لاما» على بعد ثلاث ساعات من عاصمة «سريلانكا» إلى فندق ليس له جدران كاملة؛ لأن المبنى دخيل على الحديقة الإلهية.. فقط حجرات لها أبواب ونوافذ زجاجية تطل على البحيرة، تبدو وكأنها معلقة بين الأغصان.. وفى المساء حاولت جاهدة رؤية ما يحدث فى القمة فالأنوار غير ساطعة.. وفى الممر تتهادى إحدى الزواحف فهى فى دارها ونحن الغرباء!

لم أذهب إلى «كاندا لاما» ولكننى سرت على نفس الطريق الضيق المخنوق، على جانبيه فتيات بشعر جميل طويل، يبعن حبات «الكاجيو»، وعجائز يسرن جماعات، وعربات تاكسى بثلاث عجلات، وكلاب ضالة كثيرة، وحقول جوز الهند والأناناس والأرز، ومنازل خشبية متناثرة بين الأشجار لها بداية، وليست لها أسوار، فحديقتها الغابة بأكملها.

أخذنا الكلام بعيدا عن آخر الدنيا، التى زارها «محمد المنشاوى» وهو صاحب «تقرير واشنطن» الذى كان يذاع على الإنترنت، وتعثر.. والذى عرفناه مراسلا صحفيا لجريدة «الشروق» فى الولايات المتحدة الأمريكية، ومنها انطلق إلى «كوبا» وإلى معسكر «جوانتانامو» المشهور.. ولكن ما أحببته أكثر زيارة قام بها لمدينة «أوشوايا» فى أقصى جنوب الأرجنتين بأمريكا الجنوبية التى لا يوجد بها سوى القارة المتجمدة الجنوبية الخالية من أى مدينة، وهى آخر ميناء فى العالم، وبها آخر مطار فى العالم، وكذلك آخر شارع وآخر مطعم وآخر فندق وآخر ملعب كرة قدم.

المدينة البعيدة التى لم نسمع بها محطة مهمة للراغبين فى زيارة القطب الجنوبى، سكانها خمسة آلاف فى الصيف، يصبحون ألفاً ومائتين فى الشتاء،

ومنها تقلع البواخر السياحية العملاقة إلى القارة الجنوبية، حيث يبلغ عدد السياح أكثر من عشرين ألفا.

فكرة شيطانية نفذتها حكومة الأرجنتين، وهى إقامة سجن فى أقصى جنوب العالم لأكثر المجرمين خطورة.. وهناك لا يمكن لأحد أن يهرب.

ماذا يفعل المساجين؟.. أقاموا خط سكة حديد، انتهوا منه قبل أكثر من مائة عام، وسمَّوه «قطار نهاية العالم» استخدموه فى مواصلة حياتهم البائسة.

أغلقت الحكومة السجن الرهيب، وحولته إلى قاعدة للأسطول الأرجنتينى.. ثم أغلقتها.. ولكن القطاربقى،ليعود من جديد ولكن فى خدمة السياح وبعربات فخمة.

المهم أن تصل إلى «أوشوايا»!

ليلة فى قطار الشرق السريع

رحلة طويلة فى قطار تثير الخيال.. كلنا عشقناه، وركبناه فى مهمة، أو سياحة لمجرد النزهة.. نحس فيه بالأمان، ولو أن ذلك كان من زمان؛ فالكوارث والحرائق عندنا أصبحت على كل لسان، كما أن أحوال القطارات تدهورت بعد أن تعدى عمرها سن المعاش.

لم تعد الشكاوى تكفى بعد أن تربص الموت بالركاب، ولا يبدو الإصلاح فى الأفق.. هذا فى مصر.. بينما العالم يتطور ويعيد الثقة والسرعة بالسفر فوق القضبان، بل ويجعل منها رحلات سياحية يتفنن الخبراء فى تسويقها.

ولأننا نقترب من موسم الإجازات والسفر،يبدأ التفكير فى وسائل الانتقال وليس أمامنا هذا العام إلا أن نقرأ الفاتحة لو كنا سنركب القطار.

لا داعى لذكريات الماضى، ولا لمزيد من تعقيد النفوس بقطارات «الرصاصة» اليابانية التى تنطلق بنفس السرعة، أو قطارات الرفاهية التى تعبر أوروبا للفسحة والاسترخاء أو القطارات الفضية التى تسير أياما وسط بانوراما من الغابات والبحيرات وثلوج «سيبيريا» الشهيرة أو عربات السكك الحديدية التى تحولت إلى رحلات سياحية بعد أن أفلس أصحابها مثل مهراجات الهند، فتحوا قصورهم للزيارة برسم دخول، وأجروا قطاراتهم الخاصة للسياح.. فمن أين يعيشون؟!

نبدأ بقطار الشرق السريع المشهور والذى كان يصل إلى فلسطين قبل أن

تقوم الحروب، ثم توقف نهائيا لسنوات بعد أن أصبحت أوروبا نهبا للقتال.. وأخيرا عاد فى صورته الجديدة بفخامة الماضى، وكان أول انطلاقة عام ١٨٨٣ من لندن إلى اسطنبول، ليصبح فقرة من برنامج سياحى تجمع ما بين البر والبحر، بدايتها ليلة فى القطار الأسطورى الفاخر، جوها حالم والخدمة أرستقراطية، والطعام يقدم بسخاء، والنوم آخر راحة بينما الديكورات تضفى عالما مختلفا، إذ تعود إلى العشرينيات.. محطة الوصول «فينسيا» بسحرها الخاص وليلة فى واحد من أفخم فنادقها على بعد خطوات من ميدان «سان مارك»، وفرصة للفسحة على الطريقة الإيطالية وركوب «الجندول» فى ضوء القمر قبل أن تستقل باخرة «البحار السبعة» الفخمة، جميع كبائنها أجنحة لها بلكونات تواصل تقديم ألوان من الرفاهية، وتتوقف عند الموانئ والجزر فى كرواتيا واليونان وإيطاليا وربما جولة فى «كابرى» المصيف التقليدى «للملوك والأمراء» والاستعراض بالبيكينى قبل الوصول إلى «روما» للعودة بالطائرة.

نوع مختلف من الدلال فى رحلة أسبوع بقطار المهراجات من عاصمة الهند «دلهى» إلى «تاج محل» فى «أجرا» مرورا بأجواء ساحرة يستقبلونك بباقات الورد، ومشاعر الود والاحترام.

السكك الحديدية لها فى معظم بلاد الدنيا طقوس، والرحلة عبر الشاطئ الشرقى فى الولايات المتحدة الأمريكية على طول المحيط ساحرة، والسفر داخل أوروبا بالقطار متعة، وركوب القطار للوصول إلى شلالات «نياجرا» فسحة.. ولكن لابد من معرفة العادات التى نجهلها، وإلا حدث لك ما يندم عليه صديقى عاشق السفر والخبير فى أمور كثيرة عندما اصطحب زوجته إلى فرنسا ومنها إلى إسبانيا فرأى أن يأخذ عربة نوم فى قطار يتيح له الفرجة على الطبيعة الساحرة من نافذة مقصورته التى تضمه وزوجته.. كانت المفاجأة أن معظم عربات النوم لا تضم سريرين فقط كما تعودنا، وإنما على الأقل ستة، وأن المسافرين لا يخجلون مثلنا من خلع ملابسهم عند النوم خصوصا والدنيا حر.. ما إن رأى صديقى المشهد حتى أصابه ذهول، ولم يستطع أن يتأقلم، ولم يجد حلا إلا أن يبقى طول الليل ساهرا واقفا فى طرقة القطار حتى لا يخدش رفاق عربة النوم حياءه، فما بالك بزوجته!!

مشاهد متناثرة فى رحلة إلى يوغوسلافيا قبيل تقسيمها، تضم عددا من المهتمين بالسياحة العلاجية، أطباء، صحفيين، ورجال أعمال، وكان علينا السفر داخل البلاد بالقطار.. تجمعنا وتجولنا حتى كاد الميعاد يفوت، وعرفنا أن مشكلة تواجه مرشدتنا السياحية الشابة وهى غياب اثنين من الوفد الإنجليزى لم يظهرا حتى انطلق القطار بدونهما، وكانت القصة حديث الجميع، والمرشدة غاية فى القلق والخوف من أن تتعرض للعقاب، ولكن زميلا لها أكبر سنا وخبرة طمأنها بأن الرجلين سوف يلحقان بنا، فهما من المترددين على يوغوسلافيا، ويعرفان كيف يتصرفان، فلا خوف من التوهان ولا الشكوى، خصوصا وأنهما يمثلان شركة سياحة بريطانية تنظم رحلات بالقطارات، ولابد أنهما تعمدا التخلف ليركبا قطارا آخر، يعاملان فيه كركاب عاديين؛ فيلمسون العيوب على طبيعتها، ظنا منهم أن الرحلة المعدة من قبل هيئة تنشيط السياحة قد لا تدل على الحقيقة.. وفعلا ظهر الرجلان فى المساء، وقالا إن الوقت سرقهما ولم يلحقا بقطارنا.

آخر رحلات القطارات السياحية هى أطولها، ولكن بعد التطوير وجعل عبور «سيبريا» الرهيب متعة ورفاهية، تبدأ من موسكو وتنتهى فى «فلاديفوستك» بعد ثمانية آلاف كيلو متر.. إحدى وعشرون عربة صممت بطريقة تسمح برؤية المشاهد التى يمر بها القطار بطريقة بانورامية مع توفير قاعات فاخرة للطعام والاسترخاء، وضمان تدفئة مريحة؛ فدرجة الحرارة فى الخارج تحت الصفر، وهناك طبيب تحت الطلب وخدمات أخرى تبدأ بالموسيقى الحية على البيانو أو الكمان وطبعا الفيديو والـ«دى فى دى» والتفنن فى وجبات الطعام والخدمة وأشياء لم تكن معروفة أيام القطار الكئيب الذى لا ينقل إلا المغضوب عليهم والمنفيين.. فالمسافرون اليوم لا يتوقفون إلا عند الأماكن الجميلة والتاريخية مثل قصر «إيفان الرهيب» وبرج من القرن السابع عشر بدأ هو الآخر يميل فيقارنونه ببرج «بيزا» الإيطالى وبعض من سلسلة جبال «الأورال»، والمسلة التى ترمز للحدود بين أوروبا وآسيا، واستعادة لقصة أسرة «رومانوف» الذين قتلوا بعد قيام الثورة الشيوعية عام ١٩١٨، وكان قد ألقى القبض عليهم وسجنوا بعيدا فى سيبريا، وكانوا ستة بصحبة «نيقولا الثانى» آخر القياصرة، وأقاموا عاما فى بيت

صغير بمدينة «بيكاترنبرج» رابع أكبر مدينة روسية قبل أن ينفذ فيهم حكم الإعدام بإطلاق الرصاص ويقال إن الماس الذى كانت السيدات يخبئنه فى ملابسهن الداخلية اختلط بدمائهن، ويقال إنهم جميعا قتلوا، حتى ظهرت بعد ذلك فتاة فى أوروبا ادعت أنها «أنا ستاسيا» صغرى بنات القيصر، وكانت وقت تنفيذ الإعدام طفلة تم إنقاذها وتهريبها لتطالب بالعرش والثروة، وتصبح رواية سينمائية وأسطورة لا يقطع أحد بصحتها..

وقد خشيت «موسكو» الشيوعية أن يتحول البيت الذى قتل فيه القيصر إلى مزار شعبى، فأمر حاكمها وكان وقتها «بوريس يلتسين» فى عام ١٩٧٧ بهدمه بأمر من الكرملين، ولقد أصبح «يلتسين» حاكما للاتحاد السوفييتى قبل انهياره، وأقيمت بعد ذلك كنيسة جميلة فى مكانه، يتذكر كل من يزورها للصلاة أو للسياحة إعدام أسرة «رومانوف».

وتتنوع الحكايات والاهتمامات ويعود حديث القطارات من جديد.. حتى السياسة لحقت بالسياحة فى أخبار السكة الحديد، إذ قامت لأول مرة رحلة قطار بين الكوريتين منذ ستة وخمسين عاما، ومازالتا فى حالة الحرب، ولكن محاولات تبذل على الأقل لجمع شمل الأسر المشتتة بين الشمال والجنوب، وكان تسيير القطارات المتوقفة تحمل عددا من مواطنى الشمال والجنوب فى قطارين يلتقيان لعدة ساعات قبل أن يعودا من رحلتهما التاريخية.

ولقد زرت من سنوات المنطقة المنزوعة السلاح بين الكوريتين، مرة من الشمال ومرة أخرى من الجنوب، ولفت نظرى أشلاء قطارات دمرتها الحرب، وفكرت فى يوم يمكن فيه السفر بين نصفى البلد الواحد.. وربما تكررت دبلوماسية السكك الحديدية!

التحرش على ظهر جمل

● لسنوات قليلة لم تكن مضايقة السائحات فى مصر أمراً معروفاً، أو يبعث على الشكوى ويثير المخاوف.. على العكس، كانت الدنيا أماناً خصوصاً بالنسبة للخواجات فلهم كل الاحترام.

لذلك لم أصدق نفسى وأنا فى رحلة سياحية لسنغافورة قبل سنوات عندما بدأت المرشدة تتعرف على المجموعة، وتهتم بالقادم من مصر؛ لأنها أول مرة تلتقى بمصرى، ولأنها مغرمة بالأهرامات والأقصر وباقى الآثار، ثم فاجأتنى بمخاوفها من التحرش الجنسى الذى ينتظرها خصوصاً أنها تسافر وحدها أو مع صديقة لها.

اندهشت وانبريت أدافع بصدق عن الأمان، ودليلى أن البنات يسرن فى شوارع القاهرة فى منتصف الليل دون أى مشكلة.

لم أكن أعرف أنه بعد سنوات قليلة سوف يصبح التحرش الجنسى فى مصر مشكلة، وصلت إلى حد أن تحذيرات تصدرها بعض شركات السياحة الأوروبية، وأحياناً نصائح تقدمها رسميا وزارات الخارجية الأجنبية مما قد ينتظر السائحة عند زيارتها لمصر.

وسمعنا عما كان يجرى فى الأقصر من غرام مع السائحات العجائز، وزواجهن من شباب الصعيد والذى انتهى مرة بموت الزوجة تاركة ميراثاً

ضخماً للشاب المصرى، فأصبح ذلك أملاً عند كثيرين، يسعون لتحقيقه.. والبداية هى التحرش!

وسمعنا عن المضايقات التى زادت عن حدها فى المعابد والشوارع والملاهى والأسواق وكل مكان تظهر فيه خواجاية، باعتبار أنهن دائماً راغبات، وأن تصرفهن على حريتهن وقبولهن للمس وأحياناً قبلات التحية والشكر وملابسهن المغرية دليل على رغبتهن.

حتى العاملون فى قطاع السياحة طالتهم الشكوى، وربما أضاف ذلك إلى الحقائق مخاوف وإشاعات جعلت مصر على القائمة السوداء فى تهمة التحرش بالسائحات.

وصل الأمر إلى النصيحة بعدم السماح للمرشدين المصريين بالركوب خلفك فوق الجمل.. أو قبول دعوة لسهرة خارج برنامج الرحلة، أو تصديق عروض الزواج أو نزهة وحيدة فى «فلوكة» بنيل أسوان.

وقرأ كثيرون مقالاً للأمريكية «لين دون» فى صحيفة «سان فرانسيسكو كرونيكل» عن تجربتها فى رحلة لها إلى مصر كلها، عما تعرضت له وزميلتها من تحرش جنسى مكثف بالكلام واليد وبأسلوب غير لائق!

صحيح أننا لسنا وحدنا، فالإيطاليون مثلاً سخفاء فى التحرش، والأتراك اضطروا صاحبة فندق صغير أن تتخلص من جميع العاملين عندها من الرجال بعد تكرار مضايقتهم لزبائنها من السائحات.

ومع ذلك فهى مشكلة حقيقية لابد أن نواجهها بإصرار وجدية.. لأننا مش ناقصين!!

هات يا بوس طول اليوم.. والليل

أول رسالة حب تأتى على «الموبايل» كانت بتوقيع «تاد».. كتبها وهو على فراش المرض من زمن.. تذكرت آلامه وضيقه من زنزانة غرفة فى مستشفى.. قد يحتاج علاجه للسفر إلى الخارج، ومحبوه يحاولون، وآخرون لا يبالون.. يقود حملة إنقاذه فنانون يعرفون قدره، بدأها الدكتور «أحمد نوار» ويكملها «مصطفى يسين».. قلبى معه، ولست أملك غيره.. أذكره كثيراً ولعله يذكرنى فى شدته، لذلك لم أتوقع أن تكون رسالة الحب فى عيد الحب بتوقيعه وتوقيع من يحبهم «جيجى» زوجته «وليندا» ابنته.. يقولون إنها بدعة غربية، ولا بأس، مادامت تبعث بالسعادة فى النفوس.. ويذكرون كبير القساوسة «فالنتين» الذى فقد حياته من أجل الحب.. تقول جريدة الحياة إن امبراطور روما أصدر مرسوماً كل عام يدعو الشباب للالتحاق بالجيش تحقيقاً لطموحه ووقوداً لحروبه، ولما لاحظ أن الرجال المتزوجين يهربون من الخدمة، ولا يتحمسون للقتال، أصدر مرسوماً آخر بمنع الزواج حتى تنتهى المهام العسكرية.. أصاب الشباب الضيق ونال العقاب كل من اعترض ولكن ««فالنتين» تحدى أوامر الامبراطور من واقع مكانته كبيراً للقساوسة، فقام بعقد قران كل من أراد الزواج، ولم يبق الأمر فى الخفاء، خصوصاً أن الرجل يلقى عظة عن مزايا الحب.. أمر الامبراطور بحبسه وموته.. فى السجن جاءته رسائل من أتباعه العشاق وكانت ابنة السجان تنقل آراءه للشبان، وتحمل له حبهم.. قبل إعدامه ترك لها رسالة حب للناس والحياة وقعها باسمه «فالنتين» فبقى عيداً ورمزاً يتبادل فيه الجميع أجمل المشاعر.. منحه

البابا بعد سقوط الامبراطور الطاغية بسنوات لقب القديس، وأرسل «دوق اورليانز» بطاقة حب لزوجته من سجنه فى قلعة لندن تحمل اسم «فالنتين» وصورة كيوبيد الشهيرة وهو يحمل سهم الحب.. وأصبحت رسائل الحب عادة أمريكية، ثم عالمية، حتى وصلتنى على «الموبايل» ولم أكن أعرف أننى «غلبان» إلا عندما قال لى صديق إنه يتلقى رسائل الحب فى عيده بالجملة ومن سنوات، وأخذ يقرأ لى: إذا وجدت نفسك فى غرفة مظلمة، وكل حاجة حمرا والدم من حواليك، أعرف أنك كنت جوه قلبى.. و«إذا الطيور نسيت تغرد، وإذا القلب نسى يدق، لن أنسى أبداً تحيتك فى يوم الحب».. و«إذا المطر غطى الشمس، مش حاننسى أن الشمس حاتطلع زيك، ممكن ما نشوفش بعض بس أنت دائماً تشرق فى قلبى».. و«إن غبت عن عينى فالقلب دايماً يراك، وأن طال الغياب فالقلب لن ينساك».. و«سألت عن الشجر ربنا أعطانى غابة، وسألت عن البحر ربنا أعطانى محيط، وسألت عن الورد ربنا أعطانى حدائق، وسألت عن الحب ربنا أعطانى أنت».. و«تقول زعلان أقول أراضيك، تقول أحبك أقول أموت فيك، تقول أنساك أقول أتحداك» و«يعنى لازم مسافات، آجى لغاية عندك مسافات، أشد شعرى مسافات، وأصرخ وأقول مسافات كثيرة، وحشتنى».. و«أجمل إحساس Next to you طيب ليه you forget me، أحلف بالله I miss you، حياتى Beside you، ومنايا أنا ليك Forever».. هل كل هذا حب أم كلام؟.. وتكفى وردة حمراء تقدم لكل البنات فى الصباح يوم الـ «فالنتين»، أم تكون الوردة زهرة «تيوليب» إذ تقول أسطورة إيرانية إن الشاب «فرهاد» وقع فى حب الفتاة «شيرين» فلما بلغه خبر موتها، ركب حصانه وقفز به من أعلى الجبل ومات، ومن كل نقطة دم نزفت منه على الأرض نبتت زهرة «تيوليب» رمزاً للحب.. أم يختصرون الطريق كما يحدث فى «الفلبين» وهات يابوس على قارعة الطريق، وتقام مسابقة لأطول قبلة يريدون أن يدخلوا بها موسوعة «جينيس» للأرقام القياسية.

وعلى سيرة الحب تتفنن الصحف العربية فى اختيار موضوعات لذيذة، أبطالها فنانون وأثرياء، والحق أن المحررين فى تلك الصحف يستحقون التحية، وهم على ما أعتقد مصريون فمعظم الرسائل من القاهرة، ومعظم المشاهير الذين تحق عليه النميمة من القاهرة.. تحت عنوان «وأنتى يا حبيبتى طيارتك نوعها إيه؟» جاء ذكر الذين يملكون طائرات خاصة، وربما

كانت آخرهم «سمية الخشاب» بعد زواجها من رجل أعمال عربى تخفى اسمه وجنسيته يقيم فى لندن، أهداها طائرة لكى تسافر إليه كل شهر.. أما «فيفى عبده» التى كانت تتباهى بطائرتها الأمريكية التى تسع عشرة أفراد فسرعان ما لحقت بها «دينا» وبطائرة أكبر تنقل فرقتها الموسيقية لكل حفل خارج أو داخل مصر.. وبمناسبة «دينا» كان لدى «حسام أبوالفتوح» طائرة وربما أكثر من طائرة قبل أن يدخل السجن.. نعود للفنانات المتزوجات من رجال أعمال عرب و«صفاء أبوالسعود» و«جيهان نصر» التى اعتزلت.. و«شيرين وجدى» وطائرة زوجها، فإذا ساءت العلاقة تفقدها، كما سبق وحدث لهدى رمزى وميرفت أمين بزواجهما على التوالى من «مصطفى البليدى» وهو نفسه لم يعد لديه طائرة خاصة بعد التحفظ على ممتلكاته ولم يعد فى حاجة إليها بعد دخوله السجن.. ويقال إن «إلهام شاهين» أول فنانة تستخدم طائرة خاصة، من بعدها «شيريهان» قدمها لها زوجها «علاء الخواجة» وبسرعة اشترى طائرة ثانية لزوجته الثانية «إسعاد يونس»!!

ولو أن الحب مازال يسود لفازت صورة عاشقين بالجائزة الأولى فى مسابقة أفضل صور العام الماضى، ولكن الفائزين جميعاً لم يجدوا أمامهم سوى أحداث قتل ودمار ومشاهد حزن وانهيار.. المسابقة تقام كل عام فى «امستردام» كبرى المدن الهولندية لاختيار أفضل الصور الصحفية، وقد تقدم لها عدد كبير يصل إلى سبعين ألف صورة التقطها نحو أربعة آلاف مصور من مائة وعشرين بلداً.. فازت بالجائزة الأولى لقطة لسيدة هندية جاثية على رمال الشاطئ، تصرخ باكية أحد أقاربها ضحية أمواج الطوفان الآسيوى الرهيب، وقد فتحت يديها للسماء تدعو له، وربما لها ولنا بالرحمة.. أما باقى الصور الفائزة فلرجل إيرانى خاط شفتيه وعينيه؛ احتجاجاً على اعتزام هولندا طرد ستة وعشرين ألفاً من طالبى اللجوء.. وصورة لجندى أمريكى سقط بمدرعته فى كمين للمقاومة العراقية.. وصورة لأطفال سنغاليين يهربون من هجوم أسراب الجراد.. كلها تعبر عن واقع الحال، وكله حرب وعذاب.. فمن أين يأتينا الحب أيها القديس فالنتين؟!!

آخر نداء فى يوم الحب: لا تأكلوا الشيكولاته، فالكاكاو يجمعه أطفال يعاملون كالعبيد!!

شالوم فى السينما المصرية

هذا كتاب جاد، ظل صاحبه سنوات يجمع مادته ويصنفها ليقدمها للناس فى أسلوب يصلح للدارسين وللقراء العاديين، لعل الفائدة تعم، ونعرف تاريخنا القريب، ونتلفت حول حاضرنا المريب.. الموضوع الذى نذر له الناقد السينمائى «أحمد رأفت بهجت» نفسه هو «اليهود والسينما فى مصر» فجاء دراسة تحليلية تغطى جميع أنشطة شاشتنا الفضية منذ بداية القرن العشرين والدور الذى لعبه يهود مصريون وأجانب فى تقديم هذا الفن الجديد الممتع للجماهير، متضمنا الدعاية للصهيونية، وهو ما فعلته أيضا السينما العالمية، ولكننا كنا فى مصر نضحك من قلوبنا، ونحب نجوماً لا نعرف أو نتوقف عند أصولهم، مما يسهل علينا ابتلاع السم مع اللهو والعسل.

تطل الشخصيات الفنية «اليهودية» من صفحات الكتاب ويأتى مخرجون ومنتجون مثل «وداد عرفى» القادم من تركيا، و«توجو مزراحى» ابن الإسكندرية الذى ينتمى لعائلة يهودية من أصل إيطالى، ويضرب رقماً قياساً فى كثرة إنتاج الأفلام، والأخوان «إبراهيم وبدروس لاماى» من البرازيل فى أمريكا اللاتينية فى الطريق إلى أرض الميعاد فلسطين، فاستقر بهما المقام وإنتاج أفلام المغامرات فى مصر، مع أنهما لا يجيدان اللغة العربية.

حتى «ستديو» مصر» الذى قام مع ثورة التمصير ضد الاستعمار والاحتكار

بدعوة من «طلعت باشا حرب» لم يكن الدور اليهودى بعيداً عنه؛ إذ كان «يوسف قطاوى باشا» عميد الجالية اليهودية فى مصر أحد مؤسسى بنك مصر، وسرعان ما أصبح «جوزيف شيكوريل» عضوا بمجلس إدارته.. ولقد اختير «ليتو باروخ» ويبدو أنه من أشهر عائلات اليهود القرائين فى مصر لتولى إدارة شركة مصر للتمثيل والسينما فى فترة من أكثر فتراتها حساسية، وهى إنشاء ستديو مصر، فالرجل لم تكن له خبرة فنية أكثر من إدارته توكيل شركة «أوديون» لتسجيل اسطوانات من نوع «سوسو حنتوسو» و«حرَّص منى أوعى تزغزغنى» و«ياحليلة يا حليلة» و«عاشق ليه تلومونى، بين النهود واحملونى».. فى مقابل ذلك كان هناك فنانون يهود حققوا وجودهم داخل نسيج المجتمع المصرى رافضين الاستسلام للإغراءات والمؤامرات الصهيونية وأبرزهم «ليلى مراد».

من أبرز النجوم «راقية إبراهيم» واسمها الحقيقى «راشيل ابرامينو» أحبها جمهور السينما، خصوصاً فى فيلم «رصاصة فى القلب» مع «محمد عبدالوهاب» و«حكيم عيون» وفيلم «زينب» قبل أن تهاجر بنت «السكاكينى» إلى أمريكا لتشغل وظيفة فى الأمم المتحدة، وقد جاءت فى زيارة لمصر بعد معاهدة «كامب دافيد» بجواز سفر إسرائيلى.

«وكاميليا» اسمها الحقيقى «ليليان كوهين» حظيت بشهرة واسعة وأحاطت بها إشاعات لا تنتهى ما بين التجسس لحساب الوكالة اليهودية على مصر وعلاقة غرامية بالملك فاروق، وأقبل الجمهور على أفلامها «المليونير» مع إسماعيل يس «وآخر كدبة» مع فريد الأطرش مع «قمر ١٤» و«صاحبة الملاليم» وغيرها، على الرغم من أنها لم تكن فنانة موهوبة وإنما كما قال عنها «زكى طليمات»: موهبتها الحقيقية هى جمالها الصارخ وعلاقاتها المتعددة مع منتجى الأفلام.. مثل الشهب احترقت «كاميليا» فى حادث طائرة أمريكية كانت فى طريقها إلى باريس.. يقول «أنيس منصور» - رحمه الله - إنها أخذت مكانه على الطائرة بعد أن اعتذر عن عدم السفر!

ولم يكن كثيرون يعرفون أن «إلياس مؤدب» و«سلامة إلياس» و«نجمة إبراهيم» و«سامية رشدى» يهود، بينما نعرف أن نجمة الكوميديا والإغراء «نجوى سالم» يهودية أسلمت وتزوجت من زميلنا الراحل الناقد السينمائى

«عبدالفتاح البارودى» أبوها لبنانى يعمل «إسكافى» وأمها إسبانية من أصل يهودى خبيرة تصميم شباشب حريمى فى «شيكوريل» وقع فى هواها وزير المالية أمين باشا عثمان، الذى اغتيل فى قضية مشهورة.. أما «إلياس مؤدب» فاسمه الحقيقى «الياس مهذب ساسون»، مصرى وإن اشتهر بلبنانيته بسبب أعماله الفنية باللهجة الشامية وأشهرها عندما تقدم للزواج من «ليلى مراد» فى فيلم «عنبر» قائلا: «جيتك من آخر لبنان»، وقد لمع نجمه رغم وفاته وهو فى السادسة والثلاثين من عمره.. وحياة «سلامة إلياس» كانت أطول، دامت أكثر من ثمانين عاماً، قام خلالها بأدوار كوميدية متميزة أشهرها دور «النمساوى» فى مسرحية «أنا وهو وهى» لفؤاد المهندس وشويكار.. وأدوار الشر التى مازالت فى الذاكرة قامت بها «نجمة إبراهيم» من «ريا» فى فيلم «صلاح أبوسيف» وصاحبة مدرسة التسول والنشل فى «اليتيمتان» إلى مجموعة خالدة من الأفلام والمسرحيات، حتى اعتزلت بعد أن فقدت بصرها قبل وفاتها بسنوات.. واشتهرت «سامية رشدى» بدور «أم رتيبة» عن رواية «يوسف السباعى» وعشرات الأدوار تجسد شخصية الزوجة المتسلطة والحماة وابنة البلد سليطة اللسان، فلما اختفت أخبارها عرفنا أنها تزوجت من «شاؤول عدس» ورحلت إلى إسرائيل تمارس التمثيل فى أفلام ومسلسلات إسرائيلية قبل أن تتشىء محلات للوجبات الجاهزة.. دون دخول فى التفاصيل أو البحث عن دليل يكفى رمزا أن «توجو مزراحى» فى فيلم «على الكسار» الشهير «سلفنى ثلاثة جنيه» حيث يضطر النجم الأسمر المسكين لمصارعة بطل ملاكمة عملاق فتحدث المعجزة ويهزمه ليكسب عشرين جنيها هى كل المطلوب لفك رهن البيت والخروج من الأزمة، وكان ذلك فى ظل ـ أو ببركات ـ نجمة داوود التى كانت تزين حلبة الملاكمة!

آخرة الرقص فى مصر

أنقل عن مجلة «نيوزويك» الأمريكية مقالاً كتبه «رود نورد لاند» بالاشتراك مع الإعلامية المصرية والناشطة السياسة مراسلة المجلة فى القاهرة جميلة إسماعيل.

بصرف النظر عن الاتفاق والاختلاف مع كل أو بعض ما جاء فى المقال، فإنه يعكس صورة لما يجرى وللمخاوف القائمة على مستقبل ثقافة المنوعات فى مصر.

يبدأ المقال بالفنانة «عبير صبرى» ويصفها بأنها صاحبة الجسد المرمرى والشعر الأسود بلون الأبنوس والشفاه المعبرة والقوام المكتمل، وقد ظهرت فى كثير من الأفلام والمسلسلات التليفزيونية المصرية.. ولكن فجأة اختفت وهى فى قمة تألقها ثم تحولت قبل بضع سنوات إلى نموذج آخر، تقدم برامج على شاشات الفضائيات السعودية بعد أن ارتدت الحجاب ترتل آيات من القرآن.

يقولون إنه الاستثمار الوهابى؛ نسبة إلى المذهب الدينى المتشدد الذى تتبعه المملكة العربية السعودية، يتجه نحو الثقافة والفن.

يبدى المصريون قلقهم من «سعودة» ثقافتهم التى سادت العالم العربى لسنوات طويلة من المغرب إلى العراق.. فالأموال السعودية تشترى عقود احتكار المغنين والممثلين؛ مما يغير خريطة صناعة السينما والتليفزيون وفرض القيم السعودية عليها وعلى الجمهور.

يرى رجل الأعمال المصرى «نجيب ساويرس» أن تلك هى أهم مشكلة فى الوقت الحاضر، فمصر كانت دائما ليبرالية علمانية متفتحة، عندما أنظر اليوم إلى بلدى،

أكاد لا أعرفها، وأعتبر نفسى غريبا عنها.. هكذا قال وهو يطل من مكتبه فى الدور السادس والعشرين.

وفى فندق «حياة» على النيل منع مالكه الشيخ السعودى تقديم الخمور لنزلائه، وتخلص من مخزون مشروبات روحية يقدر بمليون وأربعمائة ألف دولار.. وهو ما يصفه «على مراد» مدير «ستديو مصر» بقوله «إن فندقا فى مصر بدون خمور مثل شاطئ بدون بحر»!!

هذا ويقوم السعوديون الذين لا توجد فى بلادهم مسارح أو دور سينما بتمويل خمسة وتسعين فى المائة من صناعة السينما فى مصر، ويقولون يمكنكم أن تحصلوا على المال ولكن بشروط قليلة، هى فى الواقع ليست قليلة، يسميها السينمائيون المصريون القواعد الخمسة والثلاثين، وهى أبعد من مجرد منع الأحضان على الشاشة أو القبلات أو الشراب، وحتى ظهور سرير خال.

وتشترى الفضائيات السعودية مكتبات الأفلام المصرية القديمة وتخضعها لرقابة قاسية، وأحيانا تمنعها من العرض نهائياً.

وللحق فإن بعض المصريين يرون أن موجة الاحتشام فى بعض الأفلام المصرية الجديدة لا تعود فقط للتأثير السعودى وإنما لأن المجتمع المصرى أصبح أكثر تحفظاً.

تقول المنتجة السينمائية «ماريان خورى» إن رأس المال السعودى كان شريان حياة لصناعة السينما المصرية، فبعد أن وصل ازدهارها قمته بإنتاج أكثر من مائة فيلم سنويا فى الستينيات والسبعينيات انكمش العمل فى الاستديوهات المصرية إلى بضعة أفلام فى التسعينيات.. وكان الفضل للسعوديين فى رفع العدد إلى أربعين فيلماً، يخشى لو أن رأس المال السعودى توقف فإنه لن تستطيع السينما المصرية إنتاج أفلامها.

ولكن آخرين يرون العكس تماما، وينتظرون أن السعودية هى التى سوف تتغير، وأن مصر ستعود إلى ما كانت عليه وتذكر الراقصة «دينا» أن شركة إنتاج سعودية هى التى قدمت فيلم «عمارة يعقوبيان» مع أنه يناقش من بين قضاياه الشذوذ الجنسى.

ويقدم «ساويرس» قناة تليفزيونية تحرص على تقديم الأفلام الأمريكية كما صورت دون أى رقابة أو حذف مشاهد.. وهو يصر على ذلك وعلى النجاح.. ولكنه ملياردير واحد، بينما السعودية بها عدد كبير من أصحاب المليارات!!

"تاريخ أقل قبحا": قراءة فى كف قلدق!

عدت لقراءة كتاب يستهوينى منذ صدر قبل أعوام، وتجدد الشوق إليه هذه الأيام.

لم يقدم صاحبه "شريف عفت" كتاباً قبله أو بعده.. لعله يرى أن "تاريخ أقل قبحاً" يكفى.

لماذا لا يقوم ناشره زميلنا الفنان محمد بغدادى بإعادة طبعه، فكم نحن فى حاجة لقراءته مرات.. ففيه فكر ومتعة وعبرة.

يستهوينى التاريخ ويتصادف أن كثيرين من أصدقائى أحبوه بعد أن درسوه فى الجامعة، خصوصاً من كان تلميذاً للأستاذ الدكتور محمد أنيس وكوكبة من زملائه أساتذة زمان.

كان جلال السيد ناقداً أدبياً وصحفياً شجاعاً يجد نفسه مع كتب التاريخ ورفاق الدراسة الذين استمروا فى أبحاثهم الدكاترة يونان لبيب وعبدالعظيم رمضان وكثيرين.

وما زال محفوظ عبدالرحمن كاتب الدراما المبدع يقدم التاريخ على أجمل صورة، ولست أدرى إن كانت الأميرة «أشرقت» فى مسلسل "بوابة الحلوانى" التى افتتن بها المشاهدون شخصية حقيقية أم من الخيال الجميل؟

"يحيى طربای" الذى ظننته غارقاً فى "بيزنس" السياحة، ليصبح واحداً من أبرز رجالها، فإذا به دارس وغاوى تاريخ.. مازال يجد وقتاً لقراءة الجديد،

يذكر الكبار فى قريته على حدود المنصورة زيارة أستاذه الدكتور أنيس ومعه الكاتب السياسى طاهر عبدالحكيم والممثلة الرائعة محسنة توفيق.

وكثير من المؤرخين والهواة، أذكر منهم الدكتور حمادة حسنى الأستاذ بجامعة قناة السويس الذى اختار الزمن المعاصر موضوعًا لدراسته، وجمع أوراق التنظيم الطليعى السرية.

يأتى اليوم المفكر المهندس شريف عفت ليقرأ علينا التاريخ بأسلوب يختلف فالمؤرخ، الذى يكتب عن التاريخ الذى يعاصره يخاطر مخاطرة كبيرة لو أنه فى مجتمع لا يؤمن بحرية الرأى والفكر.

يروى قصة المؤرخ المشهور عبدالرحمن الجبرتى، الذى التزم الحيدة والموضوعية ،وكان يعيش فى عصر محمد على، الذى كتب عنه "من طبعه الحسد والشره والطمع، لا يصطفى ولا يحب إلا من لا يعارضه".

ماذا فعل به الوالى محمد على؟ أرسل جنوده ليقتلوا ابنه "خليل" وهو خارج من صلاة الفجر فى مسجد شبرا، ثم ربطوه برجل حماره ليكون آية للناس، ولمن تسول له نفسه أن تقول كلمة حق فى حاكم معاصر.

هكذا يتوقف كتاب "تاريخ أقل قبحا" عند حريق القاهرة فى يوم السبت الأسود عام ١٩٥٢ فمنذ ذلك اليوم بدأ فى مصر عصر جديد لم يشأ أن يخوض فيه، مع أنها سنوات طويلة من الهزيمة والنصر والقهر وألغاز مازالت على غموضها، بل إن التاريخ لم يكتب رغم اللجان الرسمية التى اجتمعت، وانفضت فمن يجرؤ على كتابة تاريخنا، دون أن يربط هو نفسه برجل حمار؟!

رصد شريف عفت مفارقات تاريخية أقل قبحاً، وأكثر صدقاً مع مجموعة من الصور والرسوم النادرة، طوابع البريد والعملات الورقية حتى إعلانات ذلك الزمان لم يغفلها.

يحظى فندق "شبرد" القديم فى وسط المدينة باهتمام المؤلف رمزاً للعمارة والسياحة وملتقى الأحداث، بما يسميه "قراءة فى كف فندق" لينتقل إلى القاهرة وكثير من الأبهة مع مهرجان افتتاح قناة السويس، وأفراح الأنجال "أبناء الخديو إسماعيل"، ولائم ممتدة وعطايا وهدايا، ومشاركة من أبناء البلد الذين أقاموا افراحهم فى التوقيت نفسه.. امتدت الأفراح أربعين ليلة.

تفاصيل لذيذة بما فيها قوائم الطعام من الإفطار حتى عشاء منتصف الليل.. موسيقى وغناء ورقص شرقى وإفرنجى، وبهلوانة تمشى على حبل معلق فى الهواء، عندما تصل إلى نهايته تذبح "كبشا"، وتلقى بقطعة على جمهور المتفرجين من المحتاجين، وعبده الحامولى وقد تزوج ألمظ بتلك المناسبة، ويروى أن سفيراً أجنبياً رأى إعجاب المستمعين بغنائه يستعيدون كلماته.. فسأل مرافقه أن يترجم له ما يسعد الجمهور، فكانت "حبيبى هجرنى شوفوه لى يا ناس".. ضحك السفير كثيراً وهو يقول: المصريون شعب عنده أنفة حتى فى الحب، يهجره الحبيب فيكلف الناس بالبحث عنه، ولا يجتهد هو فى البحث عنه.

حلاوة بيوت القاهرة وبحيرات الأزبكية وندوات الطرب والأدب و"الكاريتة" الملاكى ذات الأجراس وسيلة للمواصلات.

كان يكفى إرسال تلغراف أو خطاب من أى مكان فى العالم بعنوان "شبرد القاهرة" ليصل ويسلم إلى صاحبه دون ذكر لاسم شارع أو رقم مبنى.

تزاحمت الشركات العالمية لإيجاد مكاتب داخل الفندق أو بجواره، وكانت "توماس كوك" للسياحة من أوائل هذه الشركات.

كثيرون ترددوا على "شبرد"؛ ملوك وجنرالات، سياسيون وفنانون.. أطباء وأعيان.. وأدباء، لم يتمكنوا من مقابلة جورج برناردشو عندما أقام فيه.. وشارلى شابلن له صورة لابساً "طربوش" على سلم الفندق، والمخرج العالمى "سيسيل دى ميل" والنجمة السمراء جوزفين بيكر تختال فى ردهة وحديقة شبرد، تزوجت فاتن حمامة بزوجها الأول عزالدين ذوالفقار، ولم يكن أبوها موافقاً، وتزوج فيه مصطفى أمين من ابنة النائب العالم لبيب باشا عطية، وأحيا السهرة فريد الأطرش ومحمد عبدالمطلب ورقصت سامية جمال وهدى شمس الدين، وتولى عقد القران فضيلة الشيخ حسنين مخلوف مفتى الديار، وحضره كثير من الباشوات والوزراء.

كل الناس تذهب إلى أجمل وأشهر فندق فى العالم.

من السياسيين محمد مصدق رئيس وزراء إيران، الذى أسقط شاه إيران لبعض الوقت، والجنرال ديجول، والمارشال مونتجمرى بطل معركة العلمين، والملك فاروق.

ولم يتخلف الأدباء والشعراء. الأعيان منهم والفقراء:

الشـــعراء فى الزمـــان أربعـــة

فواحد يجرى ولا يجـــرى معه

وواحد يجول وســـط المعمعـــة

وواحد لا تشتهى أن تســـمعه

وواحد لا تستحى أن تصفعه

.. واحترق شبرد عندما احترقت القاهرة، فتوقف شريف عفت عن الكلام المباح.

٤ سنين فى الأدغال

سافر إلى إفريقيا مبعوثاً مصرياً فى مهمة طبية، وعاد بعد أربع سنوات بكتاب "رحلة إلى مهد البشرية" وهو مذكرات طبيب مصرى فى تنزانيا.

أثار ذكرياتى، فقد كانت أول زيارة قمت بها للقارة السوداء إلى "دار السلام" عاصمة تنجانيقا، قبل أن تنضم إليها جزيرة "زنزبار" وتصبح "تنزانيا"، ثم تتغير العاصمة إلى "دودوما".

عن الأسماء: الجزيرة سمَّاها العرب القادمون من الضفة الأخرى للبحر "بر - زنج" ثم استسهلوا ونطقوها زنجبار، وينطقها الإنجليز الذين استعمروا البلاد "زنزبار".

"ودار السلام" لا تحتاج إلى تعريف، والاسم أيضاً عربى جاء مع السلاطين القادمين من عمان، حكموا البلاد سنوات، وتركوا بصمات باقية حتى الآن.

والعاصمة الجديدة "دودوما" عن أسطورة فيل كان يمشى فى هذا المكان، فغاص فى مستنقع من الطين، وكلما حاول رفع جسمه الضخم، غاص أكثر، فلم يبق إلا ذيله، وعندما رآه الأهالى صاحوا "دودوما"، أى أنه يغرق بلغتهم.

ووزارة الصحة التى تعامل معها الدكتور "رشدى يوسف" يسمونها وزارة العافية.

هبطت فى مطار "دار السلام" بعد أيام قليلة من استقلالها والإدارة

الإفريقية لم تتمكن بعد من ممارسة عملها، فكان ضابط المطار إنجليزياً، ولم تكن معى تأشيرة دخول، فلماذا أحتاجها وأنا ذاهب إلى بلد حر صديق، ثم إننى لا أعرف لهم قنصلية، أو تمثيلاً فى القاهرة، سوى أربعة شارع حشمت، الذى كان بيت الإفريقيين الثوار وهو لا يصدر تأشيرات.

قضيت ليلة فى المدينة على أن أغادر فجراً إلى المدينة الجميلة "أروشا" فى حضن أشهر جبل فى إفريقيا وفى العالم "كليمنجارو" بالجليد على قمته العالية فى قلب إفريقيا الساخنة، وكان يلهب خيال العالم برواية كتبها "أرنست همنجواى" تحمل اسمه تحولت إلى فيلم قامت ببطولته "أفا جاردنر".

والمناسبة حضور مؤتمر لمنظمة التضامن الآسيوية الإفريقية وسكرتيرها العام الضابط الروائى "يوسف السباعى" ودينامو حركتها المثقف المصرى الدكتور "مرسى سعد الدين"، الشقيق الأكبر للملحن العبقرى "بليغ حمدى"، ووفود من كل البلاد المتطلعة للحرية والاستقلال، يقوم بالترجمة بينها "بهية كرم"، ويساعدها الشاب المتألق "سمير صبرى"، وقد أصبح ومازال فناناً شاملاً.

أهم رحلة بعد الخطب السياسية والتوصيات الكلامية هو رحلة سفارى إلى قلب أدغال تنجانيقا، ولكننى للأسف لم أر كثيراً ولم تتح لى فرصة أخرى لمثل تلك الرحلات ذات الطابع الخاص.

مرة كنت مرشحاً للمشاركة فى "سفارى" إلى كينيا، لولا أن منظم الرحلة الذى لم يكن يعرفنى شخصياً، ويختار معه شخصيات مثل الفنان "فؤاد المهندس" سأل: "هل دمه خفيف؟!".. ولم يستطع أحد أن يؤكد له ذلك.

ومرة عندما كان "مجدى أنيس" الفندقى المصرى الناجح دولياً يشغل منصب مدير فندق "شيراتون" فى هرارى عاصمة زيمبابوى، ولكننى لم أفعلها ربما كانت السن قد تقدمت بى، وأصبح صعباً الجرى أمام الوحوش!

هكذا تلقفت كتاب "رحلة إلى مهد البشرية" بحماس وقرأت التجربة العريضة لمؤلفه الدكتور "رشدى يوسف"، وقد بدأها بالفساد الإدارى وبطء الإجراءات، مما يجعله بالنسبة لما نشكو منه فى مصر "هبلاً واستهبالاً".. لم يكن قد سمع بعد حكمة: "لا تتعجل أنت فى إفريقيا".

يفيدنا بما يتقصاه عن حكم العرب وآثارهم ولقائه ببقايا الإنسان الأول، لامس جمجمته وعاين آثار أقدامه.. واستمع إلى حديث الأصوات حتى أصبحنا عبر مئات الألوف من السنين قادرين على تقطيع الحروف ونطق الكلمات.

عندما دخلت سفارى تنجانيقا، لفت نظرى أكثر رجال طوال القامة، يعيشون وسط الغابة مع الأسود.. ولم أعرف عن قبائل "الماساى" الكثير ولكن الدكتور "رشدى" اهتم بهم وعددهم أكثر من مليون رفضوا الاندماج مع سائر القبائل.. يتميزون بالرشاقة والملابس الحمراء المزركشة والأذن المثقوبة ثقباً كبيراً يحوى العديد من الأقراط الملونة، يعيشون على دم البقر، تعتمد مكانتهم الاجتماعية على عدد ما يملكونه من البقر، تتعدد زوجاتهم ويقدم رجل "الماساى" سريره لضيفه، ولكن للزوجة الحق أن تقرر إذا كانت ترغب فى النوم مع الضيف أم لا!!.. والرجولة هناك تبدأ بأن تقتل أسداً!!

عشت مع الدكتور "رشدى يوسف" سائحاً فى "زنزبار" التى لم أستطع زيارتها وكأننى عشت معه أياماً فى فندق هو قصر عربى، كان بيتاً لرجل أعمال عربى بناه قبل ألفى عام ومازال بطرازه نفسه.. وكأننى على الشاطئ، حيث تمتد فى المساء طاولات وكراسى بلاستيك يجيئهم الطهاة بعربات متنقلة ومواقيد الفحم يعدون العشاء للزائرين.. أسماك مشوية ومقلية، إستاكوزا، أخطبوط، دجاج وشرائح لحم، مع أشهى أنواع البهارات.. ورجل أحضر معه عصارة قصب.

وكأننى دخلت معه سوق العبيد والسجن الذى كانوا يساقون إليه حتى يتم بيعهم بعدد محدود حتى لا يبخس العرض الكثير الثمن.

وحتى بعد أن توقفت تجارة العبيد ظلت تدور فى الخفاء فاعتمد السلطان العربى على تجارة العاج، فقل صيد البشر وزاد صيد الفيلة.

وكأننى أكلت معه فى مطعم أصحابه من أصل عمانى، نسوا لغتهم العربية إلا قليلاً، لكنهم يقدمون طعاماً عربياً محبوكاً بتوابل زنجبار: الأرز بجوز الهند واللحم بالقرنفل وفاكهة من خيرات الجزيرة، وخروب مثلج.. يقول فيها الشاعر:

أناجر اللحم ترياق من العلل وأصحن الرز فيها منتهى أملى

وكأننى قمت معه برحلة سفارى: قطيع من الغزلان يتهادى.. فيل وحيد بالقرب من زرافة شامخة العنق تنظر إلينا بدلال.. وإقامة فى محمية "فوكس" نبيت فى خيمة مع تحذير بألا نغادرها إلا بصحبة حارس مسلح من "الماساى"، فهناك فيل هائج يحوم حول المكان.. ثم كان العشاء أمام حمام سباحة محفور فى الجبل.. فلما انقطعت الكهرباء فور عودتنا وغرقنا جميعاً فى ظلام عميق استبد الذعر بالزوجة، تصورت وحوشا تهاجمنا، أو فيلاً يقتلع خيمتنا، وتماسيح تجرى وراءنا ونسوراً تقتلع رءوسنا.

تكاثرت الوحوش على مراتى

فلا تدرى بأيهما تموت!

فلما جاء موعد العودة بعد سنوات جميلة، أنجبت كتاباً مهماً ودعه الفقراء بكلمة "كواهيرى" أى إلى اللقاء.

لقد تأخرنا عن إفريقيا وها هم وزراؤنا وخبراؤنا ورءوس أموالنا يعودون إليها نمد أيدينا لتتعانق على جسور من الود القديم.

الوسادة الذهبية

من لحظة اللقاء فى مطار القاهرة أصبحنا أصدقاء رغم فارق السن، واختلافات أخرى.

كنا معاً فى الطريق إلى رحلة لا تنسى.. كلها سياحة فى بلد آسيوى جميل.. معرفتى بالفلبين كانت كلها سياسة من حاكم ظالم مستبد ولص، إلى زوجة فاتنة أشهر منه خرجت من القصر بليل بعد أن تركت ألف جوز جزمة كانت حديث العالم، وبين الرئيس والسيدة الأولى شعب يعانى ولكنه يرقص ويبتسم.

لم أكن أتصور أن سر بقاء الفلبين هو جمالها.. الأمر الذى أتيح لى الاستمتاع به بصحبة ثلاثة من خبراء السفر: المتألقة من زمان دائماً هالة سرحان، والكاتب السياحى المنتشر عبدالرحمن سليمان رحمه الله، والنجم الصاعد فى عالم الفنادق مجدى أنيس.

كادت العاصمة مانيلا تفسد كل شىء بزحامها وضجيجها والحر والرطوبة، لولا أن هربنا سريعاً بخطة مدبرة من مديرة هيئة وتنشيط السياحة إلى جزيرة واحدة من سبعة الآف، لا يكاد يسكنها أحد، ولا يسمح فيها بمرور السيارات، والطريق إليها قارب صغير يشق المياه الهادئة الممتدة.

الفندق الصغير مجموعة شاليهات متناثرة وسط ورد وأشجار يقولون إن

البنات الفليبينيات يخلعن ملابسهن كاملة قبل ظهور الشمس، وينزلن إلى البحر حالمات متفائلات بزواج سعيد.. هكذا يعتقدن، وهكذا تسلل واحد منا لم ينم الليل حتى يشهد الأسطورة.

عدنا وتفرقنا، ولكن مجدى أنيس بقى على اتصال دائم أتابعه وهو يتقدم ويتعلم ويفرض نفسه بجهده وكفاءته واستقامته على الإدارة الفندقية الأجنبية، فيأخذ مكانه سريعاً إلى القمة.

من محاولات التدريب الأولى فى لندن إلى أكبر فنادق مصر على النيل وفى الإسكندرية؛ ليتم اختياره مديراً للشيراتون فى مدينة هرارى عاصمة زيمبابوى فى قلب أفريقيا.

كم تمنيت أن أذهب إليه هناك لأشهد على الطبيعة نجاحه وصداقاته التى وصلت إلى رئيس الجمهورية روبرت موجابى، بصرف النظر عن الرأى السياسى فى نظام حكمه، ولرحلة سفارى فى الغابات، والوصول إلى أشهر شلال فى أفريقيا (فيكتوريا) ينافس نياجرا فى أمريكا وكندا مع فارق فى الطبقة المحيطة به.

من أفريقيا ذهب إلى ما هو أبعد.. إلى الصين، حيث التطور السياحى والفندقى السريع ليستقر أخيراً عند هضبة التبت بما لها من سحر وغموض، ولكننا لم نفقد الاتصال برسائله الإلكترونية الأسبوعية العامة والخاصة، ومتابعته اليومية لكل ما يجرى فى مصر، لا ينافسها فى قلبه سوى ياسمين ابنته الوحيدة التى عاشت معظم سنوات عمرها فى أوروبا وأمريكا، فازدادت عشقاً لوطنها الذى اختارت العمل والإقامة فيه بعد أن تخرجت.. يتصل بها تليفونياً يطمئن على حالها وأنها من الشغل للبيت ومع الأهل والأصدقاء، فإذا به يكتشف أنها كانت تحادثه من ميدان التحرير، وتسأله دائماً: لماذا لا تعود ويعود غيرك لتفيد مصر بخبراتهم؟!

كل تلك المسافات مهما تبعد تحولت بالتقدم المثير لوسائل الاتصالات إلى سفر، فلم تعد هناك غربة.

ذكريات جميلة طافت بخيالى، وأنا أقرأ فى مجلات سياحية عالمية متخصصة أن مجدى أنيس أصبح مديراً عاماً فى ستاروود، واحدة من كبرى شركات الإدارة الفندقية فى العالم، ومديراً لثلاثة فنادق فى وقت واحد، وفاز هذا العام (٢٠١١) بلقب أفضل مدير لفندق سانت ريجيس فى لاسا عاصمة إقليم التبت فى الصين.

ختامه مسك

كناسة الصحف!

لا تفهمونى غلط، وتظنوا أنى أقصد الزبالة ذات الرائحة العفنة التى تصدر أحياناً من مقالات تنشرها صحف معطرة.. بعضها يستحق الحرق أو الفرم، ولكنى مع أهلى وعشيرتى ظالمين أو مظلومين وكيف أنصرهم ظالمين؟.. بردهم عن الظلم.. أى عن الجهل والنفاق والفبركة!

العنوان أوحى به كتاب جميل لأديب ليس له مثيل "يحيى حقى" الذى قدم أعمالاً متميزة: "صح النوم"، و"تراب الميرى"، و"أم العواجز"، و"خليها على الله"، اشتهر منها أكثر ما تحول إلى فيلم سينمائى: "البوسطجى" و"قنديل أم هاشم".

غير أن لكتابه عن تاريخ حياته مذاقاً مختلفاً، وقد سمَّاه "كناسة الدكان" مستوحياً ما يتخلف عن يوم عمل طويل داخل دكان.

ودكانى هو الصحف التى أغرق فى قراءتها والتفتيش بين سطورها.

بينما "إبراهيم كامل" مشغول فى "الآى باد" وهو داخل القفص، و"مرتضى منصور" يصر على المقاطعة، حتى قال له رئيس المحكمة: "اسكت ما تتكلمش ومش هاقولها تانى"، كان شهود فتحى سرور من الصحفيين، وزمان لم تكن المحاكم تقبل شهادة الصحفى، توقع أن ينصفوه، فإذا بمحمد أبوزيد زميلنا فى جريدة الشروق يروى قصة اجتماع حضره بعض المحررين البرلمانيين يوم معركة "الجمل" تدين رئيس مجلس الشعب السابق، حتى بعد أن خرج من القفص وناقشه موجهاً له عدداً من الأسئلة الاستكارية اتهمه فيها بعدم التركيز، ونشر أخبار غير دقيقة "كاذبة" عن الوزارات والمجلس، وكانت له واقعة مع وزير الخارجية الأسبق "أحمد أبوالغيط".

ليس هذا هو ما أخرجته الكناسة، وإنما أن يكون بين الشهود الصحفيين من لم يحضر أساساً اجتماع فتحى سرور فماذا سمع وماذا يقول؟! طال ذلك الاتهام أربعة زملاء من صحف مستقلة وقومية ومجلة أسبوعية!! يأمر الله بالستر!

وهو عائد إلى سجن مزرعة طرة، ضبط فتحى سرور وهو يخفى ألفاً وخمسمائة جنيه فى جيب سرى بالبنطلون الأبيض أعطته له ابنته فى الجلسة!!

ومن المحررين البرلمانيين إلى اللواءات المنتشرين على شاشات التليفزيون، بعضهم يشرح ويفسر باعتباره خبيراً استراتيجياً، وبعضهم يهاجم ويتحدى باعتباره على هامش السلطة.. تحولوا إلى إعلاميين بالكاكى!

يقول عنهم "جلال عامر" فى "التويتر"، الذى يشكو بدون زعل من نشر واستغلال الصحف لما يكتب دون ذكر اسمه وأجره على الله: «اللواء فى الخدمة أحب وأقرب إلى نفسى من اللواء فى المعاش، فالأول قد يعذب فرداً فى المديريات، والثانى قد يعذب شعباً فى الفضائيات».

"جلال عامر" محارب قادم ولواء فى المعاش ومرشح دائم فى انتخابات مجلس الشعب بالإسكندرية لازمه التزوير!

وبمنتهى البراءة يعيد "محيى السمرى" فى "حكاية كل عصر" بجريدة المساء إجابة اللواء "على صبرى" رئيس الوزراء وأحد قيادات ثورة يوليو على سؤال المهندس "سيد مرعى"، وكان سياسياً لبقاً: كيف يستطيع اللواء كمال رفعت "إدارة مؤسسة صحفية كبرى" "أخبار اليوم" وهو بعيد تماماً عن المهنة؟

أجاب "على صبرى": "مش المسألة كلها طلعت تهويش فى تهويش، والعملية مش عاوزة غير شوية فهلوة وحداقة".

رحم الله الجميع، ويرحمنا!

كاتب "رايق" ورئيس تحرير سابق مرموق "جهاد الخازن" يخرجنا مما نحن وهو فيه، ويأخذنا معه على الورق فى رحلاته ما بين بيروت ولندن.. ولا مرة إلا وكانت بجانبه على الطائرة شابة حسناء.. ودائماً يصل الخبر إلى العائلة قبل أن يصل إلى البيت.

فى رحلته الأخيرة كان الجالس هذه المرة المغنى الكبير راغب علامة، وهو صديق عزيز يتجاوز الحديث معه الفن إلى السياسة والثقافة وكل شىء، فله نشاط اجتماعى ويسهم فى أعمال خيرية كثيرة.

جلوسه إلى جانب "علامة" أدى إلى تكاثر الشابات حوله؛ حولهما.

إذا كان القارئ يحسده أن يحظى بمجاورة الحسان أو "راغب علامة" خمس ساعات فى طائرة، فقد كان فى الليلة السابقة لسفره خارجاً من عشاء مع مستشارى مؤسسة "الفكر العربى" فى مطعم يطل على البحر فى منطقة "الروشة" عندما التقى الفنان العراقى "كاظم الساهر" واستعادا بعض الذكريات عن الصديق المشترك الشاعر "نزار قبانى".

من بينها إعجاب "جهاد الخازن" بأغنية "زيدينى عشقاً زيدينى" كلمات ولحناً وأداءً مع تعليق على بعض أبياتها.. وأغنية أخرى لكاظم من قصائد "نزار" مثل "علمنى حبك" فكتب الشاعر رداً بعنوان "رئيس التحرير الموسيقار"، لم ينشره فى جريدة "الحياة" التى كان وقتها يرأس تحريرها.

يقول: إنه يحاول بهذا المقال أن يبعد القارئ عن السياسة ولو مرة فى الأسبوع، ويخشى أن يكون قد أغاظه بالكلام عن الحسان وعلامة وكاظم معترفاً بأنه متزوج جداً وجبان، حظه من الحسان فى البر والبحر والجو على طريقة "شم ولا تذق".

ولمزيد من إمتاع القراء فى هذا الجو المشحون بالخوف والقلق والغضب يختار فؤاد معوض "فرفور" أعمالاً بديلة للفنانين المصريين من واقع معرفته بهم وحبهم له:

"محمود قابيل": سفير فى السلك الدبلوماسى.. و"سامح حسين": سفير فى السلك "الدبلوماشى".

"لطفى لبيب": ممرضاً فى مستشفى الأمراض العقلية.. و"وحيد سيف": زبون فى المستشفى نفسه.

"صلاح عبدالله": مدرس ابتدائى.. و"محمد سعد": حارس فى جبلاية القرود.

"عزت أبوعوف": "مانيكان".. و"مصطفى فهمى": رئيس استقبال فى فندق.

"سعيد طرابيك": حانوتى.. و"رشوان توفيق": ترزى بلدى.. و"تامر حسنى" صبى كوافير حريمى.

"ريكو": منادى على ميكروباص.. و"ماجد الكدوانى": "بائع بطاطا".. معسلة!

ونصيحتى ألا تقرأوا الصحف ولا تقربوا التليفزيون.. تكفى "الكناسة" من حين لآخر!!

كلمات قصيرة

● آخرها سطر ونصف السطر من مقال للدكتور «عمار على حسن» ينصح «الأكاديميين الذين يرضون بأن يلعبوا دور الصلصة التى توضع على السمك المتعفن».

● قرأت عن حوار بين العالمين الجليلين الدكتور أحمد زويل «الحائز على نوبل» والدكتور «محمد غنيم» مؤسس مركز «الكلى» العالمى فى المنصورة.. جاء فيه أن الدليل على نظرتنا للعلم تلخصه حكاية يوم انهيار الاتحاد السوفييتى واضطرار المتميزين من خبرائه للهجرة والعمل فى بلاد أخرى.. اختارت إسرائيل نخبة من العلماء فى مختلف المجالات وأولها الذرة، وركزت مصر على استيراد الراقصات الروسيات!!

● أصدرت «مادلين أولبرايت» وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كتابا اختارت له عنوان «حكايات من صندوق مجوهرات الدبلوماسية» يدور حول هوايتها المفضلة فى اقتناء «البروشات»، والتى ترى أنها تحمل أكثر من معنى، تستخدمها فى المناسبات وفقا لرأيها وموقفها ومزاجها، فإذا وضعت «بروش» على شكل فراشة أو خنفساء يعرف الآخرون أنها سعيدة، أما إذا لم تكن فنرى على صدرها عقربا أو دبورا.. وواحد من أشهر البروشات يجمع بين النسر والحمامة وهى تراه تعبيرًا عن القوة طريقاً للسلام.. ومن أشهر وأجمل ما تقتنيه هو «ثعبان» من الذهب، مرصع بالأحجار الكريمة، كانت

ترتديه دائما عندما تلتقى مع المسئولين العراقيين، إذ كانت صحف بغداد أيام «صدام حسين» تصف أولبرايت بأنها ثعبان!

● يفكر «جلال عامر» الكاتب السياسى الساخر الواعى فى الانضمام هو وأولاده للحزب الوطنى إعارة لمدة أسبوع، يشترى شقة تطل على المنور، ويمسك شركة بترول، ويرجع تانى لقرائه وهو حاطط الشركة فى الشنطة، والشقة فى المنور.

● يتذكر «جمال الغيطانى» أياما قضاها فى «بولونيا» الإيطالية فى لقاء بين مثقفين عرب وأوروبيين.. أول ما فعل بعد رحلة طويلة بالطائرة والأوتوبيس، والقطار والتاكسى، ومشيا على الأقدام أن أسرع إلى حجرته بالفندق يتحقق من ملابسه المبللة بالعرق، ويفتح زجاجة مياه معدنية من الثلاجة الصغيرة.. بعد يومين التقى بصديقه الناقد الدكتور «صبرى حافظ» داخلا الفندق، وفى يده زجاجتان من المياه فى حقيبة بلاستيك، فاندهش لأن ثلاجة الحجرة مليئة بأصناف من المياه والعصائر.. أجابه: أسعار الفندق غالية، وما فى الثلاجة لا يدخل فى حساب الضيافة إنما يدفعه النزيل. ما هو الحل وقد شرب «الغيطانى» أكثر من عشر زجاجات ثمنها الشىء الفلانى..

انتهى المؤتمر ودفع «صبرى حافظ» وودعه «جمال الغيطانى» ليأتى دوره فى الحساب فكانت المفاجأة لا شىء.. خشى أن يكون هناك خطأ سوف يُحاسب عليه الموظف المسكين فراجعة مرة واثنتين، ولم يتوقف إلا عندما قال له: المبدعون لا يدفعون، ولكن النقاد لابد أن يدفعوا!!

● بيت شعر لمريد البرغوثى فى رثاء الشاعر الفلسطينى الكبير «محمود درويش»:

كشرفة سقطت بكل زهورها

فتجرحت بالعطر أرجاء المكان

لعنة سن الستين!

كنا نحب المدير العام ونبتسم كلما أوكلت إليه مهمة إرسال خطابات الإحالة إلى المعاش لمن يصل إلى سن الستين؛ ذلك أن الرجل نفسه فوق السبعين جاء إلى المؤسسة بعد إحالته إلى المعاش فى مكان مرموق لكفاءته ومجاملته.

كان الرئيس أنور السادات قد تفتق ذهنه أو استمع إلى الصحفيين المحيطين به وأصدر قراره بأن يحال الأراذل إلى المعاش؛ فالصحفيون ليست على رءوسهم ريشة.. والهدف هو التخلص من مقالات مصطفى أمين وجلال الدين الحمامصى على وجه التحديد، فيشاء القدر ألا تقصف أقلامهم وأن يطبق القانون على من نصحوا به وزينوه، ولو أن قلوبهم كانت ضده، بينما أقلامهم، كانت معه بمنتهى الحماس.

تذكرت ما فات عندما أعلن الدكتور يحيى الجمل نائب رئيس الوزراء، والموكل إليه ملف الصحافة والإعلام أن فوق الستين يمتعون واختيار رؤساء التحرير الجدد فى حدود الأربعين، وابتسمت لأن الرجل فوق الثمانين، متعه الله بالصحة والعافية، وأطال لنا عمره.. وعلى أى حال فنحن فى عصر ثورة الشباب، وفى زمن يعرف فيه الأطفال ما لم نكن نعرفه ونحن كبار.

لاحظت أن الزمن يجرى وكل من ألقاهم فوق الستين، مما جعل الالتزام بالقانون صعب التنفيذ، وأصبحنا فى عالم الصحافة والثقافة مستمرين، ولكن بقرارات إدارية وتحايلات قانونية، وسنة وراء سنة.. وفى هذا تظهر

الأهواء، فزميل لنا لا خلاف على كفاءته وخبرته فى تخصصه لا يعيبه سوى أن لسانه منه برىء، لم يصدر له قرار بالمد بعد الستين سوى لعامين اثنين استغنى بعدهما عن تميزه؛ لأن رئيس مجلس الإدارة وطبعاً سائر المجلس لا يطيقه.

الصحيح أن يترك أصحاب المعاشات أماكنهم القيادية والتنفيذية للشباب، بينما يبقى عطاؤهم مستمراً.

ولا تقولوا بتحويل الكبار إلى مستشارين، لأن ذلك يذكرنى بقصة نصف حقيقية عن أستاذ فى الثروة الحيوانية تحول إلى مستشار تكريماً له بعد أن وصل إلى سن المعاش كان فى طريقه ليلاً إلى الإسكندرية عندما تعطلت سيارته فى الطريق الصحراوى، ليس له فى الميكانيكا فاختار وانتظر دون جدوى من يساعده، ولكن الفجر يقترب والحركة هادئة فلم يعد أحد فى هذا الزمان يقف لسيارة معطلة.. بعد طول قلق رأى من بعيد بصيص نور، فأسرع إليه على قدميه ليجد بيتاً صغيراً أنيقاً فى مكان لم يتوقعه وكأنه نزل إليه من السماء.. دق الباب.. فتحت سيدة فى منتصف العمر، سألها إن كانت تعرف من يساعده.. قالت إن هناك "ميكانيكى"، ولكنه أغلق دكانه ولا تعرف أين يقيم، وليس أمام الرجل الذى عرفت أنه مستشار إلا أن يبيت الليل فى دارها حتى الصباح.. بعد تردد اضطر للموافقة، وقدمت له طعاماً، و تسامرا، كانت هى الأخرى تحس بالوحدة والوحشة.. عرف أن مشروعها هو تربية الدجاج، وعرفت أنه خبير ومتخصص فى هذا المجال، وعدها أن يتفقد المشروع مجاملة لها، ورداً للجميل.

مع تباشير الفجر استعد المستشار لمغادرة المكان، ولكن بعد تفقد المزرعة وجد أن عدد الديوك أكثر مما يجب، فقدم ملاحظته للسيدة التى قالت بهدوء أعرف، فمعظمهم لا داعى لوجودهم، حفنة منهم تكفى.. ولكن يا سيدى كل هؤلاء مستشارون!!

انتهت الحدوتة!!

لا تطفئوا الشموع

أرى الشموع وقد ملأت الميدان، كل الميادين.

والملابس السوداء تلف الكثير من الأجساد

إنه يوم عيد

لو أن كل شمعة ترمز لشهيد لملأ النور المكان.. كل مكان

وليس السواد إلا رمزاً لحزن على فراق، وعهداً على الاستمرار فلا تطفئوا الشموع ولا تخلعوا السواد.

أرى "أحمد حرارة" وقد فقد عينيه قرباناً للحرية، بينما الخزى في عيون الذين أرادوا أن يطفئوا نور الثورة بنار الحقد.. أكثر الجميع إصراراً، فماذا يجديه ما قيل إنه عرض عليه منصب وزير، وهل حقاً يرى الوزراء تحت أقدامهم؟

عشرات العيون ضاعت، فأصبحنا نرى أكثر وضوحاً

أرى "سميرة" الشجاعة وقد جعلتهم فى خزيهم غارقين، وما رد الفعل لحكم المحكمة فى قضية كشف العذرية إلا مكابرة وأى كلام.. قال الحكم ما يلزمناش!!

و"ست البنات" التى قاومت حتى تعرى جسدها؛ فكان فضيحة للأشداء!! وأصبحت صورتها فى العالم كله رمزاً لكل معانى العزة، أو أنه الانحطاط..

وما رد الفعل الطيب لمن عرضوا الزواج بها سوى كلمة تقدير فلو أنها شاءت لتمناها رجال مصر جميعاً.

و"هبة" و"غادة" والأخريات، كلما استمعت لمن باع قلبه ولسانه ليقول همه إيه اللى وداهم هناك؟

جلسنا بجوار المدفأة وبناتنا وشبابنا فى الميدان.

أما الشهداء فيحلقون فوق المكان، فوق مصر، يبتسمون، ويحولون دون إطفاء الشموع، فاليوم مثل كل الأيام حتى يتحقق النصر.. فهل يتأخر؟!

عيد ميلاد لم تشهد مثله البلاد.

النور لونه أحمر، والصمت كأنه هدير.

عندما ينتصف الليل تدق الساعة وتتلألأ شجرة عيد الميلاد، بصور الشهداء بينما تتم تلاوة تواشيح صوفية وترانيم قبطية وأغنيات ثورية للحجار وعزة بلبع.. إنه احتفال فريد من نوعه كم يزعج الغربان!! ورسالة ثورة وحضارة وسلام، لن تفسدها أصوات: تسلم إيدك يا باشا!!

مازال "محمد هاشم" يحتفظ بالخوذات والأقنعة الواقية من سموم قنابل الغاز، والبطاطين تحمى من برد الشتاء فى العراء أسرع عائداً من ألمانيا بعد أن نال جائزة دولية لدفاعه كناشر محترم عن حرية التعبير كى يحمل شمعة فى ميدان التحرير.

وتعجبنى رسالة الناشر اللبنانى "حسن ياغى": أنا معك يا محمد، أقف إلى جانبك فى مواجهة كل أشكال الرقابة والقمع والمنع.

الشيخ عماد عفت والطبيب علاء عبدالهادى، والطالب محمد مصطفى، وأحمد منصور، وسامح أنور، ومئات لا يهمهم أن تذكر أسماؤهم، فهم أحياء عند ربهم، يصورهم الفنان "حلمى التونى" بفتاة هى مصر تذرف دمعة واحدة، وترفع إصبعها محذرة: عندى قتيل مقتول برصاصكم وماخدتش لسه عزاه!

ومصطفى طاهر على "تويتر" : فى ٢٠١١ شفتوا بجاحة وشفتوا جراءة.. شفتوا القتلة بياخدوا براءة.

كل عام وأنتم بخير، على طريق الثورة.

يانورعينى..

اعذرونى إذ أكتب عن هَمٍّ شخصى طاردنى، ثم داهمنى فأزعجنى ولو أن هناك دائماً خيراً مهما يصبِّنا.

أغمضت عينى ذات صباح، فوجدت العين الأخرى لا ترى سوى بقعة سوداء.

أسرعت بعد تكاسل وإهمال إلى أستاذ طب العيون "أسامة سالم"، فهو عالم مشهود له وصادق مدقق مع مرضاه، كما أن بينى وبينه علاقة خاصة، بدأت منذ سنوات طويلة وهو مازال يدرس الدكتوراة، فهو بمثابة الابن للراحل الكريم "مصطفى بهجت بدوى" الضابط الشاعر الشريف، وكان رئيساً لدار التحرير وصديقاً لا يعوض.. طالما قال لى إن أسامة فى مقام ابنه، بنفس معزة ابنه الوحيد المهندس "محمد بدوى".

أول مرة كانت عندما زغللت عينى، وأنا مازلت شاباً، فأخذنى "مصطفى بيه" إلى الدكتور "أسامة" بالغ الرقة والهدوء والثقة فى النفس.. وتم الشفاء السريع بأشعة "الليزر" التى لم يكن استخدامها واسع النطاق فى ذلك الوقت.

وآخر مرة كانت عندما اسودت الدنيا فى عينى الشمال قبل شهور قليلة.. وكان العمر قد تقدم وداء السكرى قد تمكن، ولابد من أشعة ملونة وأخرى مقطعية، انتهت إلى أن السكر برىء وأن السن هى السبب.

أما الحل فالحقن فى العين، وأصارحكم بأن الفكرة أزعجتنى، ولكن الأمر لله وللطبيب.

قد تغير أو لا تغير من الأمر شيئاً، وفى كل الأحوال لا يزيد عدد مرات الحقن على تسع، والأفضل أن نجرب، فلو أن الأولى حققت تقدماً ولو محدوداً، نكمل العلاج بالحقن.. عند هذا الحد تتوقف حدود العلم.

سرعان ما تدهورت الرؤية وأصبحت عاجزاً عن قراءة الصحيفة، موضة هذه الأيام تصغير الحروف على الآخر لاستيعاب أكبر عدد من الكلمات التى تسود الصفحات دون الرفق بالعواجيز، وهم من يتبقى للصحف الورقية من قراء، بينما انتقل الملايين إلى عالم الإنترنت الواسع.

والتليفزيون أيضاً تتسدل على صوره من حين لآخر ستائر شفافة بيضاء تغيظ إذا أردت التدقيق فى حوادث قتل البشر وما أكثرها، أو فى نعومة فتاة جميلة وما أقلها، ومهما يكن الجهاز ٣٧ بوصة LCD.

القراءة والمشاهدة هى حرفتى وهوايتى ومتعتى.. سوف أدخل فى الدوامة من جديد وأنا مش ناقص، ولكن طبيبى منزعج ويتهمنى بالتأخير والتقصير، وهو أمر يخيفنى.

فجأة نزلت السكينة على قلبى وأنا أحمد ربى على سنوات طويلة من نعمه، من بينها حدة البصر للتفتيش ما بين السطور، والكشف عن خبيث الكلام.. وأذكر كلمات "طه حسين" عندما قال: "الحمد لله أن خلقنى أعمى حتى لا أرى وجوهكم القبيحة".. وأقول الحمد لله أن ضعف بصرى حتى لا أقرأ "تلاكيك" وزير الإعلام، أو أسمع التلهف على "تفعيل" قانون الطوارئ، أو حواديت الدستور "قبل أو بعد"، والكلام عن التخوين والقبض بالدولار والريال وبالمصرى أيضاً، والتهديد بقطع يد السارق و"كلنا لصوص"، والرئيس السابق على السرير فى قفص الاتهام "صاحى ولا نايم؟!".. وابن الأسد يحتفل بعيد ميلاده، والأنخاب دماء الشعب السورى يقتلهم بكل الطرق، ويعذبهم بكل الوحشية، ولكنه لا يصوب الطلقات إلى العيون، مثلما حدث عندنا. فهو أيضاً "طبيب عيون"!!

آخر خدمة "الغز" عمود !

وجدت نفسى فجأة فى آخر عمود.. انتقل مقالى "من غير ليه" إلى الصفحة الأخيرة.. لست أدرى من فعلها؟.. ولماذا؟.. لا يهم إلا أن يكون جنى مصباح علاء الدين نقل الكلام من الصفحة الرابعة إلى الصفحة الرابعة والعشرين.. خيال واسع انتهى إلى واقع أن مدير التحرير محمد أبوكريشة هو الذى ارتكبها.

هكذا أصبحت على كف عفريت، فأى "زقة" تخرجنى من الصفحة وبره الجورنال، فالمكان يغرى فى زمن التغييرات.

ولأنه تغيير "عتبة" اللهم اجعلها بركة، لم تكن متوقعة، فقد رأى البعض أنه شلوت لبرة، خصوصاً أنه جاء مع تعيين رؤساء جدد للمؤسسات الصحفية بعد "نشفان الريق"، وانتشار الشائعات وتصريحات من نوع "فوت علينا بكرة".

وقد تعودنا أن يخرج الزميل من مكتب رئيس التحرير إلى عمود يومى باعتباره آخر خدمة الغز، أو مكافأة نهاية الخدمة.. وقد يكون لزيادة نكد القراء، فالأعمدة الصحفية على قفا من يقرأ، ما شاء الله حاولت أن أحصيها فأخطأت الحساب، وأصابنى الملل، بعد أن وصلت لأكثر من مائة عمود فى اليوم الواحد بالصحف القومية غير المقالات.. وعشرات مثلها فى الصحف الخاصة.. والجديد أن بعضها خصوصاً للمستجدين أصبح يقاس

بالمتر، مثل كبابجى "عين شمس" الذى يعلن عن كفتة بالمتر، ولو أننى لم أجربها فلن أستطيع هضمها!

هذا ولم تعد المقالات، مهما تكن، هى التى توزع الصحف مثلما كان الباعة ينادون: اقرأ طه حسين بدلاً من اسم الجريدة التى يكتب فيها، وكانت الصفحة الأولى بالكامل مخصصة للكاتب الأول، وهو ما تكرر بعد ذلك فى الزمن الأخير، ولكن شتان.. لذلك أرجو أن تكون الثورة الضرورية فى الإعلام هى العودة إلى المهنية والاهتمام بالخبر والتحقيق والصورة، وكفانا تسويد صفحات.

أخشى أن يكون حالنا قد وصل إلى ما جاء فى رسالة إلكترونية تقول فى وصف الإعلام المصرى: عامل زى واحد أخرس بيقول لواحد أطرش إن فيه واحد أعمى شاف واحد مشلول بيجرى ورا واحد أصلع بيشد فى شعره!!

★★★

تذكرت كيف بدأت كتابة عمود بعد سنوات من الشغل اللذيذ، محرراً، ومراجعاً، ومندوباً، ومترجماً، كعب داير، حتى تربعت على كرسى.. لم أجعل لما أكتبه عنواناً لعشرين عاماً، إحساساً منى بأنه لا شىء يدوم، حتى جاء رئيس تحرير جديد - واسمحوا لى ألا أذكر اسماً، فكلهم أصدقاء - أصر على عنوان دائم.. وأنا أخاف رؤساء التحرير، خصوصاً إذا كانوا بشدة الغربال، مثلما أخاف من رجال الشرطة، خصوصاً لو كانوا شاويشية.. كان لابد أن أسمع الكلام .

عندما بدأت، قبعت فى ركن بالصفحة الثانية، وقال لى رئيس التحرير الأسبق: أحسن، حتى لا يأخذ «أولاد الإيه» بالهم من كلامك، ثم انتقلت بعون الله وبعد سنوات، ومع تغيير القيادات، إلى صفحة داخلية، ولم يكن يهمنى المكان، دائماً شطب كلمات حسب المزاج، وتقارير شفوية من شخص ما، فيما يسمى مطبخ الصحيفة يعمل «ناضورجى» يفتش فى ضمائر الكتاب، ويبلغ مخاوفه ومبالغاته لصاحب الأمر والنهى المشغول فى سهرات علاقات عامة مع الكبراء والوزراء والشماشرجية.. ليس عنده وقت والشطب أسهل الأمور.

وحتى نتعظ أحكى لكم حكاية زميلنا «عبدالعاطى»، الذى نسيناه وقد طب علينا محررًا للشئون العسكرية، ولم يكن قد وصل لرتبة «صول» فى القوات

المسلحة، فرضه أصحاب نفوذ مجهولون يرون أن الصحافة سهلة وملطشة ومهنة من لا يعرف.. كانت له هيبة رغم غلبه وطيبته فأحببناه، ولكن سرعان ما دارت الأيام، وانحسرالسلطان عمن تحمسوا له، فخرج بغير مقدمات، بعد أن كان قد لبس ثوب صاحبة الجلالة.

ماذا يفعل؟.. من حبه للصحافة، افتتح محل فول فى شارع الجمهورية سماه «فول الجمهورية».

وهكذا بقى صحفياً..!!

الفهـــرس

الموضوع	صفحة
سنوات الحب والحبس	٧
ليالى ألف ليلة	٩
حكاية شخصية للغاية	١٢
تلفق لهم تهمة	٢١
بعد عشر سنوات كتبت مقالاً	٢٤
الطريق الى المعتقل	٢٦
أدب السجون وعطر الزنازين	٣١
رحلة إلى المجهول	٣٣
أعطنى حريتى أطلق يدى	٣٥
الأبنودى الواحد والعشرون	٤٢
رسائل عطيات الأبنودى	٤٧
دارت الأيـام	٥٥
همه عذبوك يا أستاذ حجاب؟	٥٧
مقابلة وزير وإفراج سارتر	٦٠
أوراق شاب عاش منذ ألف عام	٦٣
طائر المساء الحزين	٦٦
الطوق والأسورة	٦٨
من الاعتقال إلى الفصل	٦٩
أساتذة كتابة التقارير	٨٠
بعض ما عرفت.. ومن عرفت	٨٥
ولدنا عـلاء	٨٧
«حمروش» العسكرى الاشتراكى	٨٩
إبراهيم عيسى	٩١
إمام «مكرم» الثائر	٩٤
الحماقة .. من يداويها؟	٩٦
لأنه قليل الأدب!	٩٨
عاشق وشاعر وعالم آثار	١٠١
الدكتورة عواطف	١٠٣
تعلموا اللغة الصينية	١٠٥
شهرزاد فى المعادى	١٠٧
مشاهد تليفزيونية	١١٤

الفهـــرس

الموضوع	صفحة
زمـن آل نجـم	١١٦
قائمة «درويش»	١٢٠
حارة شهدى عطية	١٢٣
انا بعد فاروق اتجوزك انت؟	١٢٥
ابن رئيس وابن روائى	١٢٩
بلاش يتحرقوا فى قطر الصعيد	١٣٢
قصائد ممنوعة	١٣٤
بورنو ببلاش	١٣٦
صباح يوم حزين	١٣٨
مَن الذى لا يحب أنيس؟!	١٤٠
حب الناس فى دمى	١٤٢
خـايفة على مصـر	١٤٤
وفاة سامية فهمى	١٤٦
إنها حقًا عيون وقحة!	١٤٨
ضياء الدين داوود	١٥٠
محمـد مصـطفى	١٥٢
وداعاً وإلى لقاء	١٥٤
إمام عادل مش عادل إمام	١٥٦
.. ومات مالك الحزين	١٥٨
عصر «إن شاء الله»	١٦١
موت أم كاتب صحفى	١٦٣
سيدة أحبت مصر	١٦٥
النبى «لا» يقبل الهدية!	١٦٧
إذا قبضت فلا تسأل؟!	١٦٩
ياقوت ومرجان من دم الصحفيين	١٧١
السفارة ومارينا وهدايا رأس السنة!	١٧٣
عودة الرئيس إلى صباه	١٧٥
من ضرب الرصاص إلى سرير فى القفص	١٧٧
وسّع يا جدع الباشا وصل!	١٨٠
أيام الشعر الغجرى المنكوش!!	١٨٤
انتخبـوا الحمـار!!	١٨٧
السياسة.. سيما!!	١٩٠

الفهـــرس

الموضوع	صفحة
ع اللى جرى	١٩٢
على باب الإيموبيليا	١٩٤
مصرى اسمه «خان»	١٩٦
فى وداع الفنان العجوز	١٩٩
موال الشجن	٢٠١
زمن «هنومة» الجميل	٢٠٣
كاريكاتير "حجازى" فى "طنطا"	٢٠٥
كسر يد رسام	٢٠٨
الرسوم الممنوعة	٢١٠
لا تضحك طويلاً	٢١٢
ليالى السهر والسفر والسمر	٢١٥
أجمل الأماكن لم أذهب إليها بعد	٢١٧
وحدى فى جزيرة!	٢٢١
فندق تركبه عفاريت الليل	٢٢٤
غرائب المشويات من الصين إلى كرداسة	٢٢٨
اخلعوا ملابسكم إلا قطعة واحدة!	٢٣١
ليلة فى قطار الشرق السريع	٢٣٥
التحرش على ظهر جمل	٢٣٩
هات يا بوس طول اليوم.. والليل	٢٤١
شالوم فى السينما المصرية	٢٤٤
آخرة الرقص فى مصر	٢٤٧
"تاريخ أقل قبحا": قراءة فى كف فندق!	٢٤٩
٤ سنين فى الأدغال	٢٥٣
الوسادة الذهبية	٢٥٧
ختامه مسك	٢٦١
كناسة الصحف!	٢٦٣
كلمات قصيرة	٢٦٦
لعنة سن الستين!	٢٦٨
لا تطفئوا الشموع	٢٧٠
يا نور عينى	٢٧٢
آخر خدمة "الغز" عمود !	٢٧٤

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

خرطوش
الثمن ١٠ جنيهات